الإرادة

يوسف إدريس

الإرادة

تأليف
يوسف إدريس

هنـــداوي

الإرادة

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٣ ٣٠٧٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور يوسف إدريس.

المحتويات

عطاء لا ينفد	٧
و.. وجهًا لوجه مع رجل الشارع	٩
قبل فتح القلب	١٧
القرار	٢٥
وقفة مع النفس هذه المرة	٣٣
ألف باء تاء ثاء	٤١
اقتحام الحياة	٤٩
باريس ٧٦	٥٧
أمريكا ٧٦	٦٣
أمريكا لغز العصر الحديث	٧١
ذات الأصابع الطويلة الشاحبة	٧٩
هذا أو الجهجهون	٨٥
محور نيكسون-يونس	٩٧
لبنان هو البداية	١٠١
وما أدراك ما القلق!	١٠٥
دكتاتورية العدالة	١١١
تعالوا ننظف مصر	١١٧
الثقة الفعل	١٢٣
«غنِّي» يا عبد الحليم	١٢٩
رأس الملك الأبيض	١٣٣

أحقًّا أحلى مذاقًا من العسل؟! ١٤١
من واحد إلى ٨٠٠ مليون ١٤٧
حرية الصحافة ليست حرية البعض ١٥١
الشمس لا تشرق فجأة ١٥٣

عطاء لا ينفد

بعد ربع قرنٍ من العطاء لم يعد يوسف إدريس في حاجةٍ إلى من يُقدمه للناس، لكن احتياجهم للاحتفاء به لم يتوقف يومًا!

ومنذ نشر قصصه الأولى .. على مشارف الخمسينيات — أدرك الذين يقرءون أن مغامرًا شجاعًا في عالم الجمال قد تخلَّق. وهكذا نبضت قصصه الأولى — التي كتبها في عشرينيات عمره — برائحة عالم فنيٍّ جديد، وتشكَّلت القصة العربية القصيرة — من خلال عطائه — لتصبح بساطة آسرة، ولتشعَّ عمقًا إنسانيًّا دافئًا، هو الحصاد الطبيعي للحنو الدافق للإنسان، والحب المشبوب له، ذلك الذي جعل مغامرة يوسف إدريس الجمالية مرحلة يبتدئ بها عصرًا جديدًا في الأدب العربي.

في مصر (١٩٢٧م)، ولد يوسف إدريس في واحدةٍ من قرى محافظة الشرقية، إحدى محافظات الوجه البحري، وشهدت طفولته فصولًا من تراجيديا الأزمة الاقتصادية العالمية، ومشاهد من النضال المصري العنيد والمستبسل ضد الاستعمار، ومن أجل الديمقراطية .. وسرعان ما أصبح واحدًا من العناصر التي صبَّت في مجرى هذا النضال في الأربعينيات وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما كانت أمتنا العربية تُعاني مخاض الميلاد الجديد؛ بحثًا عن استقلالها ووحدتها، وصدًى للقوى التي كانت تريد أن تكرِّس أوضاع عالم ما قبل الحرب.

وأعطته دراسته للطب وعمله به لسنوات ليست بالقليلة، الفرصة لاكتشاف «قارته» الفنية الخاصة، واستطاع — بقدرته الفائقة على التقاط أصغر الجزئيات، وأكثرها دلالة — تخليق عالم متكامل من الفرح الفني الآسر، يعتمد الإنسان البسيط — مطحونًا ومسحوقًا وضاحكًا وحزينًا — بطلًا.

ولولا أنه منذ البداية صاحب موهبةٍ يندر تكرارها، وصاحب مقدرة على الملاحة في البحار الصعبة؛ لكان قد صمت بعد مجموعاته الأولى، لكن يوسف إدريس عاش في وجدان نقَّاد الأدب كما عاش في وجدان القرَّاء؛ لأنه لم يتوقف يومًا عن الإبداع الجديد، ولم يكف عن المغامرة الفنية بكل أبعادها .. كما أنه لم يكف عن تجربة كل الأنواع الأدبية، فكتب المسرحية، والرواية، والرواية القصيرة، كما كتب المقال والخاطرة.

فصاحب «أرخص الليالي» (١٩٥٤م) هو الذي كتب بعدها ثماني مجموعات أخرى هي: «جمهورية فرحات» (١٩٥٥م)، «أليس كذلك؟» (١٩٥٨م)، «البطل» (١٩٥٦م)، «حادثة شرف» (١٩٥٦م)، «آخر الدنيا» (١٩٥٨م)، «لغة الآي آي» (١٩٦٧م)، «الندَّاهة» (١٩٦٩م)، «بيت من لحم» (١٩٧٣م)، فضلًا عن مجموعة أخرى تحت الطبع.

وكتب يوسف إدريس ثماني مسرحيات، مُثِّل بعضها على المسرح؛ بينما حُجِب الآخر لأسباب رقابيةٍ: «جمهورية فرحات» (١٩٥٨م)، «ملك القطن» (١٩٥٨م)، «اللحظة الحرجة» (١٩٦٠م)، «الفرافير» (١٩٦٥م)، «المهزلة الأرضية» (١٩٦٨م)، «المخططين» (١٩٦٩م)، «الجنس الثالث» (١٩٧١م)، فضلًا عن «شلة الغد» تحت الطبع.

وكتب يوسف إدريس خمس روايات هي: «الحرام» (١٩٥٨م)، «العيب» (١٩٦٢م)، «رجال وثيران» (١٩٦٢م)، «العسكري الأسود» (١٩٦٠م)، «البيضاء» (١٩٦٨م)، كما صدر له كتابان ضمنهما خواطره وانطباعاته هما: «بصراحة غير مطلقة» (١٩٦٩م)، و«اكتشاف قارة» (١٩٧١م).

وفي بداية العام ١٩٧٥م أُصيب يوسف إدريس بانزلاق غضروفيٍّ، ثم بتليفٍ من العلاج الخاطئ، أثَّر على قلبه، فسافر إلى أمريكا حيث أجرى عملية جراحيةً خطيرة، ومكث هناك ستة أشهر يُعالج من آثارها، وبدأت تجربته في مواجهة الموت تطرح نفسها في كتاباته، فبالإضافة إلى روايته الجديدة «افتح القلب» التي قال عنها في حديثٍ صحفيٍّ: إنها لو صدرت على النحو الذي يتخيله لكفَّ تمامًا عن الكتابة، إضافة إلى ذلك استأنف يوسف إدريس بعد عودته كتابة يومياته الأسبوعية، في جريدة الأهرام، فاستمر على امتداد عدة أسابيع يكتب عن تجربته في اكتشاف أمريكا وفي مواجهة الموت.

ثم ها هو يوسف إدريس في هذه السلسلة يواجه حياتنا المصرية والعربية بجرأةٍ واقتحام، داعيًا للتحرر والمواجهة، وكي نأخذ قرارنا بأن يعيش العالم المصري والعربي حياة غير تلك الحياة المؤلمة التي نحياها!

و.. وجهًا لوجه مع رجل الشارع

وليكن الرأي هذه المرة من الطرف الآخر للمشكلة؛ رجل الشارع واحد من المئات الواقفين في قيظ الظهيرة ينتظرون الأتوبيس، واحد من العشرات الواقفين في طابور الجمعية، واحد ممن تزدحم بهم المكاتب والغرف وعنابر المصانع. ولكن أيهم أختار؟ قد تجد المشكلة في الرجل ولكنك لن تجد لديه القدرة على التعبير عنها، أو قد تجد المقدرة على التعبير وحتى المبالغة فيه ولكنك ستجدها مشكلةً محدودة بشخصه أو بعمله. في محاولتي البحث عن رجل الشارع وما يُعانيه من مشاكل بدأتُ أُلاحظ الناس بدقةٍ أكثر، وبدأت أُدرك ليس فقط صعوبة الاختيار، وإنما حتى صعوبة الرؤية. فنحن نحيا وكأنما نحيا نلهث. الأزمة .. الإنسان المصري تحوَّل إلى كائنٍ غريبٍ حتى على نفسه. لم تعد أقواله أو تصرفاته مبنية على أساس عقليٍّ أو محسوب، إنما هو بقوة الدفع الغريزية يتصرف في حالة تحفزٍ مستمر، وردود فعله بالغة التوتر. والإنسان المصري هذا موجودٌ فينا كلنا، فيَّ أنا الذي أُحاول أن أُعبِّر، وحالتنا حالة من الصعب معها حتى أن «نفكر»، مجرد أن «نفكر».

أن تتأمل وتعي وتحلل وتأخذ موقفًا ورأيًا، هذا كله ترف لا يملكه المواطن العادي ولا الكاتب. الكتابة نفسها في اللحظات الفاصلة — لحظات الحياة والموت — تصبح لا معنى لها بالمرة، ولا أثر لها بالمرة، والمشاكل كثيرةٌ كثيرة، وكل شيءٍ وكل شخصٍ وكل تصرف في حاجة إلى نقدٍ وتقييم وتقويم، ولكن المرعب هو: كيف وأنت في هذه الحالة تستطيع أن تتمالك نفسك و«تنفصل» عن المشاكل، وتحكم عليها حكمًا «موضوعيًّا»؟ أنت في قلب المشكلة. أنت وأنا وكلنا مرضى الأزمة؛ أزمة مادية جماعية خانقة، من المحتم أن يصحبها أزمةٌ روحيةٌ خطيرة. حتى الذاكرة أصبحت وقتية، والتصرف أصبح ابن لحظته .. فعل ورد فعل .. فعل ورد فعل .. مئات الملايين من ردود الأفعال التلقائية المتصادمة نتيجتها تأزم أكثر. لكأن الواحد منا يحيا اللحظة وهو في كل ثانيةٍ يريد أن يستغيث بأعلى صوته

ويجأر ويقول للعالم: لا .. لم أعد أحتمل. هذا فوق طاقة البشر. حتى الموت أصبح مطلبًا صعبًا، من الترف التفكير فيه؛ بل الانتحار نفسه اختفى ولم نعد نقرأ عن أناس يُلقون أنفسهم من فوق البرج أو المجمع؛ ذلك أنه حتى الانتحار في حاجةٍ إلى قرارٍ وخطة. ولا وقت ولا «نفس» لرؤية قرار أو عمل خطة .. النكت نفسها اختفت، ولم نعد ننكِّت .. فالنكتة — ذلك التأمل الساخر — تحتاج أولًا إلى متأملٍ .. فإذا كان الكل — حتى المتأمل بطبعه — في أزمةٍ، فالنكتة تموت قبل أن تولد؛ بل المتعة نفسها غير موجودةٍ، وكأنْ لم يعد ثَمة شيء ممتع، كل الأشياء لها نفس الطعم ونفس المذاق، مذاق اللامذاق، فالتذوق والتمتع في حاجةٍ إلى جهاز عصبيٍّ سليم، وكائن سليم، ونفس مفتوحة .. ونحن لحظة بلحظة يحيا الإنسان يؤرقه الألم الطاغي والقلق الأعظم، ليس فقط من اللحظة التالية؛ ولكن: ماذا يحدث غدًا وبعد غدٍ، وأولادي ... إلى آخره. لقد تزايدت المشاكل، كثرت، قلت حركة الإنسان، حُوصر من كل النواحي. لا مخرج. كلما حاول الخروج يغوص أكثر.

ذلك انطباعي الأول وأنا أحاول معرفة رأي ما كان يُسمَّى في الماضي «رجل الشارع»، عرفت رأي رئيس الوزراء. والآن أُريد أن أعرف الرأي الآخر. المشكلة كيف؟ من تختاره ليتحدث ويفضفض ليعبر عن الكون العام الذي نحيا فيه كلنا، وعن رأيه في قوانينه ولوائحه وأخطائه، لكل كونه الخاص الغارق فيه حتى أذنيه، مهما رفع البصر لا يرى أبعد من مشاغله الوقتية الحادة. وتعتقد أن الزمن لا بد هو الآخر متوترٌ، وأن لا وقت لأي شيءٍ، ولكن الكارثة أن الزمن ممتدٌّ وطويل طويل.

كيف اخترق الحاجز الصوتي والبصري الكائن بينك وبين أي إنسان حولك. معًا نحيا، هذا صحيح، ومعًا نعاني، في الأتوبيسات نتكدَّس، في المجمعات نختنق، لكي ننتزع لقمة عيش أخيرة لا بد أن «نقاتل». قتالًا حقيقيًّا رهيبًا، عذره أنه قتال ضد اللاشيء. فلا عدو واضح تضربه كما حدث في العبور وتنتهي. ليت مشاكلنا كانت كلها خط بارليف وعبور القناة! فلو كانت مبلورةً هكذا ومحددة لانتهينا منها من زمن بعيد. إن حل المشكلة يكمن فقط في إدراكك لها. بمجرد وضع يدك على المشكلة فهذا يعني حلها. ولكن ما نعاني منه الآن أشياء لا نستطيع بالضبط أن نضع أيدينا عليها. هل المشكلة أن المياه ملوثةٌ، أو أن بعض المسئولين اختلسوا أموال التبرعات واعتمروا بها؟ طيب .. فرضًا أن الماء لم يكن ملوثًا، وأن أحدًا لم يحج اختلاسًا، فهل كنا سنستريح وتنتهي الأزمة؟ .. أبدًا؛ إن هي إلا أعراض كلها. وتستطيع أن تعد ليس فقط اختلاسًا هنا أو هناك، أو سرقة أو

رشوة أو «قرع» و«كوسة». لا تؤاخذني في استعمال الكلمات فقد أصبحت عادية ودارجة ومن قواميس المرحلة. تستطيع أن تعد آلاف الآلاف من «الأعراض». أما المرض نفسه فما هو؟ ماذا يُشقينا؟ فلنقل — أو بالتأكيد هذا هو الشيء الأول الملموس: إن المشكلة ماديةٌ محضة. وجود الشخص منا على قيد الحياة أصبح يتطلب منه نقودًا لا يكفي دخله لإيجادها. المضحك أن هناك دولًا أخرى تُعاني من «التضخم»، أي أن هناك فيها نقودًا كثيرة وبضائع قليلة. نحن نُعاني من عكس أزمة التضخم تمامًا؛ بل حتى من أزمة الأزمة. فلا توجد نقود، وحتى لا توجد بضائع. والمشكلة أننا نحيا، ولا بد أن نظل نحيا؛ ولهذا دائمًا نحن نسأل أنفسنا في كل دقيقة: ما العمل؟ ومن أين نحصل على النقود؟ مجالات الإنتاج وبيع العمل تختنق؛ ذلك لأن الأزمة أربكت تمامًا جهاز الإنتاج .. عمالةٌ زائدة كثيرة جدًّا، أكثر بكثير مما تتطلبه عملية الإنتاج، ونتيجة كثرتها أن ينخفض الإنتاج أكثر وأكثر. أي مكتب حكومي تجده مكتظًّا إلى حافته بالموظفين. ماذا يفعلون؟ لا شيء. أفندي محترم معه بكالوريوس أو ليسانس معيَّن ويقبض ماهية وعمله أن لا يعمل. ومعنى هذا، ونظرًا لتدخله في عملية الإنتاج لجسمه وشخصه ووجوده، يتعطَّل الإنتاج أكثر. بمعنى أن المكاتب مكتظةٌ ولا إنتاج. لكي يتحرك إنتاجنا إذن ويعطينا نقودًا تكفينا يستلزم الأمر عقولًا وأعصابًا وإنسانًا سليمًا على الأقل «يفكر» فيما يجب عمله. ولكننا في هذا الازدحام الأجوف لا نستطيع أن نفكر أو ندبر. نحلم. أجل نحلم أن تهبط علينا الفلوس من السماء. أو من دول النفط. كيف ستهبط؟ وهل الحل أن توجد ليلة قدرٍ لكل واحد، أو صرف ثلاثين جنيهًا؟ صُرفت وصرفناها. وبقي كل شيءٍ على ما كان عليه، والموقف ينحدر إلى أسوأ. لا يعيش الناس بالإحسان أو بالقروض. الناس تعيش بعرقها وكدِّها. ولكن العرق والكد وحده لا يعود بالنقود. لا بد من وجود نظام إنتاجٍ وعمل تستثمر فيه عرقك ليعود عليك بالنفع وبالنقود. المأساة أن أسس الإنتاج؛ من مصانع أو جامعات أو دكاكين أقل بكثير من أن تستوعب طاقة ملايينا الكثيرة على العمل والإنتاج. الخبرة موجودةٌ، والقدرة موجودة. موجودة بكثرةٍ زائدة عن الحدِّ. تتكدس وتتكدس ويتزاحم الناس داخل الأتوبيس وداخل البيوت وفوقها وداخل الفصول وداخل الورش. زحام. زحام كثير، وعجلة. عجلة عصبية زائدة فارغة الصبر. الكل متعجلٌ. ليصنع ماذا؟ لا أحد يعرف. نشبه موتور عربة كبيرة يعوي بالصوت والضجيج والصراخ والكلاكسات، ولكن العربة نفسها لا تتحرك، إننا جميعًا — وأقولها صادقًا — مسئولين وغير مسئولين، حاكمين ومحكومين لا نقدِّر ولا نُدرك بالضبط الواقع الغريب الذي نحياه. إن المطلوب أكثر بكثير من قدرة أجهزة تخطيطنا

الحكومية وحتى الأهلية. أكبر بكثير من طاقة رجلٍ أو عشرة أو مائة أو عدة آلاف على التفكير. أكبر من ذكاء أيٍّ منَّا بمفرده، ومقدرة أي منَّا بمفرده .. وهذه هي الحقيقة .. إن المشاكل التي تُعاني منها هي نفسها المشاكل التي أُعاني أنا منها، قد تختلف بعض الشيء في التفاصيل؛ ولكنها جذريًّا نفس المشاكل. حلولها إذن ليست فرديةً بأن تهبط على أيٍّ منا ثروةٌ من السماء تُنقذه وتنقذ أولاده، أو أن يهاجر إلى بلادٍ أخرى فيها العمل وفيها الكسب والنقود، فهذه كلها قد تحلُّ مشكلة واحدة أو عائلة أو حتى بعض العوائل والقرى والمدن على أقصى تقدير، ولكنها — أبدًا — لا تحل مشكلة «أمة». أمة بأكملها تخوض مشكلةً رهيبة تتبدى أمامها ربما لأول مرة في تاريخها الطويل: تكون أو لا تكون. لا نسأل السؤال واقفين أو متأملين، ولكنا نسأله ونحن نلهث، وسياط غير مرئيةٍ تُلهب ظهورنا ونحن نندفع بسرعةٍ مخيفة، وكتلة جماهيرية رهيبة. نندفع، وحتى لا نعرف إلى أين. في أوضاع كهذه يصبح الحديث عن المضايقات الشخصية أو الخاصة تافهًا إلى أبعد حدود التفاهة؛ بل يصبح الحديث عن مشكلةٍ واحدة بذاتها لا معنى له بالمرَّة. فهل المشكلة غلاء الأحذية؟ إن أسعارها صحيح قد أصبحت تدعو للتذمر والدهشة. ولكن المنظر العام أغرب ألف مرةٍ.

ماذا أهدفُ بكتابة هذا؟ أليس يُربك أكثر أن تقول للمرتبك أصلًا: إنك مرتبكٌ. وماذا يُفيد قولك المخنوق بالأزمة: إن لديك أزمةً. هو يعرف وأنا أعرف وكلنا نعرف. هو يئنُّ وأنا أئن وكلنا نئنُّ. الأحمال ثقيلةٌ ولكنها بلغت من الثقل حد استحالة الشعور بثقلها. أكتب لماذا، ولِمَن، وهل؛ لأكشف عن فسادٍ هنا أو هناك، وأنا أعرف وأنت تعرف وكلنا يعرف عن الفساد أكثر بكثير مما كُتب أو يُكتب أو يمكن كتابته. الروح في الحلقوم وكأننا في يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه. فعلًا. في قسم الدقي رأيت رجلًا يحمل طفلًا رضيعًا على يديه وحوله ثلاثة أطفال آخرون ويبكي أمام المأمور ويقول: امرأتي هربت. تركت الأطفال وهربت. أي قوةٍ دافعةٍ رهيبة تجعل الأم تترك وليدها وتهرب؟ لا بد أن ما يعاني منه البعض ويعتقد أنه أبشع الأشياء، يوجد أبشع منه بكثير.

حتى أحكامنا لم أعد أثق بها كثيرًا، فهي ليست صادرةً عن روية أو تفكير؛ إنما هي على الدوام أحكام «انفعالية»، بنت اللحظة، أي ردود فعل وليست أبدًا نتيجة موازنة ثم اتخاذ موقف. الحوادث المؤسفة ليست إلا التصرف الجماعي لما يتصرفه أيٌّ منا بمفرده أو يقوله بمفرده. هي نفسها الولد أو الرجل الممسك بمسمارٍ يحكُّ به بياض المنزل أو دوكو

العربة ويخربشه. هي نفسها ألفاظ البذاءة تسمعها على الهواء من جماهير الكرة، فقط على السطح تطفو التصرفات وتتصور أنها «ظاهرة». لا أعرف ماذا أصبح يعجبنا وماذا أصبح لا يعجبنا. أحكام محمومةٌ كتخاريف الجوعان أو الصائم أو الضائق ذرعًا بكل شيءٍ وأي شيء.

أكتب إذن؛ لأحاول أن أرى، ولأحاول أن نرى جميعًا ماذا يحدث لنا. فقط نراه. فنحن نحيا لا نرى، ولا نريد أن نرى؛ لأننا نعرف أن ما سوف نراه سيقبض أنفسنا، وأنفسنا ليست في حاجةٍ لاكتئاب أكثر. هي مشبعةٌ به ولا داعي لأي مزيدٍ. ذلك لأننا في العادة نرى وحدنا، وننظر بعيوننا الخاصة إلى وضع كل منا الخاص ووضع الآخرين منه. ربما لو رأينا كلنا معًا، ربما وضحت الرؤية لنا كلنا، فالرؤية هي النور، والظلام هو أن نغلق أعيننا. والرؤية الجماعية هي الوسيلة الأولى والوحيدة، ليس فقط لحل المشاكل وإنما حتى لمواصلة الحياة.

لا أعرف ما الحل، ولكن الواضح والمحتم أننا في حاجةٍ إلى شجاعةٍ كبرى وإلى مصارحة أنفسنا مصارحة تامة. لم تعد المسألة مسألة شعبٍ وحكومة، والحكومة من هي؟ إنها نحن أيضًا؛ موظفون ومتعاملون، لم تعد المشكلة مشكلة وزارة أو وزير، المشكلة هي نحن جميعًا .. نحن المشكلة .. هل تبلغ بالشجاعة حد أن نعترف — نحن الشعب المصري — أننا نواجه أزمة وجود حقيقيٍّ، وفي كل مجال. وأن لا حل لهذه الأزمة إلا باشتراكنا جميعًا في رؤيتها وإدراكها وبالتالي حلِّها. لم نكن في حاجة إلى مؤتمرٍ شعبي حقيقي. مؤتمر لا يحفل بالخطباء والمتحذلقين، وإنما اجتماع يضمنا معًا، أو يضم ممثلينا وكل قدراتنا العقلية، وكل خبرائنا وعلمائنا، نتدارس فيه بلا ضغائن ضد بعضنا البعض ولا لَكزات أو ضربات فنحن ننهش ونخربش أنفسنا وكأنما قد أصبحنا نكره بعضنا البعض إلى درجةٍ مخيفة، وكأن كلًّا منَّا هو السبب في أزمة الآخر، في حين لو عرفنا أن كلًّا منا مأزوم هو الآخر ويُعاني من نفس الأوضاع، وأننا بدلًا من إلقاء التُّهم والضربات بالأقدام والقبضات وإضاعة وقت كثير في مهاتراتٍ جانبية. نركز همنا كله في مشكلة وجودنا نفسه، وجودنا ككل، ونحدد بالضبط ماذا نُعاني منه وكيف نعالجه، أيضًا ككل، فكما قلت: المشكلة ليست خاصة بأي منا على حدة، فالذي دخله عشرون جنيهًا مثلًا يتصور أن كل مشاكله ستُحل لو صار دخله مائة جنيه، ولكن المضحك أن الأعباء تزيد بزيادة الدخل؛ بحيث لو صار دخله مائة جنيه فستظل أعباؤه أكثر بكثير. صحيح أن مواجهة العدو عسكريًّا تكلفنا الكثير؛ ولكن جهاز الحكومة نفسه وأجهزة القطاع العام نفسها، بل وحتى القطاع الخاص؛ غير قادرٍ

على إعطاء إنتاج يكفينا ويكفي احتياجاتنا. المضحك أن ما نعانيه كأفراد تُعاني منه الدولة نفسها. فالدولة المصرية كالفرد المصري في حالة تأزمٍ وتعطل إنتاج. لو سأل كل منا نفسه هذا السؤال: هل أنا فعلًا أعمل بطاقتي كلها، أو أعطي للعمل طاقتي كلها؟ فمن المحتم أن يكون الجواب: لا؛ لأن في داخل كل منا طاقات كثيرة معطلةٌ وغير مستفاد بها، ولا يوجد الجهاز الذي يستخرجها ويضمها إلى الطاقات الأخرى ويحيلها إلى نقود وبضائع.

إن لدينا قدرةً على الرؤية المحدودة، هذا صحيح، فهناك تفكيرٌ فيما يُسمى بالثورة الإدارية، و«تطوير» القطاع العام، و«تطوير» الاتحاد الاشتراكي، و«تطوير» الذوق والثقافة. ولكن هذه كلها نظراتٌ جزئية إلى مشكلتنا، تصلح إذا كان المجتمع فعلًا سائرًا ويتحرك إلى الأمام ويلزمه بعض «الإصلاح»، ولكن ماذا يكون الوضع إذا كان المجتمع لا يتحرك، أو يتحرك ببطءٍ شديد جدًّا يشبه السكون، أو ربما يتحرك إلى الخلف ونحن لا ندري، ولكن الواضح أن كل يوم يمرُّ ندرك أنه كان أحسن .. لم يعد يصلح إذن في علاج مشاكلنا أن نعتبرها مجرد مشكلة في الإنتاج، أو في الإدارة، أو في نهب بعض المال العام. ما فائدة أن ينصلح حال «الكهرباء» على حدة، أو البنزين على حدة، إذا كان الموتور ككل لا يعمل أصلًا، أو أنه يعمل ولكن العربة لا تتحرك. إن المشكلة كما قلت مشكلة وجود، مشكلة أن نوجد ونتحرك فعلًا وتعود علينا حركتنا بالعمل والإنتاج والدخول.

نتصور أن «الحكومة» قادرةٌ على الإصلاح. وتكثر الشكوى. ويحدث انفصالٌ غريب بين الكلمة والفعل. فنحن نجأر بالشكوى من شيء، والجرائد تنشر، والناس تتكلم، ولكن لا يحدث شيء يُصلح ما نشكو منه؛ ذلك لأننا نتصور أن أحدًا آخر هو المسئول عن الإصلاح، إن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تحلَّ المشاكل؛ ولكنها هي نفسها أصبحت — نظرًا لتدخلها في حياة كل منا — مشكلة من مشاكلنا. والحكومة ليست شيئًا معنويًّا أو جهازًا غريبًا قابعًا على أرضنا، إن الحكومة هي موظفون، أي مواطنون أيضًا غير قادرين على حل مشاكلهم الخاصة.

ونتصور أن المشكلة هي أن بعض الناس يسرقون أو يختلسون أو ينهبون أو يمالئون، وصحيح أن هذه كلها جرائم خطيرة لا بد من عقاب مُرتكبيها؛ ولكنها أيضًا ليست «الأصل»، إنها عرَض من أعراض الأزمة، فالأزمة يستتبعها دائمًا أزمة ضمائر ونفوس، وصغارات نفوس، وتصرفات وقحة ومخجلة، وحتى ألفاظ بذيئة وسلوك أكثر بذاءة، هذه كلها توابع وليست أصلًا للأزمة، هذه كلها عروض من جملة الأعراض، ولكنها ليست الداء الدفين.

لنتصور أن كائنًا من المريخ مثلًا، حافل بالموهبة والقدرة على الإنتاج هبط القاهرة ليعمل وينتج. كائنًا نظيفًا لا يُعاني من أزمةٍ سابقة وليس محملًا بأثقال مسئولية والتزامات. لنتصور أنه بدأ يزاول وجوده ذلك، ويحاول أن يعمل ويتحرك. أن يتكلم في التليفون مشكلة. أن يركب الأتوبيس مشكلة. أن يأكل مشكلة. أن يغسل يديه مشكلة. أن يذهب إلى سينما مشكلة. أن يدخل المصلحة أو المؤسسة مشكلة. أن يحاول منع الغير من التدخل في عمله مشكلة. أن يحارب كي يظل فقط محتفظًا «بحقه» في أن يعمل مشكلة. لا بد ستجده ولما يكد يمضي يوم على وجوده معنا إلا وقد استحال إلى كائنٍ عصبيٍّ جدًّا، مكتئب جدًّا، مغيظ جدًّا، حاقد جدًّا، «كفران» بكل القيم والتقاليد والمُثُل، ناقم على كل شيء. فهل ممكن لإنسان في حالة كهذه أن «يفرغ» عقله للعمل العقلي أو اليدوي أو حتى لفلاحة الأرض؟

أجل. لقد بدأت مشكلتي حين حاولت أن أُجري حوارًا مع ما يُسمى برجل الشارع؛ لأعرف بالضبط ماذا يُعاني، وكيف وبأي طريقة يحيا؛ ولكننا رأينا أننا كلنا غرقى، وفي هذا ليس هناك فرق بين من يستغيث من الشارع أو من الشرفة، فالطوفان واحد لا يرحم، والآلام واحدة والشعور واحد ومشترك.

إنها الدائرة المفرغة المروعة، الأزمة توجد، تُصيب الناس بأزمة، الناس المتأزمون تقل قدرتهم على العمل والإنتاج، وهذا بدوره يؤدي إلى أزمة أكثر، تؤزم الناس أكثر وهكذا ... هكذا تستحيل الدائرة الرهيبة المفرغة إلى أزمة «وجود»، والكارثة أن لا أحد يستطيع إخراجنا من هذه الدائرة المفرغة إلا نحن .. نحن المريض ولا بد والمريض في عزِّ مرضه أن يكون الطبيب ويعالج نفسه، كمن تطلب من مكسور الساق أن يجري، وهذا هو العمل البطولي العملاق الذي يتحدانا ويواجهنا، والمسألة لا هزل فيها؛ إما أن نقوم به أو نموت، سنموت إذا لم نخرج من الأزمة، سنموت حتى لو ظللنا أحياء، وأبشع أنواع الموتى هم الموتى حياةً.

فهل نترك أنفسنا نغرق، أو نستغيث ونحن في عالمٍ لا ينقذ فيه أحدٌ أحدًا. لا الاستغاثة؛ مجرد الصرخات على صفحات الجرائد والاحتجاجات تُجدي، ولا الأنين والتأوُّه يُجدي، ولا التعبير بالكتابة أو بالمسرحية يُجدي، ففي كل هذه الأعمال نحن نفترض أن هناك آخرين في أيديهم الحل والربط والقدرة على إنقاذنا. ربما لو أدركنا عن يقين، وأعود وأكرر عن يقين،

أن ليس هناك غيرنا ينقذنا، وأن لا مُعين لنا ولا أي معونةٍ أو قروض أو حتى استقدام خبراء أجانب ولو حتى خبراء في حل الأزمات والسرقات، لا شيء من هذا يُجدي، فكما نحن المشكلة، فنحن أيضًا الحل؛ بل لا حل إلا بأيدينا ومنا، ولأجل هذا فأوضاعنا أصبحت تُحتم — وأكرر مرة أخرى تُحتم — أن نقف لأجلها وقفة، وقفة مع النفس هذه المرة .. وأن ندير — حالًا وفورًا — مؤتمرًا «نفكر» فيه، مؤتمرًا لا «نعبر» عن المشاكل فيه ونصرخ، وإنما «نفكر» فيه بصوتٍ عالٍ يسمعه الناس أجمعون. نفكر فيه وندرك إلى أين وصلنا، وما هي المشكلة، والحل سيكون هذا، سيكون أن «نفكر»، وأن نعرف، وندرك «المشكلة» .. المشكلة التي تعوق سيرنا وتوقفنا وتقتلنا ببطءٍ شديدٍ، ولكنها تقتلنا.

أجل .. مؤتمر لنعرف رأي رجل الشارع، رأينا، فرأينا هو المشكلة وهو الحل.

قبل فتح القلب

لأسبابٍ كثيرة — ربما تبدو عاطفية، وعلى العموم سأحتفظ بها لنفسي — أردت أن تكون عودتي للقاء الأعزاء القرَّاء على هيئة هذه المفكرة بعينها، وبالذات هذه المرة، ربما يتغير كل شيءٍ بعد هذا، ولكن، في هذه المرة بالذات أنا أشدُّ حاجة من القارئ أن أفكر أو أتفكر وأتذكر وأحيا اللحظة. ستة أشهر لم أكتب فيها أو بالأصح لم أنشر. ليست شيئًا في عمر الكتابة أو القراءة، ولكنها بالنسبة إليَّ كانت كأشعة الحياة حين تركزها العدسة المتأزمة الرهيبة والمحدبة أيضًا في بؤرةٍ يصبح الضوء فيها احتراقًا، وتصبح الحياة عصيرًا مركَّزًا مهلكًا تمامًا، كأنه الموت. كما يستحيل النور إلى نارٍ يستحيل البقاء إلى هلاك.

وكذلك تستحيل نقطة الحبر إلى نقطة انفجار.

أنا لا أشكو، ولا أشكر، ولا أتعذب، ولا حتى أحس أن شيئًا غريبًا ومهولًا قد حدث، حتى ولا أتفرج؛ فالفرجة تستدعي قدرًا أدنى من الاندماج، وأنا لست بذلك الذي خرج من الناموس، ولست — بالقطع — داخلَه.

أين أنا؟

سؤال موضوع رواية شرعتها، موضوع مذكرات تحتل مئات الصفحات، موضوع إنسان قريب قد تواتيه القدرة على كتابته، ولكنه الآن ليس — بأي حال — موضوعنا، ليس مهمًّا أن أعرف بالتحديد أين أنا، بل حتى ذلك التحديد الدقيق تأباه النفس الآن. أنا فقط على هذه الورقة، صاخب بتوتراتٍ داخليةٍ كفيلة بتشغيل تُربينات السد العالي، متفجرات وصناديق مغلقة مكتوب فوقها: «مواد قابلة للاشتعال، وللإشعاع الذري، ولإفناء الكون أو بِنائه»، أنا فقط هنا عليَّ أن أُحيل هذا «الأنا» الخطر إلى نقطة حبرٍ مستأنسة، هادئة، وديعة وداعة ذلك الشعب الذي كان — أو هكذا قيل — فأنا أعلم تمامًا مقدار العبوات الناسفة الراقدة في أعماق كلٍّ منا ومنكم، وعلى الحبر أن يكون بردًا وسلامًا عليَّ وعليكم.

ويكفيني هذا.
نقطة حبر.
انسيابة قلم.
كلمة مكتوبة.
الآن أكتبها. أنا.
حتى لو شئت، فلتجف الأقلام، لتُطوَ الصحف، ولْيعُد الكونُ — كوني — إلى صمته المطبق الأول الأزلي.

كانت الرحلة شاقةً يا رفاقَ الطريق، وعرة، رحلة حول نفسي في ستين يومًا، لا أجد لها البداية، ولا أجد لها المنتهى. من أين أبدأ أو تبدأ وفي أي النقاط أضع النهاية؟

وهذه المرة كانت النهاية بيدي.

وويل للكائن الضعيف الذي هو أنت وأنا حين توضع نهايته، أو بدايته في يده، شكرًا لله أن خلقنا لنكون خط الحياة فقط، أما البداية والمنتهى فإشفاقًا علينا، احتفظ بها. صحيح لو خُيِّر أيٌّ منا أين يبدأ، ومتى يولد لمات همًّا من هول الاحتمالات، هل يولد الآن أم في عصر الرومان، أم في سنة ٢٠٠٠م، ولو خُيِّر أيٌّ منَّا متى يموت، لمات غمًّا قبل أن يرسو على خيارٍ.

وهكذا، وبتكنولوجيا العصر، وبسبب الصبح والظهر والعصر والمغرب، والليل وشياطين الليل؛ أُصِبتُ بأزمة القلب. وبعد شهر أعطاني الأطباء الكبار في مصر شهادة أني شُفيت. وكتبت بيدي هنا أن هذا قد حدث، وشكرت الناس. ولكن ذاك الوسواس من غير الخناس، ذلك الجهاز المرهف الذي لا نعلم أبدًا عنه شيئًا، ذلك الذي نغطي جهلنا به فنقول الحدس، راح يؤكد لي أن شيئًا ما داخلي غير مضبوطٍ، بالذات في ذلك القلب الذي قلنا جميعًا عنه: إنه شُفي وعُوفي، كسنِّ الدبوس بدأ، كالإبرة الطويلة راح ينكش، كالمسمار أصبحت خرابيشه تجرح كياني كله.

الهاتف، ذلك المجهول الآخر راح يلحُّ: يلزمك تصوير دقيق لقلبك وشراييناك.

يغضب طبيبي المعالج ويقول: يا بني ما لك؟ قلبك سليم. تصعد ستة أدوارٍ ولا تلهث، صحتك بُمب، ماذا تريد أكثر؟

– أريد الحقيقة.

– والحقيقة أمامك واضحةٌ كالشمس. أنت وحالتك أحقُّ من الحقيقة. ولكن الدبابيس والمسامير تقرص، وبشدة أكثر، وتصر، وكان لا بد أن أسافر …

واسمحوا لي أيها السادة — أليس هكذا يقولون؟ — أن أقف هنا وقفةً مع دولتنا، ومع حكومتنا.

الحق أني كنت طوال حياتي أحسُّ، ليس فقط بالغربة في بلدي وبين أهلي وعشيرتي، ولكني أحسُّ بالغربة التامة تجاه دولتي وحكومتي. ربما منذ اليوم الذي بدأ صدامي الأول معها، وعلى ورقةٍ صغيرة ممضاة باسم وزير الداخلية في ذلك الحين تمَّ اعتقالي، وفي المعتقل عرفت وجهًا آخر للدولة، ذلك الوجه القبيح تمامًا. الأقبح من وجوه كل من رأيتهم من سجَّانين ومسجونين في معتقل القلعة، وأبو زعبل، والسجن الحربي، وسجن مصر، الأقبح حتى من وقع ضربات النبابيت على قدميَّ العاريتين، وكنت لسذاجتي أظن النبُّوت أقل إيلامًا من الخيزرانة الرفيعة إذا لسع القدم، ولكن اتضح أن الخيزرانة إذا كانت سكينًا رفيعًا فالنبوت ساطور مسنون على حجر جرانيت.

ولكن ذلك زمن مضى تمامًا، وعفا الله عمَّا سلف، واتفقت واختلفت وأيَّدت وعارضت فكريًّا وفنيًّا وبشخصي الضعيف أكثر المرات. ذلك ملف — على حد القائل — لا وقت لفتحه، فلسنا بسبيل السياسة، ولسنا بسبيل إظهار اليد المكسورة، أو الذراع المقطوعة نشحذ بها أو عليها الشفقة أو المجد، فقد كان لا بد من الصدام، وكنت أعتقد أن الحق معي، وكانت تعتقد أن الحق معها، سلاحها الأقوى، هذا صحيح، ولكن من يختار الصدام يختار في نفس الوقت ما يتبعه من جروح ولكمات وكدمات، وإلا فليذهب ويبحث لنفسه عن لعبة أسلم.

لسنا بسبيل السياسية. نحن بسبيل ذلك الموقف «الوجداني» من الدولة والحكومة. وهنا بالتحديد أتحدث عن موقفي أنا. وجدانيًّا كما قلت أحسُّ بالغربة. وأنا أحس أني لم أمت. أني مطاردٌ أو مطرود، أو بالأصح غير مرغوبٍ فيه. كنت أجد في معسكر القراء والناس عزائي وشفائي. حتى وأنا شبه معزول عن الناس، ولكن الاتصال الروحي موجودٌ. بل ربما زاده البعد وجدًا وحياةً ودفئًا.

والحقيقة أني حين طلبت أن أُسافر للعلاج على نفقة الدولة تصورت لأمر ما أنني أطلب ما لا حق لي فيه. إلى أن أقنعني جرَّاح قلبنا الكبير حمدي السيد، والعبقري الجديد جلال الزيادي أن من حقِّي أن أسافر، فهناك قانون يعطي الحق لأي مواطنٍ لا علاج له هنا أن يُعالج بالخارج وعلى نفقة الدولة، ومع ذلك كان خجلي واضحًا وأنا أطلب من الصديقين الكبيرين يوسف السباعي كوزير للثقافة، وإحسان عبد القدوس كرئيس مجلس إدارة الأهرام في ذلك الوقت.

والحق إني فوجئت!

فلم أكن أتصور أن الموافقة ستتم بهذه السرعة، ليس هذا فقط، بل لم أكن أتصور أن الدولة ممثلةٌ في السيد ممدوح سالم، بل رأس الدولة ورب العائلة الأكبر الرئيس أنور السادات سيُبارك هذا الطلب بنفسه. ذلك أنِّي علمت أن السيد الرئيس لا تزال في نفسه بقية من آثار أيام ما قبل ٦ أكتوبر العظيم، آثار حين يذكرها في خُطَبه أحسُّ بملامحه قد علتها غلالة من مرارةٍ وكأنه ما كان ينتظر منا — نحن الكتَّاب — أن نضج بالحال على هذا النحو الذي كتبنا له فيه ما سُمِّي بعد هذا بالعَريضة. والحق أني للآن لم أزل لا أدري ماذا بالضبط ضايق الرئيس السادات في هذا الذي فعلناه. إننا أيامها لم نكن نقرأ الغيب، ولم نكن نعرف ما يدور بخَلَده لندرك أنه قد انتوى المعركة ويُعد لها. وكلماتنا لم تكن سوى رسالة يكتبها مخلصون تمامًا لبلدهم ولرئيسهم، يطلعونه فيها على مكنون الشعور العام تجاه حالة اللاسلم واللاحرب التي كنا نخوضها. وماذا ينتظر الصديق من أصدق الأصدقاء أكثر من أن يواجهه بالحقيقة؟ وإلا كان منافقًا ومختالًا. كنت أتصور أن السيد الرئيس يغضب لو نحن عرفنا ما يجيش في صدور الناس وسكتنا عن إبلاغه به، إنها حينئذ كانت تعتبر أمام ضمائرنا وأمامه مؤامرة صَمْت منا عن إيصال الحقيقة والشعور. وأنا لا أعرف كيف تحوَّل عملٌ صادق كهذا إلى مؤامرة كتابة في نظر السيد الرئيس، إلا إذا كان بعضهم قد تطوع وقلب الآية. وليست هذه أول مرة تحدث، وربما لن تكون الأخيرة، فما أكثر الذين تطوعوا؛ أو بالأصح تطوع ليكون حاجزًا بين الكُتَّاب والمثقفين ورئيسنا الراحل جمال عبد الناصر، وربما لو كانت قنوات الاتصال ظلت مفتوحةً لعرف عبد الناصر كثيرًا من الحقائق من هؤلاء الذين «قلوبهم على ألسنتهم»، ولما ارتُكِبت كثير من الأخطاء نتيجةَ مسايرة الأهم الذي كان يكونه المحيطون به حوله ويعزلونه عزلًا عن التيارات والنبضات والآهات؛ بل وأحيانًا الحقائق والأحداث.

كانت نيتنا سليمةً إذن ونحن نوقِّع هذه الرسالة التي رأينا أن نعهد بكتابتها إلى أكثرنا تعقُّلًا وحكمة، وهو أستاذنا توفيق الحكيم.

كنت كلما لمحت هذه الغلالة من المرارة تكسو وجه الرئيس أحسُّ أن شيئًا ما قد قام بيننا وبينه، وأنْ هكذا شاءت الظروف والحظوظ، ولم يعد باليد حيلة.

والحق أن مرارة أكثر كانت تشيع في حلقي كلما حدث هذا، فالفن والفكر والثقافة كائنات مرهفةٌ تقتل روحها ربما بلمسة أصبع أو بإشاحة وجه، وهذا العهد الجديد: ثورة التصحيح والانفتاح وترسيخ الديمقراطية؛ مطالب كانت من أعز أمانينا، وقد جاء هذا

الرجل الكبير يحققها ويدعو لها. والفن والفكر والثقافة لا بد أن تكون موجات صوته ودعوته ونبضات رسالته التي تجعلها تستقر في أعماق النفوس والقلوب، وتصبح داخل شعبنا واقعًا حيًّا يعتزون به ويدافعون عنه ضد أي غاصبٍ أو دكتاتور.

ولكن الغلالة ظلت موجودةً.

ورغم الغلالة فها هو الرجل الكبير، بذلك الجزء الأكبر والأعظم من نفسه، المصري الشهم الجدع. يقرر — وفورًا — أن أُمنَح كافة التسهيلات لعلاجي.

واتضح أن الهاجس كان على حقٍّ، وأنه عبثًا لم يتحول إلى إبر ومسامير وغيوم وظلام. ففي الغرفة شبه المظلمة، وعلى جهاز تليفزيون يُضخِّم الصورة رأيت السلك الرفيع يدخل من شريان يدي ويأخذ طريقه بدرايةٍ مذهلةٍ ليصعد إلى الشريان الإبطي، ثم الأورطي، ثم ينثني وكأنما يقوده كائن بشري بدركسيون مركب في نهايته، مع أن شيئًا لا يقوده أو يتلاعب به سوى أصابع أمهر طبيب قلب في العالم بعمل «قسطرة» للقلب. اسمه ميسون سونز، ولو رأيته لحسبته شخصية من شخصيات الكاوبويز، حتى لغته تحفل بكثير جدًّا من التعبيرات غير الطبية وحتى غير اللائقة، ولكنه عبقريٌّ؛ ذلك لأنه أول من فكر في عمل أشعة لشرايين القلب عن طريق ذلك السلك المجوف الرفيع المصنوع من مادة قابلة للثني بناء على تحكم خارجي، وبهذا السلك العجيب حدث الانقلاب التام في طب القلب. وباتت كل المعلومات التي درسناها عن طب القلب في صدر شبابنا وأفنينا فيها أعيننا وذاكرتنا تبدو كمعلومات الأطباء عن أسباب المرض قبل أن يكتشف «باستير» عالَم الميكروبات ويثبت أنها هي — وليست الجن أو العفاريت — التي تسبب المرض.

درسنا — ولا زال طلبة الطب عندنا يدرسون — أن «الذبحة الصدرية» أو «الأزمة القلبية» أو «الجلطة التاجية» مصيبةٌ كبرى، إن حلَّت بإنسان فلا قيامة له بعدها. وامتد هذا العجز العلمي من الأطباء وأساتذته إلى الناس، فأصبحت الكلمة: يا عيني عنده القلب. أو: ده مسكين «عنده» القلب. ومعناها بأكثر التفسيرات تفاؤلًا أنه سينتهي بالكاد في عام أو عامين (كتاب الطب الذي عندي يحددها — يا للعبقرية — بثلاثة أعوام)، وأنه سيعيش خلال هذه المدة على ريجيم دقيقٍ وحياة بالقطَّارة، شبه عاجز، محكوم عليه بالإعدام، ينتظر — ويا للهول بالريجيم — يوم التنفيذ.

وذلك كله بالطبع لم يكن جهلًا من الأطباء أو قصور نظر، في الحق كان هو نتيجة للمتوفر أمامهم من سبل التشخيص والعلاج، فالقلب ذلك العضو الرهيب الغامض المثير

لم يكن أحد قد أوغر داخله حيًّا، ولم يكن أحد يعرف الكثير جدًّا من أسراره، إذا انسد الشريان عليه العوض، إذا فسد الصمام فالنهاية الموت بالهبوط. الطب بعقاقيره وسماعته وحتى برسام قلبه كان عاجزًا عن أن يدرك، وإذا أدرك عاجز عن أن يُعالج إلا ببضعة عقاقير لا تفعل أكثر من أنها تؤجل النهاية.

وكان على تِكْساسيٍّ مغامر شديد الاعتداد بنفسه كثير السباب أن يقتحم — على طريقة المافيا — وكر القلب الدفين، و«يخترع» جهازًا لتصوير القلب من الخارج والداخل، وبالشريان والوريد، وأدق الدقيق من الأوعية. وهذا هو ميسون سونز الذي قارب الستين والذي كان قد احتفل من أيام «بالقسطرة» رقم ١٦ ألفًا التي قام بإجرائها بنفسه (لكي ندرك ضخامة الرقم لا بد أن نعرف أن عدد القسطرات التي أُجريت على يدي كل أطبائنا ربما يتجاوز المائة بقليل)، هذا هو ميسون سونز يدخل — بدراية معجزة، وفي ثوان — السلك في الأورطي، ثم يوجهه ليدخل من البُطين الأيسر، ويثنيه ليواجه مدخل الأوعية التاجية ويحقن مادة مشعَّة ترسم بعد ثانية شجرة الشريان الأيمن كاملة ثم يعيد توجيهه — يا للبراعة — ويحقن فتحة الشريان الأيسر فترتسم شجرته أمام عيني كاملة، ثم يقيس الضغط داخل الأُذين، ثم يخترق الصمام ويصبح طرف السلك في البطين العظيم، ويحقن، وينقبض البطين وينبسط ويصبح السر القلبي فيلمًا سينمائيًّا علنيًّا كاملًا أراه أمامي، ويسجله شريط تليفزيوني وسينمائي، ويحادثني، وينسى دائمًا أني طبيبٌ، ويشرح لي ما أراه، والحق، مع أني طبيبٌ أعرف القلب وتشريحه، إلا أني كنت في حاجةٍ ماسة لهذا الشرح؛ فقد كنت مبهورًا بقلبي المتلفز أمامي، بكل دقيقةٍ فيه، بكل مليمتر من شرايينه، بكل شيء.

في كليفلاند — حيث يوجد أكبر مستشفى لجراحة القلب في العالم — جالية مصرية، بل أكاد أقول: شعبٌ مصريٌّ بأكمله. شعبٌ قوامه سبعون عائلة، معظمها من إخواننا المسيحيين، والأقلية مسلمون، ومعظم هذا الشعب من الأطباء، وللصدف الغريبة معظمهم يعملون أطباء تخدير، بل توجد بالذات أجمل طبيبة مصرية رأيتها في حياتي، متزوجة وتعمل طبيبة أمراض نفسية في نفس المستشفى. شعب مصري صغير استأجر لنفسه كنيسة، ويستعد لإقامة جامع، بل إن الكِرازة المُرقُسية هنا أرسلت لهم قسيسًا شابًّا كنت قد قابلته مرة أثناء محاضرة لي في مدرسة الجيزويت، وكان ثوريًّا جدًّا في آرائه، وعجبت حين ذكر لي صديقي العزيز الدكتور فتحي بهيج مستشارنا الثقافي في واشنطن أن الذي سيقابلني

في كليفلاند ليأخذني إلى المستشفى هو الأب ميخائيل، وكم أسعدتني المفاجأة أن أرى ثائر الإكليريك وقد نَمَت له لحيةٌ سوداء كبيرة، وبقلنسوته وردائه الأسود الذي نتعرف منه دائمًا على قُسُسِنا الأقباط المميزين وجدته أمامي يستقبلني هو ووفد من الجالية في مطار كليفلاند الكبير.

بل إن الأب ميخائيل — زيادة في الترحيب بي — دعاني للذهاب إلى الكنيسة المصرية يوم الأحد — اليوم التالي لوصولي — لأحضر الصلاة، ولكي يدعو لي الرب أن يأخذ بيدي. وكانت تلك أول مرة أحضر فيها صلاة مسيحية، وارتبكت، ماذا أفعل؟ وقلت لنفسي: أُصلي أنا الآخر صلاتي، فرُحت أتلو الفاتحة والتحيات وسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ المحببة إلى قلبي. وقضيت في كليفلاند شهرًا أو أقل قليلًا، وتصوروا، لم أتغدَّ أو أتعشَّ أنا وزوجتي على حسابي مرة أبدًا! حدث ذلك التنافس الطعامي الخلَّاق بين الصعايدة والبحاروة، وبين المسيحيين والمسلمين، وبين الأطباء وغير الأطباء. ذلك التنافس الشريف حقًّا الذي زوَّد وزني خمسة كيلوجرامات بأكملها.

دخل عليَّ الدكتور فوزي أسطفانوس، الذي يشغل في مستشفى كليفلاند الهائل مركزًا دقيقًا جدًّا، ربما أدق من ذلك الذي يشغله الدكتور الباز في أبحاث الفضاء، إذ هو رئيس قسم التخدير بجراحة القلب. وإذا عرفنا أن الثورة في جراحة القلب حدثت نتيجة لاكتشافات متلاحقةٍ جديدة في عمليات التخدير لأمكننا أن ندرك أن دور طبيب التخدير في عملية القلب لا يقل — بل ربما هو أدق — من دور الجراح، فالخطأ في التخدير يُميت فورًا. ولكن الدكتور أسطفانوس لا يكتفي بهذا، فهو دينامو الجالية المصرية المسيحية في كليفلاند، جمعيات، لقاءات، ندوات، غير أبحاث تُنشر، ومتابعة غريبة لأحدث ما وصل إليه البحث في التخدير بالنسبة لعمليات القلب بالذات. طبيب آخر كان يعمل نائبًا علينا في قسم الدكتور محمد إبراهيم في قصر العيني اسمه الدكتور الطرزي أصبح رئيس قسم أبحاث أمراض القلب في هذا المركز الطبي المهول. هذا غير سبعة أو ثمانية أطباء مصريين آخرين يعملون في وظائف مختلفة بنفس المركز. شعب كامل من أمهر وأخلص أطبائنا ومهندسينا ومحاسبينا، وحتى قضاتنا ومحامينا وجدتهم في أمريكا وإنجلترا وأطراف الأرض. كم نزفنا من ذكائنا، ولا زلنا ننزف.

دخل فوزي، متجهم الوجه، معقود السحنة.

كنت لم أفرغ بعد من هواجسي بعد انتهاء عملية القسطرة. والحق أنِّي كنت خائفًا جدًّا منها، فنتائجها التي سمعت بها في مصر كانت مروعة؛ الموت، الشلل، جلطة الشريان،

غير ما خفي أو لم يكن في الحسبان. مذهول — لا أزال — بالسهولة المعجزة التي صنع بها سونز القسطرة، سبع دقائق فقط استغرقتها، لم أشعر بشيء مطلقًا سوى بعض الغثيان.

أأكون قد قضيت أحقابًا أخاف من شبح لا وجود له.

أم أن الأشباح موجودةٌ فعلًا، فقط قضت عليها خبرة ستة عشر ألف مرة قام فيها سونز بالعملية، حتى أنه عملها لنفسه ذات مرة.

قال فوزي بصوتٍ خفيض: إنيورزم. لفت فنتريكيوالا إنيورزم.

القرار

في نهاية النهاية الرجل مجرد قرار. وحين أتحدث عن الرجل لا أقصد الذَّكَر؛ ولكني أقصد الإنسان العام، أعلى مراحل تطور الحياة، الخالق، المدبر، الواعي. خليفة الله.

ذلك أننا. إذا حاول كلٌّ منا أن يُراجع حياته، وقيمة هذه الحياة فسيجد أنها تكاد تتلخص في عدة قرارات اتخذها، أو لم يتخذها، وبنى بها مجرًى خالدًا لوجوده، أو أحال ذلك الوجود إلى مستنقع سطحيٍّ راكد.

وكان عليَّ أن أتخذ قرارًا.

وأن تَتخذَ قرارًا في مشكلة خارجة عنك. مشكلة تخصُّ عائلتك أو حتى أقرب الناس إليك مسألة، إما أن تتخذ قرارًا في حالتك أنت، فتلك مسألة أخرى مختلفة تمامًا. فإذا كان هذا القرار لا يخصك فقط ولكنه سيحدد حياتك أو موتك، بلا أي حل وسط، فالمصيبة — كما يقولون — تكون أعظم.

ولقد ذهبت إلى أمريكا ولم يكن يخطر ببالي مطلقًا أني سأواجه هناك ذلك القرار، كنت أتصور على أقصى تقدير أن المشكلة لن تتعدى بعض تقصيرات نتيجة للأزمة القلبية التي حدثت لي وأنا في مستشفى المعادي، وأن علاجها سيكون سهلًا وبسيطًا جدًّا لا يتعدى بعض الأدوية الحديثة .. ولكن التجربة المروعة التي حدثت في مستشفى المعادي وكانت السبب في هذه الأزمة القلبية مسألة لا بد أن ترد هنا، فهي تجربة قل أن تعرَّض لها بشر، فلقد ظللت أشكو بألمٍ في رقبتي ما لبث أن امتدَّ إلى أكتافي حتى عجزتُ عن الحركة تمامًا، وأصبحت الآلام لا تُطاق. وشخَّص الأطباء حالتي بأنها «انزلاق غضروفي» في فقرات الرقبة، وصاروا يعالجوني بالحقن المسكنة. ورغم أن الجرعات التي كنت آخذها من هذه الحقن المسكنة ظلت تتزايد يومًا بعد يومٍ؛ رغم هذا فالألم مروع وغير بشريٍّ، والكميات تتضاعف، حتى ظن بعض أصدقائنا الصيادلة الذين كنت أشتري منهم هذه المسكنات أن المسألة

انقلبت إلى إدمان، ولم تكن لعلاج مرضٍ. حتى جاء اليوم الذي لم تعُد أي كميات مسكنة تُجدي، وكان على أن أُنقَل وأنا في شبه غيبوبةٍ من الألم والمسكن إلى مستشفى المعادي، حيث وُضعت في عنبر «النفوس المعذبة» أو ما يُسمونه في المعادي «إنعاش الرابع». وهناك عملوا لي أشعة على الرقبة بعدما عالجوني من الغيبوبة، وكانت نتيجة الأشعة يكاد ينخلع لها القلب. وجاءني ذلك الصديق الطبيب بعينيه الصريحتين الجريئتين وجلس بجوار فراشي وقال: اسمع .. إن هذه الأشعة التي عملناها لك لا يمكن أن تكون إلا لسرطان في فقرات العنق. وهناك أملٌ ضئيلٌ جدًّا أن يكون التهابًا درنيًّا ولا شيء غير هذا.

استمعت إلى الكلمات وكأنه يتحدث لي عن شخص آخر. وصمت صمتًا غريبًا، وكان كل ما بداخلي من انفعالات قد مات فجأة. اكتشفت أمرًا حادًّا مُلحًّا: ألا يخبر الطبيب زوجتي بهذا الذي اكتشفوه، فقد لا تحتمل الصدمة.

ولكني كنت متأخرًا؛ ذلك أن الطبيب كان قد غادر العنبر، والمؤسف أنه قابل زوجتي في الطرقة ومعها قريبة لنا وأخذها إلى مكتبه وأخبرها بنتيجة الأشعة، وكانت كارثة انتهت بعمليات إغماء وإفاقة ومشهد مروع، وجاءت هي بعد ساعات وعلى وجهها ابتسامة وقابلتها أنا بابتسامة أوسع، وأخذنا نضحك على أشياء تافهة، غير أني أدركت — وفيما بعد علمت أنها هي الأخرى أدركت — أن كلانا كان يعرف رغم براعة التمثيل، إن حكمًا قدريًّا مهولًا قد صدر، فمعنى سرطان في العمود الفقري أن حياتي لن تتعدى الشهور القليلة جدًّا، بل ربما الأسابيع أو حتى الأيام، وأن هذه العائلة الجميلة التي نكوِّنها قد أُصيب عمودها الفقري هو الآخر بضربة ستقصم تمامًا ظهر العائلة، ولن تستمتع نسمة (عامان في ذلك الوقت) بأن تقول مرة أخرى، يا بابا.

في اليوم التالي جاءني الطبيب الصديق. إنه طبيبٌ جراح في الجيش، مقاتل بطبعه، شجاع بطبعه، صريح لا يهاب شيئًا، حتى ذلك الحكم الذي تصدره على المريض بحياته أو بإعدامه. جاءني وقال: اسمع، غدًا سأجري لك اختبارًا أخيرًا لآخذ عينة من عظام الفقرة بواسطة إبرة سندخلها في رقبتك من الأمام بدل أن نقوم بإجراء عملية جراحية نفتح فيها الرقبة وننحي القصبة الهوائية والبلعوم والأوعية الدموية الكبرى لنصل إلى العظم. وسنصل بهذه الإبرة إلى المنطقة المظلمة في الأشعة لنعرف إن كانت خلايا سرطانية أو مجرد التهاب، فاستعد يا بطل!

بطل؟!

ألم يكن باستطاعتك أيها الصديق الطبيب أن تؤجل محادثة الأمس إلى أن تقوم بتجربة الإبرة وتتأكد ثم تصدر هذا الحكم الذي عصف بحياتي عصفًا؟

وطفرت الدموع من عيني!

ليس حزنًا على نفسي، إنما إحساس أنِّي أخيرًا هُزِمت، وأن نهاية ذلك الذي آلى على نفسه ألا يترك الحياة إلا وقد غيرها جاءت أسرع مما يتصور أو كان يُقدِّر.

في اليوم التالي غاب الطبيب قليلًا عن موعده، فتناولت إفطاري، فقد كنت أحس بجوع لا حدَّ له، وكأن حب الحياة قد تحول داخلي إلى جشع للارتواء من كل ما فيها.

في الحادية عشرة ظهر الطبيب ومعه لفافة فيها الإبرة المشهورة، وأخذني إلى غرفة الأشعة، من أحدث ما رأيت من غرف الأشعات في العالم، مزودة بجهاز تليفزيون بحيث ترى على شاشته كل ما يدور داخل الجسم وتظهره أشعة إكس.

غير أن عقبة كئودًا ظهرت فجأة؛ فقد رفض طبيب التخدير أن يعطيني البنج ما دمت قد تناولت إفطاري، وكان عليَّ وعلى الطبيب إما أن نؤجل العملية كلها إلى الغد، وإما أن يقوم بغرس الإبرة في عنقي بلا تخدير، وأنا صاحٍ وواعٍ، ومشاهدٌ لكل ما يحدث.

ولم أتردد؛ فلنقم بالعملية دون تخدير .. بل بالعكس .. سرني أنِّي سأكون صاحيًا وواعيًا، فأخوف ما كنت أخافه أن يُخفي عني الطبيب والآخرون النتيجة، وأنا أريد أن أرى النتيجة بعيني، وألمسها بنفسي، وأعرف وأتحقق إن كنت سأموت أو سأحيا دون مداراةٍ أو إخفاء.

وهكذا استلقيت على المنضدة، وبدأ الطبيب بمخدر موضعي، يدخل الإبرة الغليظة التي تنتهي بكلابتين لينتزع بها جزءًا من العظم حين يصله، وأنا أرقب دخول الإبرة، مروعٌ أن تخترق شريان العنق مرة، خائفٌ أن تخترق زوري مرة؛ ولكن خوفي الأعظم كان أن تقترب من المنطقة المظلمة في الأشعة، ذلك أن أجزاء الثواني التي ستأخذها لتدخل أو لا تدخل في تلك المنطقة كانت ستحدد مصيري بشكلٍ قاطع وإلى الأبد.

أجزاء من الثواني، رهيبة، عام بأكمله مرَّ، حياتي تلف كالكرة الملتهبة تحمل كل ذكرياتي، طفولتي وصباي، أحلامي وأشجاني وطموحاتي، أولادي وأحفادي، من يأتي من بعدي، آبائي وأجدادي.

وببطءٍ مخيف مُذهل تقترب الإبرة من المنطقة المظلمة، والنتيجة لن تحتمل الشك، فهي إذا دخلت في المنطقة المظلمة التي تُشكل جزءًا من جسم الفقرة العظمية فمعنى هذا أنها — تلك المنطقة — لم تعد عظمًا، وإنما تحولت إلى ذلك النسيج الطري السرطاني الرهيب، التهم السرطان عظمها وتركها رخوة تمهيدًا للموت الكامل الرخو الذي حالًا ما سيحدث. وإن لم يستطع الطبيب إدخالها وقاومت المنطقة المظلمة فمعنى هذا أن النسيج لا يزال عظمًا سليمًا، وأن الظلام له سبب آخر غير السرطان.

أجزاء من الثواني انتفض لها جسدي، وقفزت له كل خلية من خلاياه، وارتكزت على أطراف أصابعها ترتقب النتيجة، فهي لن تحدد عمري ككل؛ ولكنها ستحدد عمر كل خلية فيَّ، وكل جزء وكل عضوٍ، بل ستحدد مصير أناس آخرين كثيرين غيري.

وكان أروع نقر سمعته في حياتي قاطبة هو صوت الكلابتين وهما تدقان فوق المنطقة المظلمة من الفقرة، نقر أسمعه بأذني ويصلني مباشرة من عظام الفقرة إلى الأذن الداخلية، ويصلني حتى من أُذني الخارجية.

الحمد لك أيها الإله العظيم!

مالكي ومالك الكون ..

ولم تطفر من عيني دموع، فجأة أحسست بتعبٍ وكأني ظللت أجري عمرًا بأكمله، كانت التجربة أكبر بكثير من احتمال البشر، وبمثل ما دأبت على مصارعة الحياة وتحديها ظننت أني أحتملها، ثقتي بهذا الجسد لا تقهر.

ولكن أيها السادة، للجسد أحيانًا حدود. وأبدًا لم يُخلَق الجسد لنحمل فوقه الجبل.

وثبت أن المسألة كلها لم تكن سوى التهاب بسيط في الفقرات شُفيت منه تمامًا بعد ثلاثة أسابيع.

ولكني قبل أن أُشفى منه، كان القلب الذي حمل على عاتقه هذا كله قد أُصيب بأزمة. ونقلت من عنبر النفوس المعذبة في الرابع إلى عنبر العناية القلبية المركزة في الثالث.

وها أنا ذا في أمريكا، سليم تمامًا، معافى، وها هو التشخيص الدقيق يثبت أن هناك انبعاجًا في جزء من القلب نتيجة للأزمة المروعة. والأطباء ينقسمون على أنفسهم تمامًا، الأغلبية تقول: إن هذا الانبعاج ما دام لا يسبب أعراضًا فلا خوف منه إطلاقًا، وتستطيع أن تعيش به إلى السبعين والثمانين، والأقلية تقول: بل من المستحسن استئصاله من الآن؛ فربما سبب أعراضًا في المستقبل.

فماذا أفعل أنا؟

وحين أقول: «أنا» في الواقع لا أتحدث عن نفسي؛ وإنما أتحدث عن نوعي من الناس، ذلك النوع الذي لا يقبل إلا الكمال المطلق، الذي لا يستطيع أن يُساوم، الذي يمكن ولا يقدر أن يعيش خائفًا من شيءٍ، متوقعًا أن يُهاجمه عرض ما أو مرض ما، خائفًا من الهواء إذا هبَّ الهواء، ومن أي ألمٍ يعتريه إذا اعتراه ألم.

كانت أيامًا كئيبةً تمامًا، فالمسألة في حاجةٍ لقرار، وعمليات القلب ليس فيها هزار، فأي فشل معناه الموت، إنها ليست عملية في ساق أو مُصران أعور، إنها في صميم مكنون الحياة، تلك الحياة المركزة على هيئة كتلةٍ عضلية حمراء، تُخلَق وهي تنبض، وتظل تنبض حتى نهاية النهاية، العملية فيها، وتستدعي أن يتحول الدم عنها، ويوقف القلب تمامًا، كي تتلقفه يد الجراح.

وبعد ساعاتٍ يعيدونه إلى النبض، ويعيدون إليه دورة الدم، فماذا لو لم ينبض؟ ماذا لو قال: لا؟ وفي أحيان يقولها، ولا تفلح أي جهودٍ في إعادته ينبض؟

قلت: فلْأذهب لأعلى مستوى علمي في أمريكا، مستشفى البحرية الأمريكية في «بتسدا» بجوار واشنطن. والحق أن السفير أشرف غربال قد بذل كل جهده، ولكن إجابة وزارة الخارجية الأمريكية كانت واضحةً وصريحةً: إن هذا المستشفى لا يُعالج إلا الوزراء ومن هم من مستوى أعلى في الدول الصديقة، ومن يعتبر علاجهم هناك لمصلحة الولايات المتحدة.

ويبدو أن علاجي هناك لم يكن كذلك.

وشكرًا لله أن حكومتنا كانت قد اعتمدت مبلغًا مناسبًا تمامًا كي أستطيع أن أرى أكبر جراحي القلب هناك، وهكذا عُرِضتُ على الدكتور ديبكي جراح القلب الشهير، الذي أكَّد لي أن المسألة ليست بحاجة الآن لعملية: اذهب إلى مصر، وعش أربع خمس سنوات وإذا تعبت تعال هنا ونعمل لك العملية.

وكان سهلًا أن أعود هكذا إذا أردت أو كلما أردت.

كان إحساس ما يؤكد لي أن المسألة في حاجةٍ لقرار شجاع، وما أسهل أن تأخذ القرار الشجاع إذا كان الأمر يتعلق بغيرك أو بعملك أو حتى بأي أمر من أمور حياتك، وما أصعب وما أبشع أن يكون القرار خاصًّا بجسدك! بل بأهم ما في هذا الجسد، نبض الحياة فيه أو سريان الدم.

غريب في القارة الواسعة: أمريكا. غريب رغم الأصدقاء الكثيرين حولي، والمصريين هناك، وعلى رأسهم رجلٌ من أخلص وأنبل من قابلت في حياتي: الدكتور عبد الهادي مخلوف قنصلنا العام في أمريكا، من طبيب لطبيب، ومن مستشفى لمستشفى، ومن اختبار لاختبار.

والقرار لا يزال رابضًا هناك في أعماقي، ينظر لي بعينين لامعتين ماكرتين تتلمظان، إما لالتهامي والإجهاز عليَّ، وإما لكي ألتهمه أنا وأمضغه وأصنع من مادته حياة، حياة حرة طليقة بغير قيدٍ، بغير تحديد، بغير عجز، بغير ذلك الإحساس الممض: أني ضعيفٌ.

ولكن، يبدو أنه كان للمشكلة وجه آخر لم ألحظه. ذلك أن الطب في أمريكا مثله مثل أي شيء آخر هناك، له طبيعة مختلفة إلى حدٍّ كبير عن الطب هنا، اختلاف الإنسان الأمريكي عن إنساننا هنا. المجتمع الأمريكي قام على انتزاع الوجود بالقوة، والقوة لا تزال هي القانون السائد، قوة المال أو قوة النفوذ أو قوة المسدس، أو حتى القوة العضلية المحضة؛ ولذلك فالصراع من أجل البقاء هناك صراعٌ رهيب لا يمكن أن يُقارن بالحياة الوادعة المنبسطة الممتدة هنا. هنا تحسُّ أنك حيٌّ .. لا يمكن أن تموت إذا متَّ من الجوع، لا بد لك قبيلة، أو قرية ما، أو مجتمع ما ممدود الأيدي دائمًا لانتشالك، مُحال أن تغرق. هناك إذا غرقت لن تمتد لك يد أبدًا بالمساعدة، إذا هويت هويت وحدك، وإذا عشت عشت وحدك، وإذا اغتنيت أو افتقرت أو مرضت فأنت وحدك الذي عليك أن تقبض أو تدفع، ولهذا فالإنسان في هذا المجتمع عليه أن يشحذ جميع أسلحة بقائه ليظل حيًّا؛ ولهذا ليس غريبًا أن يكون الأطباء على قمة أصحاب الدخول الكبيرة في أمريكا، ذلك أن الإنسان هناك مضطرٌّ أن يحافظ على صحته — رأسماله الحي — لكي يحيا ولكي يؤمِّن هذه الحياة.

وليست هذه هي المشكلة وحدها، المشكلة الكبرى أيضًا أن المجتمع الأمريكي قد وصل إلى أعلى درجات التصنيع، بحيث أن الطب نفسه أصبح صناعةً، حتى عمل العمليات أصبح صناعة، فالجرَّاح هنا لا يدخل ليشق الجلد بنفسه، ويصنع الجرح بنفسه، ويصل إلى مكان عمل العملية بنفسه. أبدًا لا توجد غرفة عمليات واحدة يتعهَّد فيها الجراح بعمل العملية من الألف إلى الياء، غرفة العمليات عبارة عن سبع أو ثماني غرف، يقوم فيها كل نائبٍ بعمل خطوة من خطوات العملية، ويقوم المساعد بالعمل الأكثر دقة، أما الجراح المتخصص فهو الذي يدخل هذه الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به؛ سواء أكانت في القلب أم الرئة أم الكلية، ويغادر الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به في مريض آخر. صناعة المستشفيات مهولة الحجم، تلحق بها فنادق خاصة لإقامة أقارب المرضى، والعمل يجري كما لو كنت في مصنع سيارات ضخم، فقط هنا يُصلَح الإنسان، ولكن على نفس الوتيرة، وتيرة الـ Mass production.

كيف لإنسان جاء من الوادي الوادع، ومن الطب حيث الطب لا يزال مهنة فردية وادعة، يقبل أن يضع نفسه في «خط» إنتاج وإصلاح الإنسان.

ولكن المحير أيضًا أن أمريكا هي الرائدة في جراحة القلب. سبقت أوروبا فيه بمراحل، ويكاد يكون من المستحيل أن يموت الإنسان هنا نتيجة خطأ إلا إذا كان عمره هو نفسه قد انتهى.

ذلك قرار آخر كان من المحير تمامًا أن تأخذه، أو لا تأخذه. أليست إنجلترا أقرب إلينا وإلى طبيعتنا من هذه المصانع البشرية الهائلة التي يُعالج فيها الإنسان؟

وقفة مع النفس هذه المرة

أجل في نهاية الأمر، الرجل ليس شوارب كثَّة أو صوتًا عاليًا غليظًا، والمرأة ليست مجرد أنثى غندورة تعبث بها الحياة كما شاءت. لا. لا. لا الرجل ولا المرأة خلق من أجل أن يكون جثةً طافيةً فوق سطح الحياة، يتولى التيار العام أو الموج أو الرياح أو الصدفة اتخاذ القرار لها بالوقوف أو النكوص أو الانحراف، الإنسان إرادة. الإنسان إنسان فقط حين يريد، أي في تلك اللحظات التي تتكون له الإرادة فيها. ليس مهمًّا ماذا أراد أو يريد، ماذا أحب أو لم يحب، وإنما المهم أولًا وقبل أي شيءٍ آخر أنه إنسان؛ لأنه — دونًا عن كافة الجماد والمخلوقات — كائن ذو إرادةٍ. أي له القدرة أن يريد الشيء أو الهدف، حتى إذا اختلف ذلك الشيء أو الهدف عمَّا جرى به العرف أو توافقت حوله الآراء، يريد ويحقق ما يريد.

وإذا كان الإنسان إرادة، فالإرادة أولًا قرار.

والقرار هذه المرة ليس عاديًّا أبدًا: أن تكون أو لا تكون. ليس في مسرحية، من شعر شيكسبير .. أو موقفًا في رواية أكتبها. ولكنه واقعٌ صلب بارد لا مبال، مثله مثل كافة الحقائق في الحياة.

قرار عليَّ أن أتخذه، أنا المملوءة خزانتي بأنصاف القرارات وأرباعها، وكادت حياتي تئول في النهاية إلى «صندرة» قرارات مُوقَفة التنفيذ، مجمدة، كُهنة، مهملة. أنا، وممن؟ من شعب حياته «وكالة بلح» لقرارات وقرارات، على المستوى العام وعلى أخص المستويات، كلها مكسرة أو مكهنة أو مهملة، أو صدئت تمامًا حتى فقدت فاعليتها وأصبح لا ثمن لها حتى في سوق خردة القرارات.

أجل، لحظة، أو موقف، تكشَّفت لي فيه أشياء كثيرة جدًّا. عن نفسي، وعن شعبي، وعن حياتنا، وعن المأساة الحقيقية في حياتنا: إننا شعب بلا قرار، نكاد نكون بلا قدرةٍ أصيلة

على اتخاذ القرار. نترك الأمواج والأهواء والحيوات تعبث بنا كيف تشاء. تشيلنا الحياة وتحطنا. يتحدد مصيرنا. يتطربق أمام أعيننا المستقبل. أو يحفل بالورود والزهور. يتغير الواقع — واقعنا — أمام أعيننا تغيرًا جذريًّا أحيانًا. ونحن ننظر في شِبه بَلَه إلى الأشياء وهي تقع، وهي تحدث، وهي تتفاقم، وكأن مردةً أو جنًّا أو عفاريت أو أشياء مجهولة هي التي تحرك الواقع وتحركنا. ولسنا في هذه المهزلة كلها المسمَّاة بالحياة سوى متفرجين. ننتظر آه. نصبر آه. نأمل آه. نعذب آه. نشكو آه. نلطم آه. نصرخ آه. نفرح آه. ولكن أبدًا أبدًا لا نصنع نحن الفرح، ولا نصنع نحن الحزن، ولا نصنع نحن الحدث، وبالتالي لا نصنع أبدًا ذلك الشيء المهم، أهم شيء في حياتنا. لا نصنع حياتنا نفسها؛ وإنما هي دائمًا تُصنع «بضم التاء» لنا. تأتينا من أهلنا جائز، من طبقتنا جائز، من الظروف جائز، ولكنها تأتينا جاهزةً، فنقبلها وكأنها أمر القدر. عمرنا أبدًا لا نرفضها أو حتى نفكر في غيرها. كل ما نطمع فيه أن نحسِّنها بعض الشيء، أو نتعذب ونشكو بعض الشيء .. طلعت ضيقة شوية .. لأ .. واسعة حبتين .. لأ .. الخصر مرهرط شوية .. وهكذا أصبحنا أعظم أخصائيين عن كافة الشعوب في تقبل الحياة كما هي، و«تأييفها» — على رأي التعبير العسكري — والتواؤم معها.

ذلك أننا — مثلنا مثل ماء النيل في بعض أجزاء النهر — نتوخى دائمًا أسهل الخطوط وأسلسها لنشق المجرى أو نحيا .. ذلك لأن معنى غير التقبل، معنى الرفض أحيانًا، معنى أن نقول: لا للظروف أو لتلك الحياة الجاهزة، معناه رهيب وخطير ومروع، معناه أننا سنرفض الجاهز لنقرر نحن واقعًا من صُنعِنا. وتلك هي الكارثة. فمعناها أننا نكون مسئولين مسئولية كاملة عن إقامة حياة أخرى كما يحلو لنا. حياة قد تنفع وقد تفشل، وسنلقي فيها كل صعوبات خلق الأشياء والتفكير لها والتدبير، وأرذل الأشياء جميعًا، اتخاذ قرارات عميقة حاسمة ننفذها ونتعب تمامًا في أخذها وتنفيذها .. أليس الأريح والأفضل أن نقبلها، ويا شيخ، بلاش وجع دماغ .. أنت لسه ح تعمل وتسوي، خدها كده وريح نفسك. وعلى إيه دوشة الدماغ دي.

وهذه بالضبط هي المشكلة «دوشة الدماغ». إذ نحن نسمي التفكير — ذلك الذي يتفرَّد به الإنسان، والذي اختصَّه به الله دونًا عن سائر الكائنات والأحياء — نسمِّيه «دوشة دماغ»، وكأن الدماغ خُلق لشيء آخر غير هذه «الدوشة» أو هذا «التفكير». ألا نقول لبعضنا البعض إذا رأينا إنسانًا منحرف المزاج قليلًا: أصل عنده شوية «فكر» .. التفكير إذن دوشة ومرض ووجع رأس. والحل .. اللاتفكير، الحل أن تكون سلطان زمانك. ذلك السلطان

الصعلوك الذي يلملم فتافيت الأسياد ويزدردها، ويدلق في فمه قُلة ماء ويتكرع ويقول: أنا سلطان زماني.

سلطان زمانه هذا الذي في حياته ما تبوأ عرشًا، وإنما فوق رأس هذا السلطان زمانه أُقيمت العروش والأعراس، وركب الرومان واليونان والفرس والعرب والإنجليز، وكان ممكنًا أن يركب الروس والأمريكان وكلشنكان، فما أكثر ما ركب الطغاة سلطان زمانه، ذلك المركوب دائمًا معنًى ومجازًا «الملجم دائمًا» معنًى ومجازًا، الذي يعتبر أن البردعة الموضوعة على ظهره هي العرش، لا يهم أنه العرش بالمقلوب، ولا يهم أنه ليس عرشًا وإنما ربما «عريش» عربة كارو. ماذا يهمُّ؟ ومالي أنا ومال «وجع الرأس»، و«الدوشة» حيث تركبني الهموم والأفكار .. مالي أنا وما لهذا كله؟

هكذا راحت مشكلتي الشخصية كلما اجترتها أو جذبتها أحسُّ بها كخيط الحاوي، تخرج بأشياء وأشياء، لأجد أنها ليست مشكلة الساعة أو العصر؛ وإنما هي طويلة طويلة، طولها ألف، ألفان، خمسة، ستة، سبعة، عشرة، آلاف ربما من الأعوام. أنا فردٌ، هذا صحيح؛ ولكن داخلي شعب بأكمله. داخلي تاريخ قديم قديم يمتد من الأزل إلى الآن. داخلي مفهومات وترسُّبات وقضايا مُسلَّم تمامًا بها، داخلي عصور جيولوجية صخور من الرواسب فوقها صخور، داخلي إنسان مشكلته أنه أقدم إنسان ظهر على سطح الأرض، عجوز، عجوز جدًّا، بلغ من الشيخوخة حد أن لم يعُد مهمًّا أبدًا أي شيء يحدث في الحياة أو للحياة.

تلك هي بالضبط المشكلة التي من أجلها بدأت ثورات الإنسان المصري في عصرنا الحديث، ولا تزال مشكلة أن تعيش كما يريدون أم كما نريد نحن، ولأن الشعب هو أولًا وأخيرًا فرد، ولأن الفرد هو أولًا وأخيرًا قرار، فثوراتنا كلها — وإن كانت ثورات جماعية شعبية — لها مليون ظرف تاريخي، ومليون وجه ونتيجة وتفسير؛ إلا أنها في أهم جوانبها راجعةٌ إلى تململ ذلك «الأنا» المستسلم للقدر وللحياة في قلب المصري، تململه من أجل أن يعود يحيا، ومن أجل أن يعود يريد، ومن أجل أن تصبح إرادته في النهاية واقعًا، واقع لأول مرة من صنعه هو، ومن كدِّه ومن عرقه، وبإرادته الحرة المطلقة، وفي النهاية بقراره.

علمنا آباؤنا وأجدادنا، علمونا في المدارس والكتاتيب والجامعات، حفظنا جدول الضرب وجدول مندليف، وعلَّمونا جدولة الديون. كم علمونا وكم تعلمنا، ولكن أحدًا لم يأخذ باله أبدًا ومطلقًا من أهم الأشياء جميعها. أن يعلمونا أو نتعلم كيف نصبح رجالًا .. أو بمعنى أدق كيف يصبح لكل منا شخصية، وكيف يكون للإنسان منا رأيٌ، ثم في النهاية — وبناء على تلك الشخصية وهذا الرأي — يأخذ قرارًا.

أجل السؤال هو: كيف يتخذ الإنسان المصري منا قراره؟

بادئ ذي بدء وكما قلنا فإن معظمنا لا يكلف نفسه عناء اتخاذ أي قرارٍ. فحياته كلها ليست قرارات من صنعه وإرادته؛ وإنما هي سلسلة من الأفعال وردود الأفعال، أو هي بالأصح ردود أفعال لما يقوم به أو يأتي من الغير.

والفرق كبير جدًّا بين القرار ورد الفعل.

فالقرار هو الأصل، هو في الحقيقة الفعل، هو تحقيق الوجود بتحقيق الإرادة. عملية إيجابية يتخذها «الأنا» الأعلى في الإنسان ليحقق بها رغبته أو إرادةً أو خطةً من صُنعه هو وخلقه وابتكاره؛ بينما رد الفعل عملية سلبية تمامًا، في الغالب هدفها مجرد الدفاع الغريزي التلقائي عن النفس أو الموقف، القرار هو القدرة؛ بينما رد الفعل هو العجز عن القدرة، عجز عن المبادرة، عجز عن إيقاف الآخر أو الآخرين، موقف المدافعين بحيث تُرغمهم هم، ولست أنت، على القيام بردود الأفعال.

وبصراحة نتكلم: من منا — نحن المصريين — يستطيع أن يزعم لنفسه أنه صنع أو يصنع حياته كما يُريدها هو وليس كما أُريدت له أو شاءتها الظروف والملابسات؟

كم في المائة، كم في الألف، بل كم في المليون من يستطيع، وبصراحة مطلقة بينه وبين نفسه، أن يزعم هذا؟

أنا لا أريد بسؤالي أن أُقلِّب المواجع أو أتحسَّر أو ألوم، بل حتى لا أُريد بهذا الحديث كله عن نفسي وعن عمليتي وعن قراري، لا أريد أن «أكتب» انطباعات، أو ذكريات، أو أسجل واقعًا من النادر أن يمرَّ به الإنسان العادي، فما بالك وأنا أول كاتب في العالم «يُجرِّب» المرور بعملية في القلب! كان هدفي الأكبر — ولا يزال — أن أُحيل هذه التجربة الشخصية المحددة إلى القضية العامة التي تهمُّ كل الناس، قضيتنا نحن كشعب احترنا في أنفسنا وحيَّرنا العالم كله معنا. بالضبط من نحن؟ وكيف نفكر؟ وكيف نعيش؟ وكيف نقرر؟ ما هو داؤنا الأكبر؟ وأين المكمن العظيم لقوتنا؟ تلك هي المشكلة التي كانت ولا تزال وستظل تلحُّ عليَّ: أن أكشف لأنفسنا سرَّنا أو بعضًا من هذا السر. أن أجعل ذلك الشاب أو الشيخ، وتلك الفتاة في البنطلون المحزَّق، أو في زي الأخوات المسلمات، أن أحاول مع هذا العالِم الديني الجليل الذي يُفتي للناس في أمر دينهم ودنياهم دون أن تختلج له ذرة تردد، مع هذا المثقف الجالس على القهوة أو على المكتب الذي «وضعوه» خلفه ينقُد، ويلذع، ويثور، ويُندِّد. مع منبر اليمين والوسط واليسار. مع المصفقين للإنتاج، الهاتفين بحياة الغرب، مع

الثائرين يهتفون للشرق، مع المرأة المصرية الحائرة بين أن تُغامر مثل جارتها أو تتأدب، وسائق التاكسي الذي ينبت في رأسه فجأة أن يحيط العداد بالفوطة ويُضرب عن العمل، مع أهلنا وأحبابنا فلاحينا الذين يزرعون ويزرعون ولا زالوا يزرعون وسيظلون يزرعون إلى ما شاء الله.

مع هؤلاء جميعًا، أحاول، صادقًا ومخلصًا وبكل ذرةٍ من كياني ووجودي، بمشكلتي الخاصة، بقضيتي العامة، بالكتابة نفسها، بكل ما يمكن للقلم أن يحفره، بكل طاقتي وقدرتي وقدرات كل الناس على أقصى مستوًى للتفكير أن نصل. أحاول ولو مرة في حياتي، أن أقف، ونقف جميعًا، وقفة، لا مع الصديق هذه المرة، ولا مع العدو، لا مع روسيا ولا مع أمريكا، لا مع هذا أو ذاك، وإنما وقفة، يا عالم، مرة، مع أنفسنا، وقفة مع النفس مرة لأجل خاطر نبينا محمد رسولنا العظيم، لأجل خالقنا الأعظم، نقف مرة ونتدبر: ما هي المشكلة؟ ولماذا يحدث ما حدث إذا حدث؟ وهل المسألة حظٌّ أم فتاكة أم قلة حيلة، أم أن للمسألة وجهًا آخر، لم نره أبدًا؟ لا أحد أراه لنا، وربما نحن لا نُريد أن نراه، وجهًا آخر هو وجهنا نحن.

لننظر في المرآة:

لن نخاف أو نتوجس، فنحن بعد لم نعد أطفالًا، الحرب حاربنا، التاريخ صنعناه، آمون خلقناه وعبدناه، وكم من آمون خلقناه وعبدناه ثم أمتناه وبكينا عليه، كل شيءٍ فعلناه، وكل شيء نفعله ومستعدين أن نفعله. انفتاح مستعدين، اشتراكية مستعدين، نظام مستعدين. فوضى مستعدين، تمام، كله تمام يا افندم. وكم ضيعتنا كلمة «تمام يا افندم»! يسار دُر: ندور، يمين در: ندور، وسط در: ندور، فوق در: ندور، تحت در: ندور. شقلبة تشقلبنا، جدعنة تجدعنَّا، مرمطة تمرمطنا، ثورة ثُرنا، تصحيح صححنا، شدُّ أحزمةٍ شدَّينا، غنا غنينا، رقص رقصنا، تضحية بلا ذرة تردد ضحَّينا، نكسة انتكسنا، سمُّوها هزيمة انهزمنا، جاء ٦ أكتوبر يُنقذنا فأنقذنا.

كل شيءٍ فعلناه وكل شيء مستعدون أن نفعله.

إلَّا شيئًا واحدًا أخاف خوف الموت أننا لن نقدر على فعله. ذلك أن نواجه أنفسنا بقى.

نغسل أصباغ البهلوانات والمهرجين .. نخلع ثياب الأبطال أو الشحَّاذين .. نرمي العكاكيز .. نتخلص من العاهات المصنوعة والحقيقية .. من أغطية زجاجات الكاكولة ونياشين البطولة الحقيقية اللامعة المزركشة .. نُزين اللحى المصنوعة .. نتوقف لحظة عن

الزعيق الأجوف الذي نحاول أن نخوِّف به الآخرين فلا يخاف منه سوانا. نصمت، يتوقف الصخب المروع المالئ حياتنا، في ثبات الرجال نقف «أقول نقف» وفرقٌ كبير بينها وبين أن نتوقَّف. فالحادث فعلًا أننا متوقفون، والمطلوب أن نكفَّ عن التوقف، ونقف في ثياب الرجال وشجاعتهم، نقف .. ونصنع ألف باء الفعل الجدير بأي بني بشر: نواجه أنفسنا.

لا أقول إذن: نقف جميعًا، بل أقول: ليقف كل منا، عاريًا تمامًا من كل شيء إلا من نفسه، من صدق نفسه، أمام مرآة، وهي ليست مرآة غريبة عليه؛ لأنها مرآة نفسه هو، وعلى مدى وقدر صدقه مع نفسه يكون لمعانها أو ضبابها، وضميره وحده هو الحكم.

ولكن هذا الطلب، وبهذه الصيغة، أن يقف كلٌّ منا أمام مرآة نفسه الحقيقية وقفة مع نفسه، هذا الطلب، وبهذه الصورة فيه أيضًا، ذلك التعميم الذي دائمًا نهواه ونحبه؛ لأنه التعميم الذي به نهرب من الواقع ومن أنفسنا كما تعودنا أن نهرب. ولقد ظللنا نهرب إلى أن انتهى الأمر بنا حيث لا مهرب.

لكي يصبح الأمر تخصيصًا إذن محددًا وواضحًا لا لبس فيه. أقول: فلأقف أنا، قبل أن تقف أنت. فلأقف أمامك. وأمام نفسي وأمام الملأ. فلأقف في تلك الغرفة الخاصة، أمام تلك المرآة الخاصة، عاريًا تمامًا في ذلك الحمام الروحي، لأعرف من أنا. بالضبط: ماذا أفعل الآن؟ ومن أنا؟

وإذا لم أكن أنا، فمن أنا؟ إذا لم أكن ذلك المهرج ولا هذا البطل، إذا لم أكن ذلك القرار صاحب الكلمات الضخمة، ولا ذلك الفعل الذي غيَّر وجه الدنيا، فمن أنا؟ وماذا أفعل الآن؟ وماذا أنوي أن أفعل؟

قد يبدو للبعض أنها مسألةٌ سهلة جدًّا. ما أسهل أن يتعرى الإنسان أو الإنسانة (خاصة هذه الأيام)! وما أسهل أن يقف أمام المرآة! وما أسهل أن يُجيب وكأنما إجابته مسجلة على كاسيت لا ينقصه إلا إدارتها!

أمَّا الصعب تمامًا، أما الخطير تمامًا فهو أن يحدث هذا كله بصدق؛ لأنه يحدث — وربما لأول مرة — بينك وبين نفسك، دون تدخل مطلقًا من أحد، وباختيارك أنت وبإرادتك.

إما أن أعيش الحياة كاملة ومطلقة وبكل ما أريده من حرية.

أمام الحائط الأخرس المرآة واجهت نفسي.

وكان عليَّ أن أتَّخذ قرارًا.

وإما أن أعيشها عاجزًا ومرعوبًا ومكتفيًا بفتات أسيادها.

ولكي أتخذ القرار كان على أن أعرف من أنا، ومن أنتم، وبالضبط من نحن.

ولكي أعرف كان عليَّ أن أكون شجاعًا تمامًا.

والشجاعة ليست صفة.

وليست قصرًا على أحد.

وكلنا نستطيع — لو أردنا — أن نكون، أو على الأقل نواجه ما نريد، حين نريد، بشجاعة.

وأقصى درجات الشجاعة في رأيي ليست أن تقف مع الصديق أو مع العدو أو تواجههما .. الشجاعة الأكبر أن تقول: أنا جبان .. أو أنا خائفٌ، أو أنا لا أستطيع، أو أنا قادر.

هو في رأيي الإكسير السحري للشجاعة.

بل هو الإكسير السحري للحياة.

فلقد اكتشفت أن الحياة كلها هي في ملخصها لحظة قرارٍ شجاع .. ومن يهرب منها ومن يؤجِّلها ومن يؤْثر السلامة أي إشاحة النظر عنها هو الذي يموت. أو هو الميت وإن ظل يُحتسب في عداد الأحياء .. حيًّا .. واسمحوا لي أن أُطلعكم على داخلي الذي لا يختلف كثيرًا عن داخلكم؛ لأريكم كيف أخذت قرارًا، أعتبر الآن، وبعد أن مضى كل شيء — والحمد لله — بسلام، أنه كان أشجع قرار اتخذته في حياتي.

فقد كان قرارًا أن أعيش.

ليس تلقائيًّا هذه المرة، وإنما أُولد على يد نفسي، وبإرادة الله خالقي وبحياة — بعد خلقه الأكبر — من صنعي أنا.

ولكن تلك قصة أخرى.

ألف باء تاء ثاء

آخر عهدي بقرَّائنا الأعزاء أنهم كانوا دائمًا يفهمونها وهي «طايرة» بحيث لا تصبح المقالة أو القصة حصة على الكاتب فيها أن يشرح لقارئه موضوع الدرس وملخَّصه، وفي النهاية يختمه بالحكمة المستفادة من الموضوع. وهكذا أجد نفسي مضطرًّا لأن أعود فأقول — وبمنتهى البساطة: إنه لم يكن بذهني أبدًا أن أقصَّ رواية عجيبة عن «مرضي» أو عن «عمليتي» الجراحية النادرة، مع أن هذا في العادة مادة محببة جدًّا إلى النفس لكل مريض. خاصة إذا مرَّت الأزمة. تصبح قصة مرضه وأقوال أطبائه ومفاجآت مستشفياته مادة خصبة حية يحلو له أن يتربَّع نفسيًّا بعد العشاء مع الأصدقاء أو أثناء الشاي ويحكي السيرة وكأنها واقعةٌ من وقائع الزِّير سالم. بل لم أقصد حتى أن أستعرض حالة فردية «ولو كانت حالتي هذه المرة» لأقتنص منها ذلك الجزء الذي يمسُّ الحالة الجماعية لنا، ويصبح للموضوع حينئذ فائدة عامة.

لا أيها السادة، لا مرض ولا يحزنون، ولا تستعيذوا بالله من السيرة وتقلبوا الصفحة إلى موضوع آخر أكثر أملًا وإنعاشًا للنفس. إنِّي في حقيقة وقرارة نفسي كنت أُريد — وعلى وجه التحديد — أن أتحدث عن ذلك الجانب المشرق في النفس. الجانب الأحيى وليس الجانب الأمرض، الجانب الأكفأ وليس الجانب الأعجز. كنت أريد — ولا أزال أريد — الحديث في صميم لحظتنا الحاضرة، في صميم المشكلة، في صميم ما تعانيه أنت الآن في هذه اللحظة وما أعانيه أنا. ليس لأننا كلنا — والعياذ بالله — مرضى .. وإنما لأننا كلنا — وبطريقة أو بأخرى — نمرُّ بأزمة. الأزمة هي الكلمة، اجعلها اقتصادية تكن، محبة تكن، فكرية أو زواجية، أو جنسية حتى تكن. وما المرض بكل هيلمانه وخطورته، بل ما الموت، بل الحياة نفسها سوى أزمة. لم نخترها نحن والعادة أن الإنسان ليس «غاوي» أزمات، أو هو الذي يختارها، إنما الحادث أننا إلى رقابنا فيها.

ولقد لامني كثيرون أني لم «أشرع قلمي» وأخوض في النقاش الهائل الدائر حول عبد الناصر، وثورة عبد الناصر، و٢٣ يوليو، والسد العالي، والاشتراكية أو اللااشتراكية، التعذيب في السجون، المعتقلات. لاموني وكأن المسألة قد انقلبت من معركة إلى معزًى أو مناسبة اجتماعية عليك أن تؤدي «الواجب» فيها وتجبر بخاطر أهل المتوفى، أو تنهال باللائمة على المرحوم وتعتبره السبب في كل ما جرى. وكنت إذا قيل هذا أو فوتِحتُ فيه أكاد أنفجر ضاحكًا؛ ذلك أنني كنت أتصور الوضع وكأنْ قد قامت فعلًا حريقة في مسرح البالون أو دار الأوبرا، وأن رجال المطافئ قد تركوا الاستعدادات العاجلة المطلوبة فورًا لإنهاء الحريق وراحوا فيما بينهم وبين أنفسهم وعلى صفحات الجرائد وبالساعات والأيام والسنين .. راحوا يتباحثون حول ما يمكن أن يكون السبب في الحريق، وهل هو بفعل فاعلٍ، أم أن الاستعمار العالمي كان منغاظًا تمامًا من مسرح البالون فقلب نظام الحكم في دار الأوبرا وأحالها إلى موقع عربات كارو. نقاش ونقاش وصفحات وصفحات وأطنان من الحبر الأسود والأحمر والأزرق تُدلق فوق جرائد وكتب ومجلات يتخاطفها رجال المطافئ ويجلسون على المقاهي يطالعونها بحماسٍ شديد لمعرفة الأسس الفكرية والعقائدية والنفسية التي تسببت في الحريق، والحريق والع ومتأجج — والحمد لله — أمامهم، يلتهم الأوبرا والبالون والمصانع، ويلتهم النفوس البشرية، ويلتهم التليفونات، ويلتهم المواد والمجاري وكل ما يمكن أن يلتهم على سطح أرضنا الطيبة.

كنت أكاد أنفجر ضاحكًا من الغيظ ومن غرابة الموقف، نناقش الموقف وكأننا — والحمد لله — وصلنا إلى برِّ السلامة وجلسنا مسترخين فوق رمال الشاطئ نتشمس ونتسامر بالحديث عن البحر المهول العميق، والمركب التي غرقت بنا أو كادت تغرق، والمغامرة العجيبة الغريبة التي لا تضارعها مغامرات أجعَص سندباد. وكأن السندباد قد عاد من الرحلة، وكأنه نازع الأهوال والأمواج وأكلة لحوم البشر وعاد معافًى سليمًا لا يشكو من مرض. والعجيب أنه ليس أول موقف مضحك من مواقف التاريخ المصري، أو الطريقة التي يُعالج بها الإنسان المصري حاضره وتاريخه، فلقد ظللنا بعد ثورة عرابي نُناقش أخطاء ثورة عرابي، وخيانة خنفس بك، بينما نفس الذين أفشلوا ثورة عرابي، وعشرات الخنافس الذين خانوا الشعب في خضم هذا النقاش الهائج الهائل يسرقون ما تبقى من ثورة الشعب المصري بعد عرابي، ويهدُّون الجدران والأساسات التي تقف بعد انهيار الأدوار العليا كي يجعلوها سَدَاح مَدَاح. كذلك الأمر حين قيل: إن ثورة ١٩ قد انتكست .. فقد ظل النقاش الساخن الفائر دائرًا حول سعد وعدلي، وأيهما كان على حقٍّ؛ بينما

كان الإنجليز والسراي في نفس الوقت المشغولة فيه العقول والقلوب بالتحزب لعدلي أو لسعد .. كانوا يغتالون البقية الباقية من ثورة ١٩، ويبلعون دستور ٢٣ الذي جاءت به الثورة، حتى ليصل الأمر في أوائل الثلاثينيات بمحمد محمود وإسماعيل صدقي أن يحكما مصر، مصر التي ثارت ثورةً رجَّت الإمبراطورية البريطانية في عنفوان قوتها، يحكمون ذلك الشعب الأسد الذي ثار بالحديد والنار ويحيلون العداء الذي كان من الواجب أن يستحكم بين المصريين والمحتلِّين إلى عداء بين الوفد وبقية أحزاب الأقلية.

ولنصل إلى الآن، وإلى ألذِّ المواقف إضحاكًا. تصوروا، نحن بالكاد قد انتهينا من بناء السد العالي، بل ولم تعمل فيه إلا أربعة تُربينات فقط أي ثلث قوته العادية، وأنفقنا عليه من الجهد والعرق والمال ما — لا بد — ينوء حملُه بشعب صغير محدود الموارد مثلنا. نحن بالضبط مثل التاجر أو الموظف الصغير الذي قضى عمره يُحوِّش ويدبِّر ليبني عمارة من ثلاثة طوابق مثلًا، وها هو قد بناها وأصبحت أكبر رأسمال يمتلكه، وأسكن منها الطابق الأول وبدل أن يعتبر أنه أصبح أمام أمرٍ واقع فعلًا، ألا وهو ذلك البناء، وأن لا سبيل مطلقًا إلى استرجاع ما أنفق عليه وما بذله من جهد إلا إذا هدَّمه وباعه خُردة، بدل أن يدرك هذه الحقائق الواضحة التي لا تقبل الشك أو الجدل؛ بدلًا من هذا يجلس على الرصيف المقابل، لا ليناقش أنسب وأكسب الطرق للاستفادة بهذا البيت الرأسمالي، بدلًا من أن يفكر في إقامة كازينو علوي، أو إنشاء صناعة تعليب أسماك على ضفاف البحيرة، أو استعمال الثمانية تُربينات الكهربائية التي بعدُ لم تستعمل، بدلًا من هذا يجلس وحوله عائلته الكريمة، تاركًا البيت ينعي الوقت والجهد والمال الذي بُذل فيه ليناقش هل كان يصحُّ أو لا يصح إقامة البيت. طيب لنفرض أن إقامته كانت خطأً في خطأ .. ماذا نفعل؟ .. نهدمه؟ .. نطرحه في المزاد العالمي لتشتريه دولة أخرى تقيمه فوق نهر آخر؟ بل لنفرض أننا قاضينا المقاول الذي بناه أمام محكمة خاصة قاسية تمامًا، وحكمت عليه بأقصى الاحكام، ألا وهو الموت مثلًا، ألم ندرك بعد أن المقاول مات فعلًا، وأن هذه التركة لنا، وأن المحاسبة لا بد أن تكون أولًا محاسبة لأنفسنا؛ لأننا لا نستغل التركة — حتى بفرض وجود عيوبٍ فيها ومنها كما يجب؟ لا. نحن لا نفعل هذا أبدًا، وإلا تخلينا عن صفتنا القومية البارزة، سنظل نناقش: أكان يجب بناء السد، أو كان لا يجب؟ حتى ونحن، بلا نقاش، وقبل أن نستفيد الفائدة الكاملة من كهرباء السد نشرع فعلًا في إقامة سدٍّ آخر في منخفض القطارة لتوريد وتوليد كهرباء لنا، وكأننا استنفدنا القدرة على توليدها من السد العالي دون إنفاق مليمٍ واحد؛ بل أكثر من هذا — وبلا نقاش أيضًا، أو حتى محاولة للاستنارة — نُقيم محطات لتوليد

الكهرباء بالطاقة النووية تتكلف ملايين الجنيهات، ودائمًا سنستورد وقودها النووي من بلاد أجنبية، وستكلفنا إدارتها وسيكلفنا الكيلووات الواحد منها أضعاف أضعاف ما يمكن أن يكلفه توليد الكيلووات الواحد من الطاقة المائية المتوفرة عندنا — والحمد لله — بكثرة، ومن الطاقة الشمسية التي تغمر الأفق. نفكر في إزالة الملوحة عن مياه البحر الأبيض، وبالطاقة النووية المكلفة وكأننا استنفدنا تمامًا المياه العذبة الطبيعية التي منَّ الله بها علينا من نيلنا الكبير، الذي تذهب مياهُه هدرًا وبمنتهى الإسراف إلى البحر المتوسط إياه؛ لكي تستحيل بتقصيرنا إلى مياه مِلحة، نُقيم لها المحطات لإزالة ملوحتها. ونفعل هذا كله بلا نقاش؛ بينما النقاش في هذه المرحلة هو المحتم والواجب؛ إذ ربما يتفق الأمر عن عمل مواسير أو ترَع بالأسْمَنت المسلح تفور في قلب الصحراء إلى سِيوة لو أردنا، وبتكاليف لا تكاد تعادل واحدًا على ألف من مشروع القطارة الذي قيل — والله أعلم: إننا سنستخدم في إنشائه القنابل الذرية.

النقاش على حسب تقاليدنا القومية المعتادة سيكون — بإذن الله — بعد إقامة هذه المشروعات، وبعد أن نكون صرفنا عليها — نحن الفقراء — الجِلد والسَّقط، وبدلًا من أن نُناقش الآن وبمنتهى الهدوء أولئك المهندسين والمخططين الذين يتصدُّون لمشروعات القطارة وإزالة ملوحة البحر ونتجنب خسارة محققة جسيمة، أو يتكشف لنا الأمر عن مكسبٍ حقيقيٍّ، بدلًا من هذا ننتظر حتى يخططوا بسرعةٍ وعلى عجلٍ للمشروع، ويصبح أمرًا واقعًا ومالًا وجهدًا وعرقًا تحتويه الرمال وتبتلعه أمواج البحر، وهنا نجأر بالصراخ ونطالب برءوس هؤلاء المخططين والمهندسين بعد أن يكون معظمهم قد تاواهُ القبر أو انتهى أجله، أو أصبح في حالة لا تسمح بأي عقابٍ.

أليس الأفضل أن نُناقش الشيء «قبل» أن يُصبح خطأً أو صوابًا من أن نُعاقب مرتكب الخطأ «بعد» أن يكون العمل قد تمَّ؟

ما علاقة كل هذا بالمرض والعملية؟

العلاقة أن المرض والعملية والظروف القاسية التي نكره الحديث عنها الآن وعن قولنا: إننا نمرُّ بها؛ ليست في شكلها المجرد سوى «أزمة».

والإنسان إذا مرَّ بأزمة، مفروضٌ أن لا يتوقف ليندب حظَّه العاثر ويبكي وينوح ويتساءل: لماذا هو — دونًا عن بقية الدنيا — قد أُصيب بتلك الأزمة؟ إنه قد يتوقف لبرهةٍ، هذا صحيح، ليعرف من أين أو كيف جاءته، ولكنه لا يعرف هذا ليحاكم جسده الذي

تخاذل، أو يصبَّ جام غضبه على الميكروب أو الجلطة؛ وإنما ليستمد من معرفته هذه نورًا يهديه السبيل للمقاومة الفورية الواجبة. مرة أخرى أقول: يعرف ليقاوم. وخلايا الجسد نفسها ببساطتها وتلقائيتها تعلمه تمامًا هذه الحقيقة. تتولى معاملها ومراكز المقاومة تحليل سم الميكروب، وتحديد فصيلته، ثم تتولى مصانعها المدفونة في أكبادنا ونخاع عظامنا؛ تتولى على الفور صناعة الأسلحة المضادة، تصنع الأسلحة وهي قد دخلت المعركة من أول لحظة، تحارب وهي تصنع، تحارب وهي تفكر وتحدد، تنظم مقاومة شاملة غير محدودةٍ في أول الأمر، ثم حين تتولى معاملها المحللة تَبيُّن العدو أكثر فأكثر تنتج له — وهي أيضًا تحارب وتقاوم — أسلحة أكثر دقة وأكثر تخصصًا وأكثر قدرة على التهام أسباب العلة ومقاومتها.

ولكن المسائل تتعقد كثيرًا، حين نُدرك رحلة مقاومة الجسد، وحرب الخلايا الطبيعية الفورية، ونصعد فوقًا إلى المرحلة الأعلى، حيث لا بد على الإنسان ككل وكإرادة أن يدخل المعركة. فهذا هو دخول الأسلحة الثقيلة، إذ إن أثقل سلاح يمتلكه الإنسان ليصدَّ به العدو أو يرحب بالصديق هو إرادةٌ، وأثقل قذيفة تطلقها الإرادة هي قذيفة القرار .. وهنا تأتي علتنا القومية .. فأسخف شيء لدينا هو إنتاج هذا النوع من الأسلحة المحلية، مع أنها السلاح الوحيد الفعَّال.

لا أدري لماذا؟ .. أبسبب أننا تعودنا دائمًا استيرادها، أبسبب أننا رغم حديثنا الكثير عن أن الإرادة لا بد أن تكون إرادتنا، وأن القرار لا بد أن يكون مصريًّا أولًا وأخيرًا نغفل عن حقيقةٍ خطيرةٍ هي أننا يمكن بهذه الوسيلة أن نجعل اتخاذ القرار حقيقةً في أيدي غيرنا، بل ربما في أيدي أعدائنا؟ فحين يعرف أعداؤنا — حتى بفرض وجود عيوبٍ فيها ومنها — قراراتنا، هي في الواقع ردود أفعال لأفعالهم هم، ردود مصرية حقيقية .. نابعة منَّا .. هذا صحيح .. ولكن سببها وعلتها أنها موجهةٌ ضد «قرار» آخر اتخذه العدو أو اتخذه الصديق. وأن هذا العدو باستطاعته التحكم في قرارنا .. أي التحكم في ردود أفعالنا بالتحكم في قراره هو. وبهذا تكون النتيجة في النهاية أن العدو هو الذي يُقرر لنا .. ومثل هذا واضح تمامًا في حرب ٦٧ فقد بدأت المسألة بصرخة استغاثة مشبوهة من الحكم السوري في ذلك الوقت أن إسرائيل تحشد قواها لاجتياح سوريا، ولأن رد الفعل كان مدروسًا فقد كان معروفًا للإسرائيليين أن رد الفعل الطبيعي لمصر أنها ستقول: لو حدث عدوان على سوريا فسوف تتصدى مصر للدفاع عنها. وهنا تصرخ صحف مشبوهة أخرى في بيروت وتقول: كيف يا عبد الناصر، يا من تزعم أنك زعيم القومية العربية تستطيع الدفاع عن

سوريا وأنت نفسك تستعمل القوات الدولية لتحميك من الإسرائيليين؟ فيكون رد الفعل الطبيعي — بعزة النفس المعروفة — أن يقول جمال عبد الناصر: لست في حاجة لهذه القوات للدفاع عنِّي، فلتنسحب هذه القوات. وبسرعة وبلا أي نقاشٍ، وكأن الأمر مؤامرة دولية، يصدر لقوات الأمم المتحدة الأمر الفوري بالانسحاب من سيناء، وبالذات من شرم الشيخ .. ورد الفعل معروف مقدمًا — كلعبة الشطرنج — ومدروس؛ فمعنى خلوِّ شرم الشيخ من القوات الدولية أن تتقدم القوات المصرية للحلول مكانها. خطوة مدروسة تمامًا، وحين يحدث هذا تنفجر ميكروفونات الدعاية الإسرائيلية والغربية في كل مكان: الحقوا .. عبد الناصر سيخنق إسرائيل. لقد أطبق على زمَّارة رقبتها من شرم الشيخ .. إسرائيل تختنق. ثلاثة ملايين إسرائيلي مهددون بالإبادة .. إلخ .. أليس في هذا أروع إعداد مسرحي على مستوى الرأي العام كله للوقوف بجانب دفاع إسرائيل عن نفسها؟ أي الحرب، أي ما حدث فعلًا، وهو قيام إسرائيل جهارًا نهارًا بحرب غادرةٍ حطمت فيها الجيش المصري تحت الشعار الذي يبدو عادلًا تمامًا ومنطقيًّا تمامًا، ومحل عطف العالم كله، ألا وهو: الدفاع عن شعب نقبض نحن على زمَّارة رقبته. كل هذه القرارات كانت مصرية فعلًا، ولكن لأنها ردود أفعال لقرارات من صنعهم هم، ومن صميم إرادتهم كانت في الحقيقة قرارات عدُوَّة ونحن لا ندري .. قرارات ليست مصرية ولا عربية، في الحقيقة تكاد تكون قرارات إسرائيلية مضمونًا ووظيفةً وعلةً. وليس من أجل المقارنة؛ وإنما نحن لا زلنا في منطقة القرار .. كان أحد الجوانب العظمى في حرب ٦ أكتوبر أنها، وإن كانت في عمومها رد فعل للاحتلال الإسرائيلي لسيناء، وإنهاء لحالة اللاسلم واللاحرب؛ إلا أن القرار هنا كان فعلًا قرارًا ولم يكن رد فعل .. ولهذا أربك ليس فقط إسرائيل، أربك إسرائيل ومن هم أكبر منها: أمريكا وروسيا وأوروبا وكل العالم، بحيث أصبحت قراراتهم هم مجرد ردود فعل.

والحكمة في هذا أن الذي ينتصر هو الذي يصنع القرار المنتصر.

لا ينتظر أن يَرِد له القرار جاهزًا. لا ينتظر الآخرين ليقرروا، يضع هو القرار، وإذا كنا اليوم في أزمةٍ، فالخروج منها ليس بانفتاح سحريٍّ دائمًا نتصوره كخزائن سليمان ستفتح لنا، وليست فقط بمعونةٍ عربيةٍ. وليس فقط بالقروض. إنما هذه أدوية مصنوعة خارجية تُساعد الجسم على مقاومة المرض. ولكن حتى المضادات الحيوية في أقصى أدوارها لا تشفي في حدِّ ذاتها، لا تشفي إلا جسدًا يُقاوم بنفسه أولًا. وبأدواته وأسلحتها التي أنتجتها معامله ونخاعه مهما بلغت من ضآلتها. وأولًا وأخيرًا بقراره. قرار ذلك الجسد أن يقاوم الأزمة.

وهذه تدخل حالتي وحالتك في الموضوع، فهو صحيح لا يمكن إلا أن يكون قرارًا جماعيًّا من صنع أمة ودولة وحكومة ورئيس وشعب، ولكن حتى هذا كله لا يصلح ما

لم يُتخذ القرار أولًا على مستوى الفرد، على مستواك وعلى مستواي. وليس في أمور كُبرى؛ كالانفتاح، أو مشروع القطارة، أو مجتمع الكفاية والعدل الذي نُريد صنعه، وإنما هو يبدأ، إذا بدأ، على أول وأسرع وأبسط مستوى في هذه اللحظة بالذات. لحظة انتهائك من قراءة الجريدة. ماذا سوف تفعل؟ ثق أنك مهما تكُن قد قررت أن تفعل فالفعل لا بد أن يكون له في النهاية هدف، والهدف لا بد أن يكون مرتبطًا بخطة، خطة يوم جمعتك هذا، وخطة هذا اليوم — لا بد، أردت أم لم تُرد — أن تكون مرتبطةً بخطة الأسبوع القادم كله، والشهر القادم، ولا بد في النهاية أن تكون مرتبطة أو متشابكة بخطة أخيك أو جارك أو رئيسك أو مرءوسك أو زبونك .. وكل الخطط — لا بد شئت أم أبيت — أن تكون مرتبطةً بقرار، ليس رد فعل فلم تفعل إلى الآن سوى ردود أفعال؛ إنما قرار، أي فعلٍ، تبدأ أنت أو أنا وتُحدد به بشكل قاطع ماذا تريد، وعلى الدنيا كلها بعد هذا أن تخضع أو لا تخضع لما تريد.

وفي المرة القادمة سأُحدثك عن مواطن مصري مثلي ومثلك أخذ قرارًا صحيحًا، لم يكن قرارًا عاديًّا، ولكنه قرار كأي قرارٍ، قرر أن يصبح أعظم جراح قلب في عالمنا المعاصر.

فكيف فعل؟ وهل وصل؟ وكيف وصل؟ وهل المسألة بهذه الاستحالة، أم أن الاستحالة الحقيقية التي اكتشفتها هي أولًا وأساسًا: أن تأخذ القرار؟

اقتحام الحياة

أحسست أني أمتُّ إلى الرجل بصلةٍ ما .. أتكون نداء الدم؟ هذا الهادئ، المريح تمامًا، المُذهب عنك — حتى قبل أن يفحصك — كل ما يقلقك في هذا العالم، مصري، وإن بدت مصريته في إطار أوسع بكثير حتى من خريطة منطقتنا .. إذن هذا هو مجدي يعقوب، الذي سمعت عن نبوغه وأنا في مصر، وأنا في أمريكا، وأنا هنا في لندن.

كنت قد شبعت طبًّا وأطباء، واستقرَّ رأيي تمامًا أن آخذ الأمر ببساطةٍ، فما دام ليس هناك خطر آجل أو عاجل على قلبي أو صحتي، وما دامت شرايين القلب كلها في حالةٍ حسدني عليها طبيب الأشعة العظيم ميسون سونز نفسه، وما دمت كما أنا، عائشًا، حيًّا، صاخبَ الحياة والضحكات كعادتي، فما الداعي إذن لإسلام رقبتي لعملية خطيرةٍ كعملية القلب، لا مسوغ لها الآن بالمرة .. وربما لن يكون لها — كما أكَّد لي جميع من قابلت من أطباء عالمين — داعٍ في المستقبل .. كان موعد عودتي إلى القاهرة قد تحدَّد، وحجزت، ولم يبق إلا شيء أخير أفعله، ذلك أني كنت وأنا في أمريكا قد أخذت موعدًا مع الدكتور مجدي يعقوب عن طريق سفيرنا الطبي في لندن صديقنا القديم الدكتور عبد الغفار خلَّاف، إن هو إلا رأي آخر أو أخير أُضيفه إلى حصيلتي من الآراء والتقارير، وسلامٌ عليكم سلام ورحمة الله.

ولكن — تقدرون فتضحك الأقدار — هذا صحيح.

فحصني مجدي يعقوب. فخور أنا به .. ذلك المصري النابغة الذي عرف ما يريد وعمل له، فأثناء دراسته، وهو في ثالثة طب، قدم لامتحان المرحلة الأولى في شهادة الزمالة في كلية الجراحين الملكية، ونجح فيها، وتلك، في الوسط الطبي والجامعي حادثة لا تقع كل يوم .. لم يقل لي كلمةً واحدة أو اشتكى من أحد، مع أني أعرف أنهم أفهموه منذ

اليوم الأول لمزاولته الجراحة في إحدى كلياتنا الكبرى أن لا أمل له في مستقبل جراحي في مصر، ورفضوا تعيينه مدرسًا. وجاء إلى لندن كما يجيء عشرات ومئات — والآن أصبحوا آلافَ — الأطباء المصريين للدراسة أو العمل. هجرة إرادية أو إرغامية، المهم أنه كان — دونًا عن هذه المئات من الأطباء — يُسرُّ في نفسه على أمرٍ .. أن يصبح جراح القلب الأول في هذا البلد الذي ليس بلده، بل أن يصبح جراح القلب الأول في عالم ليس من السهل، حتى على النابغة فيه أن يحصل على وظيفةٍ، أي وظيفة محترمة تدرُّ دخلًا طيبًا. وبدأ العمل في لندن، في عروقه تجري جرثومة الكدح الدءوب الأعظم، الذي ينحدر إلينا من سلالات بعرقها ونضالها أقامت للعالم القديم والجديد وإلى الآن أكبر وأضخم رمز للحياة والموت معًا .. الأهرامات، والمعابد، والتماثيل، التي لا تعبر عن القوة والفن فقط؛ ولكنها وبفصاحة تخرس الألسن وتعبر عن روح شعب إن استهبل أو استعبط أو تمسكن يومًا فإنه يملك داخله طاقةً لا نهاية لها، ورغبة في إثبات الوجود لا حدود لوصفها .. بهذا الدأب مضت أصابعه غير الرفيعة — كما تعودنا دائمًا أن نعرف بها الجراح — تعمل، الأربع والعشرين ساعة، تعمل الأسبوع بأكمله، والعام بأكمله، بلا كللٍ. بجهد، جهد معجز جبَّار استطاع أن ينتزع من دهاة الطب والعلم في العالم (الإنجليز) اعترافهم بنبوغه، حتى إنهم منحوه الجنسية الإنجليزية .. وأطلقوا عليه «مستر ياكوب»، وأصبح مستر ياكوب بإنجازاته في جراحة القلب، بعدد حالاته التي يعرضها في المؤتمرات، بالبناء الهائل المخيف الذي راح يبنيه صخرة فوقها صخرة وإصرار فوق إصرار، يتحدى، ويَقبل الحالات الميئوس منها، وبالساعات يُجاهد فيها وبجوارها حتى يُنقذها. تتحول الحالات التي يُجمع فيها على اللاأمل من خلال أصابعه إلى أمل وحياة جديدة يستنقذ بها إنسانًا آخر من موتٍ محقق. أصبح بهذا كله مفخرة للإنجليز، وصرنا نحن، نحن الذين رفضنا تعيينه مدرس جراحة بسيط نستقدمه كما نستقدم كبار الخبراء العالميين وتستضيفه جامعاتنا، نفس جامعاتنا التي أنكرته ناشئًا، تستقبله عظيمًا وكبيرًا وخبرة عالمية لا تُقدر.

فحصني وشاهد الفيلم السينمائي، وقال لي في النهاية مثلما قال كبار الأطباء الذين سبقوه: ليس هناك حاجة لعملية، وكما قالوا لك، فعلًا تستطيع الحياة كما تشاء، وربما لا يحدث لك بالمرة أي تعقيدات إلى نهاية العمر.

دون تحصيل حاصل آخر وأخير.

وارتديت ملابسي وغادرت المستشفى الأنيق الذي بناه الإنجليز خصيصًا لعلاج الأثرياء. وبالذات الأجانب، وبذات الذات العرب، حتى إن لافتاته مكتوبة بالإنجليزية والعربية.

ورحت في ليل لندن المبلل دائمًا إما بمطر سبق أو ذرات مطرٍ قادم. اللامع بالنور والضجات الصغيرة المبعثرة، رُحت أتمشَّى، وقد قررت أن أعود لفندقي سائرًا على القدمين .. أفكر. في ماذا؟ تلك هي المشكلة.

شيء ما كان يؤكد لي — رغم كل التقارير والآراء التي لا ذرة شك في صحتها وجديتها — أن في الموضوع ناحية غامضة لا تزال، ولكنها، هناك، رابضة وباستمرار تدق.

فُوجئت — بل ماذا أقول؟ أأقول: إني أبدًا لم أُفاجأ؟ بمكالمة تليفونية في اليوم التالي من الدكتور مجدي يعقوب، لم تكن هناك تقارير أو معلومات مؤجلة، وأقول: إنه طلبني ليقول لي رأيه فيها، ما الموضوع إذن؟ إنه يريد أن يراني في الغد — الأحد — العطلة المقدسة عند الغرب قاطبة.

– اسمع .. سأكون صريحًا معك ... لو كنت نوعًا آخر من البشر لاكتفيت مما قلته لك بالأمس، ولكني أكاد أعرفك وأجزم أنك لن تقبل الأمر أبدًا، لن تقبل أن يظل داخلك خلل ما، مهما بلغت تفاهته أو أهميته، سيظل القلق من هذا الشيء ألمًا يتأجج داخلك حتى يقضي هو، وليس المرض، عليك.

أية حكمةٍ أعطاها الله لهذا الإنسان حتى ينطق هكذا؟ ما كان داخلي ينوء بي وأحسه بعنفٍ وعمق؛ ولكن معناه وألفاظه لم تكن تطفو أبدًا إلى سطح عقلي لتتخذ شيئًا مبلورًا قابلًا للفهم هكذا.

وهنا، لا بد، وفوق آراء مجدي يعقوب في شخصي وشخصيتي، أن أقول كلمة عن نفسي، وأنا أكره تمامًا أن أتحدث عن نفسي، ولكن لأن أحدًا لم يفهم ما حدث إذا لم أتكلم فلا بد أن أقول: إني شخصيةٌ ليس من السهل فهمها .. ولكن هناك جانب منها أعلمه علم اليقين؛ ذلك أني أبدًا أبدًا لا أقبل المساومة أو النُّص نُّص، وبالذات حين يتعلق الأمر بصحتي أو بإنتاجي، إما الكل وإما لا شيء.

إما أن أكون أو لا أكون بالمرة .. حتى إن أمراضي كانت كلها سببها رغبتي الشديدة أن أظل سويًّا، وقد وضع مجدي يعقوب أصبعه بمهارة فائقة على «قلب» مشكلتي تمامًا، وفهمني تمامًا. ويا رب، ألهذا السبب طُفت العالم، لأني في نهاية المرحلة وعودتي مقررة في الغد، ويكون عليَّ أن أتخذ من جديد قرار العملية؟!

لكم كان يوم أحد قاسٍ حقًّا. أنا الذي أعرف في الطب وأصبحت ضليعًا في القلب بحكم ما حدث، قرأت كل ما كُتب، حتى ما لم يُنشر قرأته. أعرف تفاصيل التفاصيل، أُدرك

موطن الخطر في كل خطوةٍ من خطوات العملية، يتولى ذلك الحالم الفنان الغزير الخيال تضخيم الحقائق، حتى ليبدو الفأر مخيفًا في حجم الفيل، أنا .. ألهذا، أنا المحب إلى حد الوله للحياة، المقدر أضعافًا مضاعفة لقيمتها. القادر في نفس الوقت على أن يُقامر بها كلها من أجل ألَّا يخسر جزءًا ولو يسيرًا منها، بل ليس منها، ربما من أجل ألا يخسر أحدٌ آخر بعض حياته، أو على أمل أن أُضيف لها وللدنيا شيئًا ولو طفيفًا يجعلها أكثر عدلًا وأكثر احتمالًا .. أنا الوحيد في كل هذه المعمعة، فكل المعارك ممكن أن تأخذ رأي الآخرين فيها، وتغير رأيك من أجل رأي آخر أحسن .. ولكني هنا وحيد تمامًا، إذا عشت فأنا الذي سأعيش، وإذا متُّ فأنا وحدي ولا شيء آخر غيري سيموت. صحيح، قد يحدث حزن كُبُر أو صغُر، أسفٌ، خسارة، ألف خسارة، عزاء، أشياء أخرى كثيرة قد تحدث؛ ولكني أنا أكون قد انتهيت .. أنا ولا أحد غيري.

ما دامت المعركة معركة راكبٍ واحد، وسائق واحد، وقرار واحد، كله أنا، فلأكن وحدي تمامًا إذن، ولأرسل زوجتي — وقد اطمأنت تمامًا في رأيها على حالتي — ولأتخلف أنا بحجة قضاء يومين لمعرفة آخر التطورات المسرحية والأدبية في لندن، وأذهب معها إلى المطار، وأُقبِّلها قبلة الوداع إلى القاهرة، ولكنها أبدًا لم تلحظ أني، في جزء من الثانية كانت قبلة من أجل الوداع إلى الأبد.

مصيبتنا في مصر أننا نحب الحياة، ونحب لها أن تطول، ونحن أول من ابتكر للعالم وعَدَاه بفكرة الخلود والحياة الأخرى. تشبثًا بها بنينا المقابر، وغورنا بها في قلب الجبل، وزودناها حتى بالطعام والشراب، حتى نكون جاهزين للحياة الأخرى المؤكدة، التي لا بد سنعود — وكما كنا تمامًا — إليها. كان المصريون القدماء مؤمنين إلى حدِّ اليقين المطلق أننا عائدون، وأن الموت لا يمكن أن يكون نهايتنا، ولو كانوا قد وضعوا احتمالًا ولو واحدًا في المليون أن الموت هو النهاية تمامًا ربما غيَّروا وجه تاريخهم، وبالتالي وجه تاريخ العالم. نحن هكذا ومن قديم الأزل تسبح في دمائنا عقيدة أن الموت — لأنه مروعٌ، ومخيفٌ، وغير محتمل فكرة تصديقه بالمرة — لا يجب أبدًا أن يكون النهاية. ربما الجنس البشري كله هكذا؛ ولكنها فينا مضاعفة آلاف المرَّات.

ولكن هذه العقيدة نفسها بقدر ما أراحتنا سيكولوجيًّا بقدر — في رأيي — ما قتلتنا عمليًّا، طول العمر والرغبة في تطويله إلى آخر المدى، التمسك بالحياة، أي حياةٍ، ولو حياة العبيد حتى، خيرٌ ألف مرة من فكرة النهاية النهائية بالموت. موضوع أترك للأنثروبولوجيين

خوضه وتفنيده، فلم أكن في ذلك اليوم «أتفرج» على مصر وشعب مصر وعادات المصريين وتركيباتهم النفسية. كنت مصريًّا يواجه فكرة أن يموت أو لا يموت. مرعوبًا رعب الأول من الموت. خائفًا من فقدان الحياة خوفًا لا مثيل له؛ لأنه خوفٌ أوحد ليس مثله أي خوفٍ آخر. عائدًا من المطار في الأتوبيس ذي الدورين الأحمر، جالسًا في الدور الأعلى أُدخِّن، وأحس براحة عميقةٍ تجعلني شديد الضعف من نفسي. ذلك أني كنت قد اتخذت القرار. أن أعمل العملية وأخلص. ولكن المهم ليس العملية. المهم في كلمة «أخلص» هذه. فهو لم يكن قرارًا بإجراء عملية جراحية هدفها الشفاء النهائي إلى آخره، كان القرار في حقيقته، وكما كنت أراه، قرارًا بالموت.

تصوروا .. رجل بكامل قواه العقلية وبمطلق إرادته يأخذ قرارَ أن يموت، هو ليس قرارَ مَروُوش ضاقت الحياة في عينيه فقرر أن ينتحر. لا، لم يكن قرار انتحار، ولكن كان قرارَ أنه لكي أعيش كما أريد، وإذا كان عليَّ أن أفعل لأحصل على هذا أن أمرَّ في نفق الموت، فسأمُر، قد أخرج من النفق سليمًا؛ ولكن ليس هذا هو المهم، المهم أنك قررت أن تدخل النفق، قرار أساسه الأول أنك لن تخرج منه، مثل قرارك وقد حاصرك الأعداء فوق سطح العمارة أن تقفز من العمارة عبر الشارع لعمارة أخرى، وهو أمرٌ يبدو للمشاهد من الخارج أنه شبه مستحيل، وأن تلك القفزة شيء لا يمكن أن يُقدم عليه عاقل .. فما بالك ولم يكن هناك أي أعداء يُحاصرونني، ولم أكن مضطرًّا أبدًا للقفزة؟ لو عرف الواقف في الشارع هذا لخبط كفًّا بكفٍّ وأقسم أنه إنما يُشاهد شخصًا خارجًا لتوه من سراية المجانين.

ولكن. هذا هو بالضبط، ما يُميتنا أحياء أيها الأعزاء المصريون، هذا العقل الشديد الذي نأخذ به الأشياء وننظر به إلى الأشياء هو الذي يُخيفنا من الأشياء فيجعلنا لا نفعل شيئًا بالمرة، لأن كل فعل، أي فعل، يحمل في طيَّاته بالضرورة نسبة من المغامرة، والتعقل الشديد ضد أي مغامرةٍ؛ ولهذا، ولكوننا متعقِّلين أشدَّاء لا نُقدم على أي فعلٍ — أو بالأصح هذه هي القاعدة — لا نقدم على الفعل إلا مضطرين ومكروبين ومهمومين، وبانسحاق شديد، ولا بد أن يكون هربًا من احتمالٍ آخر أكثر مغامرة وأكثر بالتالي خطورة.

إن الخوف الشديد من الموت يستتبعه بالضرورة خوفٌ شديد من الحياة، وحرص شديد على ألا نموت، هذا الحرص الشديد يستتبعه بالضرورة تجنب أي نسبةٍ من المغامرة، أو بمعنى أكثر وضوحًا أي نسبة من الفعل، ولهذا نحن نُفضل الفرجة على من «يفعلون» وكأننا نستعيض بهذه الفرجة عن الفعل نفسه. والنتيجة أننا نحرم أنفسنا من أعظم

اللذائذ جميعًا: لذة الفعل؛ لأنها لذة الحياة الحقيقية، ونُوهم أنفسنا أن لذة الفرجة أسلم وأضمن. نحن بهذا نفعل تمامًا كما لو كانت الحياة حكومة، وكما لو كنا نحن الأحياء موظفين لديها ونخاف أن نُفصل منها، والنتيجة أن نركع تمامًا لها، ونكف تمامًا — كأي موظفين مثاليين — عن أي حركةٍ؛ مخافة أن نخرج على قوانين التوظف ونرقد. نحن موظفون لدى الحياة، وبالتالي لدى الأحياء في الدنيا قاطبة؛ ولكننا — وصدقوني — لسنا أحياء بالمرة، وليست هذه حياة. فالحي لم يخلق ليتفرج على الحياة .. لقد خلقه الله وسوَّاه ليحياها، أتعرفون، معنى أن يحياها؟ أبسط المعنى ألا يخاف منها، وهذا معناه — واسمعوا من فضلكم — ألا نخاف الموت؛ لأننا من فرط خوفنا من الموت نحيا في موت أو نموت حياة .. لا أعني بهذا أن نستهتر بأعمارنا ونروح نبعزقها هنا وهناك؛ ولكن ما أعنيه بالضبط هو أننا — لكي نكون بني آدميين بحق وحقيق — يجب أن نحيا، وأن نحيا معناه أن نفعل، وأن نفعل معناه أن نُريد، وأن نُريد معناه أن نختار، وأن نختار معناه أن نقرر، لا بد وحتمًا سيكون في القرار — أي قرار — قدرٌ من المخاطرة، ولكن تجنب القرارات خوفًا من المخاطرة سيؤدي بنا حتمًا إلى تجنب الحياة كلها. تجنب روح الحياة وقلبها ونبضها والإحساس الحقيقي بها. نحن جميعًا — وبالذات الآن — نُعاني من اكتئاب موجع يأخذه كل منا مأخذًا شخصيًّا محضًا ويعتقد أن سببه الفلوس والأولاد والمواصلات ... إلخ .. ولكن اكتئابنا الجماعي سببه الحقيقي أننا توقفنا أن نحيا؛ لأننا توقفنا أن نفعل؛ لأننا توقفنا أن نُقرر، والغريب أن هذا الاكتئاب والتوقف يؤدي بنا في النهاية إلى عمليات «انتحارية»، أو انبثاقات بركانية، غضبة عصبية، لا علاقة لها بالغضب الحي الجميل، أو الرضاء الحقيقي، أو الإحساس بالاكتفاء نتيجة تحقيق الذات عن طريق تحقيق الإرادة. أرِد ما تريد، وعلى مهلٍ شديد قرر، ولكن لا بد في النهاية أن تُقرر، وحتمًا لا بد أن يستحيل قرارك إلى فعل، وحينذاك فقط تذوق لذة الحياة.

حتى لو كان ذلك القرار قرارًا بالموت، أو يحمل في طيَّاته خطر الموت الأكبر، فالموت هنا سيعني دون أن تدري الحياة بأرحب وأعمق وأحب صورها؛ لأنه سيكون قرارًا عظيمًا، أخذه إنسان حيٌّ عظيم وتحمَّل مخاطرته العظيمة، وما أحلى طعم الحياة بعده.

جمعت ملابس قليلة جدًّا في حقيبتي بينما تركت معظم أشيائي باسم زوجتي — في حالة حدوث شيء — بأمانات البالاس كورت، وودَّعت «رضا»، ذلك الشاب المصري النبيل الذي يعمل مديرًا للفندق، وقلت لشوارع لندن وتاكسيَّاتها التي تُشبه عربات موتى سوداء

مقطومة، وقلت للدنيا: وأيه يعني؟ باي باي. موتًا فلنمت .. الموت قادمٌ قادم .. أردت أم لم أرد، فإذا كنت قد أخذته أنا وبإرادتي، وكنفق رهيبٍ محتم أن أنفذ منه إلى الحياة الحقة إن نفذت. فبإرادتي أنا آخذ القرار فإذا متُّ فعلى الأقل سيكون لي شرف أنِّي أنا الذي واجهت الموت ولم أظل خائفًا منه حتى يطعنني غيلة. الحياة للشجاع وللشجاعة، والجبن هو الموت وإن تنكر في كافة الأشكال. لقد أخذتَ الدنيا بيدك، واغتصبتَ وجودك من براثن المستحيلات. والدنيا هكذا، كالحب، كالحرب، حتى كالنكتة، لا تُؤخذ إلا اقتحامًا.

ولأول مرة أحسُّ في حياتي أني أصبحت حرًّا، وأني أستحق الحرية فعلًا، وأنني أصبحت نبيلًا، وأني أستحق هذا النبل، وأني — لأول مرة في حياتي — أحسُّ أني إنسان فعلًا، وأني فخورٌ بأني إنسان .. فخور بأني أمتُّ إلى الخالق الأعلى. فخور أني أبو أولادي وزوج زوجتي. فخور أني مصريٌّ وشرقاوي وابن بلدي. فخور أني أنا، ذلك الشعور الذي لم يراودني في حياتي مطلقًا.

– وإلى مستشفى هارلي كلينيك يا مستر.

– ستذهب وتعود يا سيدي؟

– لا يا سيدي، ذهاب فقط!

والمفاجأة المذهلة أن أصابع مجدي يعقوب الذهبية كانت ساحرةً كما يقول الإنجليز فعلًا، وأني بعد يومين بالضبط كنت أصعد سلالم المستشفى وأهبط بأوامر من ممرضتي الحسناء، أتحسس الشاش المعقم وأسأل زوجتي: أحقيقة أجروا العملية؟ .. وتؤكد ودموع الفرح تلمع في عينيها، وتروي لي ساعات انتظارها، وفرحتها بوجه مجدي يعقوب وهو خارج من غرفة العمليات وبنعومة بالغة وبلا فرحة أو انفعال شديد يقول لها: الحمد لله. كله تمام.

الله .. أعبدك!

مجدي يعقوب .. أشكرك!

يوسف إدريس .. أحييك!

باريس ٧٦

السادسة والنصف، وباريس وبوليفار سان ميشيل. ماذا أيقظتني في الخامسة بعد نوم ساعتين فقط .. أهي الحُمى الباريسية التي تجتاحني كلما هبطت هذه المدينة؟ كان حظِّي معها سيئًا دائمًا .. أول مرة كانت ثورة الجزائر وعلاقتنا المتوترة بفرنسا. ما إن رأوا في المطار — مطار لا بورجيه — جوازَ سفري المصري حتى وُوجِهتُ بالوجه الصارم لباريس — بوليسها الفرنسي — وبأتوبيس يحملني قسرًا من المطار الجنوبي إلى المطار الشمالي لأُوضَع في الطائرة المتجهة لبيروت. المرة الثانية لم يصرحوا لي إلا بأربع وعشرين ساعة، قضيتها كلها بلا لحظة نوم. هذه المرة أحببت أن أراها بلا مكياج .. لترى أي مدينة على حقيقتها العارية استيقظ في الخامسة وطُف بشوارعها .. لم أكن أتصور أن شوارع باريس تحمل كل هذه الكمية من الزبالة والقذارة وبقايا الليل. هذه ثالث عاصمة عالمية أزورها في رحلتي تلك، وكلها بلا استثناء قد بدأت القذارة تزحف إلى شوارعها، تكاد في بعض أجزائها أن تقترب اقترابًا مخيفًا من قذارة شوارع القاهرة. كأن عالَم مطلع القرن النظيف المثالي قد اختفى .. الصراع الرهيب الدائر بين الإنسان والنظام في كل مكان جعل اليأس يدبُّ في القلوب على هيئة إهمال؛ سواء في النظافة الشخصية أو النظافة العامة. الإنسان المهموم قذارة. عمال النظافة يكنسون باريس. عمال معظمهم من عرب الشمال الأفريقي .. كثيرون هم هنا كثيرون. يُنظفون باريس، ويحاولون تجميلها، ومع هذا فهم مكروهون من الفرنسيين. كلمة عربي هنا لها وقعٌ آخر غير وقعها في لندن أو نيويورك. فالعرب هنا هم البروليتاريا اليدوية التي يُعهد إليها بأشق الأعمال. حين تُوفي جمال عبد الناصر صنع له العمال العرب جنازة في نفس الوقت الذي خرجت فيه جنازته من القاهرة روَّعت الحكومة الفرنسية في ذلك؛ إذ شُلَّت الحياة تمامًا في باريس، حتى إنها أنشأت بعد هذا قسمًا خاصًّا في وزارة الداخلية للعمال العرب.

مشيت في بوليفار سان ميشيل، قلب الحي اللاتيني، حي الجامعات والطلبة، والبوهيميين والكوشار، ومقصد السياح. ربما كراهية الفرنسيين للأغراب سببها كثرة السياح. «واسألنا نحن!» وأكثر الأحياء ازدحامًا بالسياح هو الحي اللاتيني .. فرجة باريس، ربما لهذا فضَّلت أن أرى باريس بلا سياح، في الصباح الباكر .. أرى الباريسيين يخرجون إلى العمل. لا ألمح ابتسامة على وجه أحد .. جادون وجادات، مسرعون ومسرعات، والساعة تقترب من السابعة .. غريب هذا. المدينة التي تصدِّر إلى العالم كله أدوات المكياج والتجميل نادرًا ما تضع نساؤها المساحيق. بلا مساحيق، أرى باريس تستيقظ لتوِّها من النوم، لم تغسل وجهها بعد، ولكن الوجوه نظيفة، والقوامات رشيقة. حتى الكبار ومتوسطو العمر ليس فيهم سمين أو مجَعْلَص أو تخينة أو تخين.

فجأة وجدتني وجهًا لوجه أمام باريس أخرى، مختلفة تمامًا عن تلك التي لخَّصها رفاعة رافع الطهطاوي، أو انفعل بفنها وبفكرها توفيق الحكيم، وبرقصها على البارود أحمد الصاوي محمد. باريس بلا هالة من جمال ونور. باريس التي تكدح وتعيش. باريس التي تخلصت من كل علامات البرجوازية في المأكل والمشرب والملبس. أكاد لا أعرف الفقير من الغني، والعاملة من صاحبة المتجر. كلهن تقريبًا بالبنطلونات البلوجينز، وكأنما كلما كان البنطلون قديمًا كان أشْيَك، تخلصوا من عقدة الأثواب والوجاهة مثلما فعل الصينيون في الشرق البعيد، ليس بناء على توجيهات حزبٍ وإنما — فيما أعتقد — بناء على اندثار التقاليد البرجوازية القديمة؛ من تنابز بالأزياء، وتصنُّع في تسريحات الشعر ومكياج الوجوه. كأنما أصبح الهدف أن الأجمل هو الأكثر أصالة. والأصالة أن تكون شكلك أنت لا شكلك المصنوع. وأن ترتدي ما يُريحك، أو ما يدفئك، أو ما يُبرد جسدك لا ما تتيه به على الآخرين، والطعام أصبح هو المغذي فقط وليس الشهي، لم تعد الموائد العامرة هي المقياس، ولا اللذة في الطعام هي الهدف. الهدف — لا بد — متعة أرقى من الزي وأرقى من حشو المعدة. الهدف — لا بد — إمتاع العقل والقلب.

كانت الشوارع لا تزال شبه خالية ولهذا كانت تبدو لي مزدحمةً بالإعلانات والملصقات، لم أر عاصمة في العالم فيها كل هذا الكم من الملصقات، والغريب أنها كلها إما عن مسرحيات، أو معارض فنية، أو حفلات موسيقية. حتى رمسيسنا الكبير تحتل الإعلانات عنه — في المقاهي والمطاعم — مكانًا بارزًا. المتعة هنا هي الاستمتاع بالجمال الأرقى .. وليس أجمل ولا أرقى من الفن في كافة أشكاله وصوره. هذه هي مدينة فنانة، أو مدينة فنانين. خُيِّل لي وأنا موزع البصر على الأفيشات، أن نصف سكان هذه المدينة على الأقل

فنانون وفنانات. هذه مدينة التعبير عن النفس. المتعة الحقة أن يُعبِّر الإنسان عن غايته، حبًّا أو فنًّا أو شذوذًا إذا أراد. لا بد أن هذا هو السبب في الصوت العالي الذي يتكلم به الباريسيون والباريسيات. هذه مدينة لا همس فيها .. رأيك تقوله واضحًا وصريحًا ودون خجل وبصوت عالٍ. فرأيك هو أنت. وما دمت لا تخجل من نفسك لأنك أنت .. وسعيد بأنك أنت فلتفخر بذاتك وبرأيك وبذوقك وبشخصيتك وبتفردك. الناس هنا لا يتقولون على بعضهم البعض؛ لأنهم يقولون لبعضهم البعض، وفي مواجهة بعضهم البعض. أتكون هي الثورة الفرنسية؟ قال فيها الشعب الفرنسي ومنذ مائتي عام رأيه الجماعي في الملكية والاستبداد والتفرقة. وكانت النتيجة أنه بعد أن تحرر جماعيًّا، بدأ يتحرر فرديًّا، ووصل التحرر الفردي إلى حدِّ الاعتداد الكامل بالذات والرأي ووجهة النظر، حتى عاملة التليفون في الفندق، لا تقول لك: نعم يا سيدي. إنها تقول، وبلا همس: إني أسمع. عجيب هذا؛ بينما الإنجليزية مليئة بكلمة «يا سيدي»؛ فأنت لا تسمع في الفرنسية إلا كلمة: يا سيد. وكل الناس سيد. مصيبة. إني أسمع. لم أستطع هضمها في أول الأمر، ولكنِّي حين لم أجد علامة واحدة من علامات النفاق في هذا المجتمع بدأت أدرك. يا لها من كلمة نقولها منافقين: سيدي .. مع أننا جميعًا ندرك ونعلم أنه لا أحد سيد أحد. ولأن الفرنسيين كانوا السابقين، فقد حذفوها من اللغة. ولا أعرف في الفرنسية ما يقابل في الإنجليزية كلمات: سيدي .. ماي لورد، وماي ليدي ... إلخ. كل هذه الكلمات الكبيرة المنافقة التي تُقال تأدبًا. ولماذا لا يكون التأدب هو المصارحة والإحساس بالمساواة الكاملة. هنا حقيقة تلمح شعارات الثورة الفرنسية وقد أصبحت واقعًا ملموسًا ومقدَّسًا. هنا تفهم لماذا أصبح الشارع الفرنسي الآن يكاد يكون كله يسارًا محضًا .. فكلمة اليسار نفسها اخترعتها فرنسا، ومنها عمَّت العالم. وفي بوليفار سان ميشيل نفسه والساعة قد بدأت تُشرف على الثامنة أرى المعركة بعيني قائمةً على قدمٍ وساق بين قلاع اليمين الأخيرة وزحف اليسار. ولكنها في رأيي تكاد تكون معركة ممتعة. فها هي صورة ماركس بلحيته الشهيرة؛ ولكنه بوجه ضاحكٍ كالجد السعيد؛ بل إن يده مرسومةٌ في الصورة على شكل إشارة «الهيتش هايك» تدعو الشباب إلى مهرجان سياسي موسيقي راقص يُقيمه الحزب الشيوعي. وأحسن مجلة أطفال تصدر في فرنسا تصدر عن الحزب الشيوعي. وهي مجلة ممتعة حقًّا، فليس فيها أي دعايةٍ رخيصة، ومادتها رائعة إلى الحدِّ الذي يُرغم أطفال «اليمين» أهلهم على شرائها لهم. معركة راقية متحضرة حقًّا، حتى إن اليمين لا يقول عن نفسه أبدًا: إنه يمين، ولا يقاوم الشيوعية بتلفيقه تُهم الإلحاد والعمالة للاتحاد السوفييتي، وكل هذه الوسائل الفجَّة التي تُستعمل

في عالمنا الغريب الثالث. إنما هي معركةٌ أساسها الحرية. فاليمين يحاول أن يجتذب الناس عن طريق إفهامهم أنه الحريص أكثر على الحرية، بينما اليسار وصل في حرصه على الحرية إلى حدِّ تنازل الحزب الشيوعي الفرنسي عن واحد من أهم أركان الحركة الشيوعية وهي فكرة دِكتاتورية البروليتاريا. إن كلمة الدكتاتورية هذه تُعادل الموت هنا أو الطاعون، فالحرية للباريسي والباريسية أهم من أي مبدأ أو دين، بل هي تكاد تصبح هنا دينًا، دين العصر، إنهم هنا يحاولون حتى الانعتاق من عبودية العمل. يومان إجازة في الأسبوع وعلى الريف فورًا؛ فالمدينة حتى لو كانت باريس عبودية أيضًا، والريف هو الحرية. هو الهواء والخضرة والانطلاق.

والحرية هنا ليست معادلًا للفوضى، فأنت حرٌّ بقدر ما الآخرون أحرار .. والأطفال جمال. وأجمل ما فيهم أن كثيرين يذهبون منهم إلى المدرسة في سن الخامسة أو السادسة بمفردهم، ولم أر عساكر — أو بالأصح عسكريات — المرور في باريس إلا بين السابعة والثامنة والنصف، فقط عند التقاطعات لعبور التلاميذ الصغار. بعدها تركب العسكرية موتوسيكلها الصغير الأنيق وتذهب لتعود في المساء حين يعود الأطفال. كدت أروع وأنا أُشاهدهم صغارًا جدًّا، سائرين بمفردهم، ولكنهم مسئولون. من فرط ما أُرضعوا مسئولية المحافظة على أنفسهم .. لم أُشاهد أحدهم يجنُّ ويندفع إلى الشارع، فقط عند الإشارة، وفقط حين تقف العربات بيد العسكرية المرفوعة.

في الضحى تمتلئ الشوارع بربَّات البيوت والعواجيز .. وأستغرب لهذا العدد من العواجيز الأصحاء تمامًا في هذه المدينة، لكأنهم وحدهم ملايين. كل ربة بيت وكل عجوزٍ، يتسوق خبزه وطعامه، وفي يد كل منهم رغيف فرنسي في طول نبوت الغفير، أقف عند الجزار .. أقرأ أسعار اللحوم .. يُذهلني أن سعر الكيلو مائة وخمسون قرشًا. أرخص من القاهرة، في حين أن متوسط الأجور يكاد يُعادل عشرة أمثال الأجور في القاهرة. ولا أحد يشتري كيلوًا، إن اللحم هنا يُباع بالحتة والقطعة، ويكفي لكل شخص في اليوم الواحد قطعة .. بخلًا؟! سمِّه ما شئت، لماذا لا تُسمِّيه تدبيرًا؟ لماذا لا تقول: إنه شبع؟ فليس مثل الجوعان حبًّا في الطعام ونهمًا لالتهامه. غريبة هي هذه المدينة .. مدينة الفرد الأعظم .. أنا قادمٌ من نيويورك حيث العمارات هائلة الضخامة، والمؤسسات الحوتية الرهيبة، والسوبر ماركت في حجم الحي الكامل، هذه مدينة البوتيكات والدكاكين الصغيرة .. الصغيرة .. جزار، بقَّال، دكانة ملابس، مطعم، قهوة ... وهكذا .. عشرات ومئات وآلاف، مثلما يحفل بهم شارع

فيكتور هوجو يحفل بهم شارع بلزاك. جميل جدًّا هذا. لا يوجد اسم ملك أو حاكم على شارع .. حتى بونابرت بجلالة قدره مطلق اسمه على شارع غير مهمٍ أبدًا؛ بينما اسم فولتير يأخذ شارع نهر السين كله. مدينة ملوكها الشعراء والكُتاب والفنانون. أخيب الملوك سطوةً ولكن أعظمهم خلودًا.

هل يوجد عندنا شارع باسم لطفي المنفلوطي أو ميخائيل رومان؟

باريس الواحدة صباحًا .. لم أنم .. قضيت اليوم كله سائرًا على أقدامي. وها هو الليل يُوغل في تقدمه ولا أشعر بذرة تعبٍ واحدة. الأصدقاء المصريون معي نضرب في ليل باريس. بقدر ما أحببت باريس النهار ها أنا ذا أقف في شبه انزعاجٍ أمام باريس الليل .. الازدحام رهيبٌ وكأنه مولد الحسين في قلب باريس .. الصعاليك أشد صعلكة من مجاذيب الحسين .. غانيات باريس علنًا هكذا، وبالبنطلون القصير، الساخن وكثيرات ومنتشرات، ولهن مناطق نفوذ ويكدن يكن بلا زبائن .. يُخيل لي أن وزارة السياحة الفرنسية تدفع لهن أجرًا؛ فمشهدهن سياحي أكثر منه مشهد «عمل». المضحك أنهن واضحات جدًّا وصريحات جدًّا وبلا نفاق. مهنة يقمن بها في وضح الليل. بل أعجب إضراب هو ما قمن به منذ شهور واحتللن الكنائس لتخلصهن الحكومة من سطوة الفتوات، وظهرت بعضهن على شاشة التليفزيون يشرحن قضيتهن العادلة. إنه فعلا مجتمع يكره التخفي والنفاق. مجتمع الشجاعة حتى في بيع الجسد. إن أي عاصمة في العالم فيها أكثر من هذا العدد بكثير من نساء المهنة، ولكن الفرق أن باريس لا تتخفى ولا تتنكر، الفرق أن باريس تلميذاتها لا يوردن للشقق، ولكنهن يحببن علنًا ويجلسن على المقاهي ويدخنَّ علنًا .. الفرق أن نساء المهنة في باريس معروفات وعددهن معروف .. أما الأدهى فهو أن يكون كل شيء محظورًا في العلن ويباح في السر وبجبنٍ شديدٍ.

الفرق أن لا أحد هنا يُقيم من نفسه وصيًّا على الآخرين، ويخاف منه الآخرون. والنتيجة ظلام النفاق، وما أبشع ما يدور في ظلام النفاق!

باريس الخامسة صباحًا .. بعدُ لم أنم .. فمنذ الثانية وعقلي يُفكر في القاهرة.

أمريكا ٧٦

قالت لي السيدة الطيبة قنصل الولايات المتحدة بالسفارة الأمريكية: إني آسفة جدًّا، ولكننا لن نستطيع أن نُعطيك فيزا الدخول إلى بلادنا إلا بعد استئذان واشنطن.

وسألتها بحيرةٍ: هل تستأذنون واشنطن في كل فيزا تعطونها؟

فقالت: لا .. ولكنك لسوء الحظ في القائمة السوداء، ولا بد أن نستأذن واشنطن لاستثنائك هذه المرة فقط من القائمة؛ بل إني آسفةٌ أيضًا إذا أقول لك إنك في كل مرة ستطلب فيها فيزا للولايات المتحدة سيكون علينا أن نستأذن واشنطن.

قلت: سيدتي .. ولكنني كنت في أمريكا منذ أربعة أشهر، وأعطيتموني فيزا في الحال ودون استئذان واشنطن. فماذا حدث؟

نظرت لي من فوق حافة منظارها الطبي وقالت: لقد مُنحت الفيزا خطأً في المرة السابقة. أخطأ الموظف المسئول؛ فقد كان المفروض أن لا يمنحك الفيزا إلا بعد استئذان واشنطن.

قلت: ولكنني غير ذاهبٍ من تلقاء نفسي .. أنا مدعو لمؤتمر عن الأدب العربي تُقيمه جامعة برنستون ونادي القلم الدولي في نيويورك والدعوة مرفقة بطلب الفيزا!

قالت: هذا صحيحٌ، ولكن الإجراءات هي الإجراءات، وأنت تعرف طبعًا ما هي الإجراءات.

عنَّ لي أن أُحاورها فقلت: هل ممكن أن أعرف لماذا أنا في قائمتكم السوداء؟

نظرت لي نظرةً شبه ماكرة شبه مُتخابثة هذه المرة وفتحت ملفًّا ضخمًا أمامها وقالت ...

قالت كلامًا كثيرًا جدًّا: في سنة كذا حضرت مؤتمر كذا، وكتبت كذا وقلت كذا وكذا .. سجل دقيق حافلٌ وكأنْ لم يكن هناك عمل للقسم القنصلي الأمريكي إلا رصد تحركاتي

وسكناتي وكتاباتي الشخصية. ثم راحت تنصحني أن أحاول رفع اسمي من القائمة السوداء.

– وكيف يُرفع يا سيدتي العزيزة؟

– بأن تُثبت حسن نواياك وموقفك لمدة خمس سنوات متصلة، ليس فقط تجاه الولايات المتحدة، ولكن تجاه أي حكومةٍ أو نظام حكم في العالم!! وكدت أضحك وأنا أسمع السيدة الطيبة وهي تذكر لي شروط «الولد الطيب» في عُرْف الإجراءات القنصلية الأمريكية. كدت أضحك لأن هذه هي مأساة الولايات المتحدة، شديدة الديمقراطية بالنسبة لرعاياها، شديدة التوجس والدكتاتورية بالنسبة للآخرين. إجراءات تعتبر أن كل ثوريٍّ في العالم هو بالضرورة عدوٌّ للأمن الأمريكي، كل متحرر، كل مناهض، كل من يجرؤ أن يكتب أو يقول أو يفعل هو بالضرورة عدوٌّ للولايات المتحدة. وهل من المستغرب بعد هذا أن يعتبر كل هؤلاء الولايات المتحدة ضدهم. إن المرحوم دالاس قد مات؛ ولكن الدالاسية لا تزال موجودةً، أو على الأقل هكذا بدت لي وأنا أحاور السيدة القنصلية وأختم حديثي معها بقولي: إذا كانت هذه هي إجراءات الدخول للجنة نفسها فأنا أُفضل الجحيم الذي أحتفظ فيه بحقِّي أن أقول ما أريد قوله، وأحضر ما أريد حضوره، وأُهاجم أو أشيد بما أريد مهاجمته أو الإشادة به.

وصرفت نظرًا عن الندوة وعن السفر.

ولكن السفارة دقَّت لي تليفونًا في اليوم التالي بأن الفيزا جاهزةٌ.

وهكذا سافرت مرة أخرى إلى نيويورك، وحسن أني قُرصت هذه المرَّة قبل أن أذهب، فقد كان انطباعي عن زيارتي الأولى — تلك التي زُرت فيها المعاهد والمستشفيات والجامعات — انطباعًا مبالغًا في تفاؤله؛ ذلك أنِّي وجدت أمامي أمريكا أخرى غير التي رأيتها عام ١٩٦٦م حين زرتها بدعوة من جامعة شيكاغو لأول مرة.

في ذلك الوقت، أقولها بصراحة: لم أر أمريكا الواقع، ولكني رأيت ما كنت أتخيله أنا عن أمريكا. كانت أزمتنا كوطن في ذلك الوقت بلغت القمة مع الولايات المتحدة. لقد بدأت الثورة المصرية بعين من الرضا من أمريكا .. الرضا عن خروج الإنجليز من مصر وخروج الفرنسيين من الشمال العربي الأفريقي، خروج الاستعمار القديم. وكان طبيعيًّا أن تبدأ الأمور تتأزم حين بدأت معظم دول العالم الثالث التي استقلَّت — وعلى رأسها مصر — ترفض أن تحل الولايات المتحدة محل الاستعمار القديم لملء ما يُسمَّى في ذلك

الوقت بالفراغ ومشروع أيزنهاور لملء الفراغ، وكان الصدام محتمًا، ولكنه في الحقيقة كان صدامًا فوقيًّا، بين مصر الثورة الدولة والدولة الأمريكية. ولكنه انعكس على الشعبين وبمثلما كان الأمريكان يرون في كل مصريٍّ عبدَ الناصر آخر عدوًّا لهم، فقد كنا نحن أيضًا نرى في كل أمريكي مندوبًا للمخابرات المركزية الأمريكية حتى يُثبت العكس، وأحيانًا دون أن يُثبت العكس. وهكذا، وفي حالة توجُّس تام ذهبت لأمريكا عام ١٩٦٦م، رأيت قارة غنية تمامًا، جديدة تمامًا، كل شيء فيها مُيسَّر وبسيط، ولكنني كنت أحسُّ في كل فرد أراه الدولة التي تُعادينا، والنظام الاقتصادي الرهيب الذي يدعم الدولة ويهدد بالسيطرة على العالم كله. ولم أكن مُجحفًا في وجهة نظري تلك. فالتاريخ الحديث لأمريكا ينقسم قسمين في رأيي:

قسم يبدأ من الحرب العالمية الثانية وينتهي بحرب فيتنام، وقسمٌ آخر جديد تمامًا يبدأ منذ انتهت حرب فيتنام بهزيمة ساحقة لطريقة القوة القاهرة التي حاول بها النظام الأمريكي أن يفرض طريقته على دول العالم الثالث، ومن ثَم يفرضها على المعسكر الاشتراكي نفسه، وبهذا تتم له السيطرة العالمية الكاملة. كانت فيتنام درسًا كبيرًا حول مجرى السياسة الأمريكية تمامًا، ثم كانت حرب ٧٣ المجيدة درسًا، آخر فبمثل ما أوجدت حرب فيتنام جنوب شرق آسيا وحقَّه الكامل في استقلاله وحريته، أوجدت حرب ٧٣ العرب وحقَّهم الكامل في الاستقلال والسيادة. أنا لا أتحدث هنا عن الالتفاف حول نتائج الحرب ومحاولة تمييعها، فالحرب في حدِّ ذاتها كانت عملًا من أمجد أعمال تاريخنا الحديث كله، بها وُجِدنا، وكان مفروضًا أن بها — وبغيرها لو احتاج الأمر — أن نستمر، ولكن تصوروا هذه الحرب المجيدة بيننا وبين أعدائنا الحقيقيين تنتهي إلى حرب قذرة قذرة في لبنان داخل صفوفنا نحن، وكأنها الطعنات يوجِّهها الإنسان ضد عدوه ودفاعًا عن نفسه .. تنتهي بأن يوجهها الإنسان لنفسه هو، ولصدره، ولينتحر.

في المرة السابقة وهذه المرة أُتيح لي أن أُشاهد أمريكا أخرى، أمريكا الشعب والشارع، أمريكا الثقافة والصحافة والفكر. ويا له من تغير!

مشيت في شوارع نيويورك أنا وصديقي الشاعر العراق اليساري الكبير عبد الوهاب البياتي نتحدث في هذا. سنين طويلة قضيناها نتحدث عن أمريكا وكأنها كتلة صمَّاء لا تستطيع أن تُفرق فيها بين الشعب والدولة، ولا بين النظام ورجل الشارع، كله أمريكاني وكله استعماري وكله عدو .. وفي الوقت الذي يوجد فيه بالولايات المتحدة أكثر من أربعين

أو خمسين مركزًا لدراسة منطقتنا العربية والشرق الأوسط عامة، لا يوجد لدينا ولا لدى أي بلدٍ عربيٍّ مركز واحد لدراسة أي من الدول العظمى، ونحن نجهل ما يعتمل في صدر الشعب الأمريكي بمثل ما نجهل ما يعتمل في صدر الشعب السوفييتي، في حين أننا منذ سنوات طويلة — وإلى سنوات طويلة قادمة — سنظل في كل خطوةٍ نخطوها نواجه أيهما أو كليهما معًا. نواجه ونحن نجهل، نواجه ونحن على الأقل لا ندرك أن تغيرات خطيرة تجري في كل من المعسكرين، وأننا لا بد أن نلحق بها.

فيتنام جاءت فكشفت للمواطن الأمريكي أن أمريكا ليست دائمًا على حقٍّ، أقصد أمريكا النظام والسياسية والمؤسسات الكبرى .. إنها ممكن أن تُخطئ، وتُخطئ ببشاعة، وتتورط، وتورط معها الشعب بأكمله. وجاءت فضيحة ووترجيت؛ لتُثبت للشعب أن ليس المؤسسات والنظام والدولة هي وحدها التي تُخطئ؛ ولكن القادة والرؤساء هم الآخرون يخطئون ويقومون بأعمال غير أخلاقيةٍ أحيانًا. لقد تركت أمريكا ورجل الشارع هناك يكاد يُشير إلى كل مسئولٍ وكل سناتور وكل مرشحٍ أو رئيس بأصابع اتهام بلغ بها الشك حد الرجفة.

أذكر هذا السناتور الأمريكي الذي رأيته بعيني في التليفزيون يعترف أنه كان على علاقة جنسيةٍ بسكرتيرته، وأنه آسف إذ يقول هذا، وأنه يرجو أن تغفر له زوجته وأن يغفر له أبناؤه. وجدتُني يعصرني التساؤل: أهذا موقف يدفع إليه الناس باسم الأخلاق والطهارة؟ إن انتحاره الحقيقي وضرب نفسه بالرصاص كان أسهل. باسم الأخلاق العامة يقف الشيوخ والمسئولون عُراة هكذا وقد أُجبر كل منهم على إبداء عورته. ولكنها حُمَّى التطهر التي تجتاح المجتمع الأمريكي، كالصبي الذي اكتشف فجأة والديه يعبثان ففقد الثقة في كل والد وكل والدة، وكل كبير وكل مسئولٍ. حين يؤنب الأب الأمريكي ابنه على طول شعره، ويقول له الابن: ولكن كل المتهمين في فضيحة ووترجيت كان شعرهم قصيرًا!

إن من الممتع حقًّا أن يحيا الإنسان لبعض الوقت في مجتمع كالمجتمع الأمريكي؛ لا تخفي صحافته أو تليفزيونه شيئًا مطلقًا. حتى مساعدات المخابرات الأمريكية لبعض الحكومات والبعض الأشخاص يقولونها علنًا وبالأسماء.

كينِدي يُثبت أنه مسئولٌ عن قتل لومومبا، وكان يريد اغتيال كاسترو. روبرت أخوه يحفر في حياته الشخصية حتى يعثروا له على مارلين مونرو، أو لأخيه على سكرتيرة توصد أمامه باب الرئاسة. وعملية الكشف قائمةٌ على قدمٍ وساق. المهاجرون الأمريكيون

الأُوَل كانوا إما من ضحايا التعصب الديني أو كانوا من المتعصبين البروتستانتيين الذين يبغون التطهر الكامل في عالمٍ جديد .. كروموسوم التطهر يعود ليظهر بعد مائتي عام من الاستغلال والوجود. شارعٍ يريد أن ينفي حكامه وحكومته من أي شبهة فساد؛ ولكنه الفساد الخلقي أولًا، فقد تجاوز الشارع الأمريكي مرحلة الماكارثية واعتبار السياسي تهمة. فالآن نجد في قلب الجامعات الأمريكية والمؤسسات من يُشهرون أنهم شيوعيون أو ماويون، أو حتى من أنصار جيفارا وكاسترو. والحرية السياسية في القمة، ولكن المضحك أن هذه الحرية السياسية لا تمتد لتشمل العالم، فهي وقف على استعمال المواطن الأمريكي. وكذلك هذا التطهر الخلقي قاصرٌ على السياسيين الأمريكان وحدهم، أما أن تتعامل الدوائر الأمريكية مع سياسي مرتشٍ أو داعرٍ لبلد أجنبيٍّ فهذا في عرف الشارع أو السلطات مسألة مشروعة تمامًا وخلقية. مسألة تكاد تقترب بنا اقترابًا غريبًا من الشريعة اليهودية .. ففي عرف اليهود الزاني هو من يزني مع يهودية، أما إذا زنى مع غيرها فلا يعتبر زانيًا. وهكذا يقترب أكثر من تشخيص الحالة الأمريكية فواضح أن المسألة لم تعد مجرد بصمات يهودية وإسرائيلية على الفكر الأمريكي المعاصر. المسألة أن العناصر المفكرة اليهودية نجحت خلال سنوات من الدأب والصبر والمواظبة على مزج التعاليم اليهودية بالديانة المسيحية، وإلى تكوين نوعٍ من المركب يسمُّونه الـ Judo Christianity يصنع العمق الروحي لأقوى وأغنى دولة وُجدت في العصر الحديث .. دولة يُسمِّيها البعض الدولة الرومانية الحديثة .. دولة القوة من أجل القوة. ولقد اكتشف اليهود هذا، فطوال تاريخهم وهم يحاولون السيطرة على العالم، وحين كانت ألمانيا مرشحةً لحكم العالم تدفقت إليها قوافل المهاجرين اليهود ليحكموا الدولة التي ستحكم العالم، وكانت النتيجة تذمُّر الألمان على هيئة نازية أشبعتهم تنكيلًا وذبحًا، ونفس الشيء كاد يحدث في إنجلترا حين كانت بريطانيا العظمى مرشحةً لتسود العالم، وهذه المرة نجحت التجربة، وأصبح اليهود قوة عاتية في الولايات المتحدة، حكامها الروحيون والماديون، وتفَجُّر الاتهامات الخُلقية التي توجَّه إلى السياسية الأمريكية — فيما أعتقد — انحرافٌ موحى به من اليهود والمسيطرين على أجهزة الفكر والإعلام في أمريكا بهدف صرف الناس عن الاتجاه السياسي — مع أنه الأهم — إذا كانت المسألة تتناول رئيسًا أو سياسيًّا، إنهم يُجرون للسياسيين محاكمات تفتيش خلقية؛ في حين أن حساب السياسي هو حساب سياسي أولًا وأخيرًا. فماذا يهمني إذا كان هذا الحاكم فاضلًا من وجهة نظر أخلاقه الشخصية؛ ولكن سياسته ترسلني إلى الجحيم، ولكنها اليهودية والبروتستانتينية التي تريد أن تصنع المسكون الروحي الداخلي لأمة من أعظم وأقوى الأمم

التي ظهرت على سطح الأرض. والمضحك أيضًا أن أمريكا بينما تُحاسب سياسييها خُلقيًّا تحاسب السياسيين خارجها سياسيًّا أولًا وعقائديًّا، ولا يهمها أبدًا المسألة الخلقية في كثير أو قليلٍ.

ولكن الشرح حدث. منذ سنة ١٩٦٦م وأنا أرى المقدمات، ولكن طمستها هزيمة ٦٧. أثناء حرب ٧٣ دقَّ — وللأبد — إسفين في هذا التزاوج غير المنطقي بين البروتستانتينية واليهودية؛ إذ كان تزاوجًا لمصلحة اليهود على طول الخط. إسرائيل كانت تكسب وأمريكا تخسر، وليس صدفة أن العرب هم الآخرون كانوا يخسرون. ربما حرب ٧٣ جمعت الخاسرين معًا، وبدأت «زمزقة» ما تحدث في هذا الزواج اليهودي الأمريكي. وكنت وأنا أدبُّ في شوارع نيويورك مع عبد الوهاب البياتي نلمح آثارًا واضحة للزمزقة المخيفة. نيويورك وإمبراطوريتها المهولة أشرفت … بل هي تفلس فعلًا. نيويورك معقل الرأسمالي اليهودي ذلك الذي حكمها ومنها حكم أمريكا ردحًا طويلًا، ومن هوليوُد إلى مانهاتن كان يمتد نفوذه، ها هو الآن ينحسر. وها هو الرئيس الأمريكي جيرالد فورد لا يريد أن يُعطي لنيويورك البلدية والمؤسسات المائة، وديونها تصل إلى المليارات، وأسفلت الشوارع حافلٌ بأبشع المطبَّات، وعمال النظافة مضربون، وكل بضعة أمتار إضراب، ولم أر في حياتي هذا العدد من لافتات «للإيجار»، «المبنى كله للبيع أو للإيجار». نيويورك كلها وكأنها تقدم نفسها للبيع أو الإيجار، فهل من شارٍ أو مستأجرٍ؟ .. ينظر الرئيس الأمريكي من واشنطن متدفئًا برأسمال أمريكي قُح؛ اغتنى كثيرًا بالبترول، وبأزمة البترول، وحتى بالمقاطعة البترولية حتى يستأسد وينظر شذرًا إلى نيويورك ويتركها تلعق أسفلتها الأسود وتجأر بشكاواها.

وفي نفس الوقت — وكان الاقتصاد هو محرك التاريخ فعلًا — بدأ الشعب الأمريكي ينظر إلى إسرائيل نظرة أكثر موضوعية، وإذا به يكتشف أن هناك فلسطين وفلسطينيين، وأنه مستعدٌّ أن يحل مشكلة شعب متشرد، ولكن ليس على أساس تشريد شعب آخر .. ومع هذا فقد فوجئتُ وأنا أرى الحيز الذي أصبحت فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية تحتله من وسائل الإعلام هنا! شاهدت برنامجًا استغرق نصف ساعة بأكملها — وهذا في عرف التليفزيون الأمريكي شيء كثير جدًّا — عن المستشفى أو أحد المستشفيات التي أقامته فتح لخدمة جرحى حرب لبنان من مسلمين ومسيحيين ويهود، وكان الذي يتحدث طول الوقت هو مدير المستشفى شقيق ياسر عرفات. ولا تخلو نشرة أخبار من خبر، ومعظم الأخبار محايد أو مُنصف، إن شيئًا ما يتغير في تفكير الناس هنا، ويتغير إلى الأحسن. شيء ما؛

مثل التغير الذي بدأ يحدث للمجتمع ككل، حتى بدأ بعض الناس يعترفون أنهم فقراء فعلًا وأن هناك أغنياء، في حين أنها مسألةٌ لم تكن واردة أبدًا عام ١٩٦٦م، حدث أن زرت جامعة إنديانا وجلسنا نتناول العشاء في منزل الدكتور ليجاسك أستاذ الأدب العربي في الجامعة وقصَّ علينا قصة المنزل الفاخر الذي يسكنه، وقال: إن المدينة قد أنشأته أصلًا هو ومئات غيره ليسكن فيه الفقراء أو أصحاب الدخل المحدود، ولكن حين تمَّ البناء رفض الفقراء أن يسكنوا في تلك البيوت باعتبار أن من العار أن يعترف الإنسان أنه فقيرٌ، فالفقر في أمريكا لم يكن — كما تواضع الناس هنا — مسألة نظام اقتصادي؛ ولكن معناه أن الفقير إنسان دنِس أولًا، وإلا لما كتب الله عليه الفقر. اختفى هذا الآن تمامًا، وهدر الاعتراف بالفقر، وتدفقت المطالب الاقتصادية والاجتماعية، وبدأ المجتمع الأمريكي يُدمدم بتحولات اشتراكية جعلت الخوف يدبُّ إلى قلب طبيب مصري صديق وغني هنا، يقول لي: أنا خائفٌ أن تصبح أمريكا شيوعية في القريب العاجل. ترى لو أصبحت كذلك فأين يذهب إنسان مثلي؟ إني لا أهزل .. أنا أفكِّر جادًّا .. أتعرِف أني لا أضع علامة طبيب على سيارتي، فلو وضعتها لوجدتها مسروقة حتمًا؛ فمن المعروف أن الأطباء هنا أغنياء ويكسبون كثيرًا، والناس أصبحوا ينظرون شذرًا إلى الأغنياء هنا.

والشارع الأمريكي ينظر أيضًا شذرًا إلى المؤسسات الهائلة الضخامة، فهي ليست مؤسسات أو شركات .. إنها دول، ودول كبرى، ميزانية أقلها شأنًا تُعادل أضعاف أضعاف ميزانية دولة بأكملها من دول منطقتنا .. أرباح بعضها يقدر بمئات المليارات من الدولارات، أي أرقام وعلى يمينها ثمانية أو ربما تسعة أصفار.

وهل يمكن الإحاطة بقارة في موضوع؟

أمريكا لغز العصر الحديث

أن تُفهم شعب مسألةً سهلة .. أما أن تُفهم قارة فتلك مشكلةٌ، وأن ترى أمريكا من الخارج شيء، وأن تراها من الداخل فشيء مختلف تمامًا .. وإذا ذهبت هناك فمن الصعب تمامًا أن تُصدر أحكامًا عامة مطلقة تخرج منها بنتائج حاسمة. من الصعب جدًّا — مثلًا — أن تقول: إن الأمريكان شعبٌ طيب، ودود جدًّا. تلقائي، يشبهنا تمامًا في هذه النقطة نحن المصريين. ولكنه مختلف قطعًا عن أي شعبٍ أوروبيٍّ. فصحيح أنه طبقات من المهاجرين الأنجلو ساكسون والأيرلنديين والإيطاليين واليونانيين والبولنديين واليهود والروس والزنوج، وأخيرًا العرب، ولكن يبدو أن كل عائلة هاجرت، أو كل جالية، كانت تخلع زيَّها القومي في ميناء نيويورك وترتدي زي العالم الجديد .. ذلك أن أمريكا فعلًا كانت بالنسبة لهؤلاء الناس عالمًا جديدًا حقًّا. كانت أوروبا الإقطاعية وبدايتها الرأسمالية مثل خلية النحل التي تشبَّعت دينيًّا وعقائديًّا وحضاريًّا وفلسفيًّا، وبدأت «تطرد» ممالك النحل الجديدة .. ولكن السمة البارزة للمهاجرين الأمريكيين الأُوَل — بل ربما إلى الآن — أنهم إما كانوا من المضطهدين دينيًّا أو اجتماعيًّا في بلادهم، وإما كانوا من المغامرين والأفَّاقين.

وهؤلاء كانوا كذلك بالطبع متمردين ومضطهدين أيضًا، ولذلك تعانق التيَّاران على أن يخلقا مجتمعًا غريبًا جديدًا لا اضطهاد فيه، ولا حق لأحدٍ على الآخر، والقانون الوحيد الساري هو: البقاء للأصلح، أي البقاء للأقوى. فليكن شعار العالم الجديد أن يصل الإنسان فيه إلى أعلى مراتب القوة. وطبعًا لا يمكن أن تصل بهذا إلا على حساب آخرين.

ولكن ذلك الوضع كان في البداية، كان القادم الجديد جشعًا جائعًا إلى مكان تحت الشمس، ولهذا فمن حق كل إنسانٍ أن يحمل السلاح ويقتل إذا اقتضى الأمر. فقط عليه أن يُثبت أنه كان في حالة دفاع عن النفس. وهذه وحدها لا بد أن تؤدي لمجتمعٍ عنيفٍ، ومنذ

البداية والمجتمع الأمريكي عنيفٌ، حتى حين تضاءل دور الفرد وقدرته على الوصول إلى ما يصبو إليه من قوةٍ، وتكونت الشركات والمؤسسات، أخذ العنف في المجتمع طابع المنافسة المحمومة، وما دمت تحيا في حالة تنافس، فالزمن مهم جدًّا، والقرارات لا بد أن تكون سريعةً وحاسمةً، ولا بد أن تظل في حالة حركة؛ بل في حالة جري وسباق، مع الزمن، ومع الآخرين.

كنت وأنا أسير في شوارع واشنطن ونيويورك وديترويت ولوس أنجيلوس وسان فرانسيسكو وكليفلاند. وأنا أركب الأتوبيس الصاعد شمالًا إلى برنستون ولا أجد أثرًا «للأرياف» أبدًا بعد مغادرتي نيويورك. المصنع تلو المصنع والطريق فوق الطريق فوق الطريق، والمطارات تلو المطارات. وأعرف مثلًا أن أكبر شركة طيران في العالم ليست الخطوط العالمية أو البان أمريكان؛ وإنما هي شركة طيران محلية أمريكية لا تطير لها طائرة واحدة خارج الولايات المتحدة. كنت وأنا مبهورٌ بغابة ناطحات السحاب التي تلمحها في قلب كل مدينةٍ أمريكية، حتى العمارات القديمة المبنية قبل سبعين عامًا، ناطحة سحاب، اختراع أمريكي للتغلب على المساحة الأفقية وإنشاء مساحة رأسية، مصاعد، عمارات من صلب وزجاج، مسافات رهيبة شاسعة (فارق التوقيت ثلاث ساعات بين نيويورك وسان فرانسيسكو)، وأوتوسترادات مبعثر فوقها ما لا يُعد ولا يُحصى من الكافيتريات والاستراحات والموتيلات واللوكاندات. هذه مؤسسات وأبنية وطرقات أقامتها فعلًا أيادي شعب جبار على نفسه أولًا .. العمل عنده مقدسٌ، من لا يعمل يموت، والوقت عنده قاتل الأهمية؛ كنت وأنا أرى هذا كله، وأنا في قلب الرأسمالية الحقيقي، فالبلاد الأوروبية لا ترى فيها الرأسمالية على حقيقتها، أنت تراها وقد هُذبت بتدخل الدولة، وبحقوق العمال والفلاحين، والقوانين المُحددة والمُلزمة لكبح جماح المؤسسات والشركات .. تراها في ثوب من «اشتراكية» الرأسمالية. أما هنا فأنت في قلب عالم رأسمالي قُح، غير مخفف لا بالماء ولا بالصودا، تتجرعه وقد يلسع حلقك، فأنت قادمٌ من مجتمع لا قيمة فيه للزمن ولا للوقت ولا للمسافة، حتى المنافسة فيه صغيرة وغير قاتلةٍ، مجتمع ممتد، عمره سبعة آلاف عام، وسيبقى ربما للسبعين ألف سنة المقبلة. مجتمع تتمطى فيه وتتمتع لتصحو من نومك وعلى مهلك جدًّا تشرب شايك أو قهوتك، الخطأ فيه يُغتفر مهما كان، والجرائم قليلة وغلبانة، والبشر هم الظاهرة البارزة في بلادك، فأنت في القاهرة لا ترى عمائر ولا مؤسسات ولا مصانع ولا شوارع أو أرصفة أو طرقات، ناس، ناس، ناس، كثيرون جدًّا حتى ليسدُّون عين الشمس. في أمريكا، رغم ضخامتها لا تجد أناسًا أبدًا، الشوارع شبه

خالية، ولا يتحرك سائرٌ على قدميه فيها إلا أفرادٌ مبعثرون .. فأمريكا فيها مائتا مليون، هذا صحيح .. ولكنهم مبعثرون على قارة بأكملها، نحن أربعون مليونًا، أي خُمس الشعب الأمريكي ومع هذا فنحن محشورون في ما لا يزيد على واحد على ألف من مساحة أمريكا. أرضٌ واسعة غنية فيها كل معادن الأرض، فيها البترول والذهب، فيها غابات الخشب، فيها قمح وقطن وفواكه، وثلوج في الصيف في الشمال، وبلاجات في عزِّ الشتاء دافئة. هذه البلاد الغنية الشاسعة، في أقل من مائتي عام ينشأ عليها ذلك المجتمع الرأسمالي بعلومه واختراعاته، بقدرات الإنسان الرهيبة على الخلق والتنفيذ الفوري لكل جديدٍ، يحمي المنافسة وهي تَستخرج من كل مواطن أعمق وأهم قدراته، بالفردية في قمتها وهي تعطي، ليستحيل العطاء الفردي في النهاية إلى بناء جماعيٍّ مخيف.

كنت وأنا في قلب هذا كله أتساءل: أهو النظام الرأسمالي التنافسي هو الذي أنتج هذا كله، أم هي الأرض السخية الغنية غير المستنهكة أعطت كل ما لديها، أم هي الخطورة والجدية التي أخذ بها هؤلاء المغامرون والمتمردون الأُوَل أنفسهم وصبغوا بها مجتمعهم. أم هو هذا كله الذي تفاعل وتكاتف ليصنع أمريكا الحديثة العملاقة؟

كنت أتساءل لأن الإجابة عندي كانت مهمة جدًّا. إني إنسان اشتراكيٌّ يؤمن أن الاشتراكية أو على وجه الدقة التطبيق الإنساني الديمقراطي للاشتراكية هو أعدل نظام عَمَل ووجود للإنسان، وليس أسهل من أن يدمغ أي اشتراكي متعصب الرأسمالية كلها بالاستغلال واللاأخلاقية ويدير ظهره لها تمامًا ويبدأ من الألف باء يبني صناعته وتجارته وزراعته. وربما هذا هو ما حدث في الاتحاد السوفييتي كأول دولةٍ اشتراكيةٍ. ولكني أعتقد أنهم هناك في الاتحاد السوفييتي بدءوا يتلافون هذا الخطأ، فالنظام جميعه قد يكون مرفوضًا، ولكن التجربة الرأسمالية الأمريكية خلقت على طول تاريخها آلافًا وآلافًا من الاختراعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة، اختراعات لم يصنعها النظام بطبيعة الحال، ولكنْ صنعها أولًا وأخيرًا الإنسان. والمركزية مرضٌ بغيض من أمراض الاشتراكية، فلو كنت عاملًا أو مهندسًا في مصنع واخترعت اختراعًا — صغُر أم كبُر — لتسهيل العمل أو تغييره فالمصنع لا يستطيع أن يُطبق اختراعي فورًا، لا بد أن يمرَّ الاختراع على لجان أعلى وأعلى حتى يوافق المركز في النهاية عليه، ثم يعود نفس المرحلة ليُطبق، بمعنى أن المركز في الاشتراكية هو الذي «يُفكر» للنظام، وهو المفكر الأوحد، بينما في هذه الرأسمالية اللامركزية الكاملة كل إنسان باستطاعته أن يفكر ويبتكر ويجد ألفًا ممن يستجيب له

وينفذ، وهكذا باستطاعة المائتي مليون أن يفكروا معًا للنظام كله، وهذه حسنةٌ كبرى من حسنات الرأسمالية، علمت أنهم أخيرًا في روسيا بدءوا التفكير في تطبيقها.

فعلًا هذه بلاد يُفكر من أجلها ملايين، صحيح أن كلًّا منهم يُفكر ليستفيد هو شخصيًّا وأولًا؛ ولكن النتيجة النهائية، أن حصيلة تفكير الأفراد تُصبح ملكًا للشعب، للحاضر ثم للمستقبل، بل إن الولايات المتحدة في إدراكها لأهمية التفكير في المجتمع بدأت تلغي كثيرًا من الحواجز التي كانت توضع على تفكير المواطن الأمريكي، بدأت تؤمن فعلًا بأهمية حرية الرأي والعقيدة، ولم يعد أحد يُضطهد لأنه ماركسيٌّ أو حتى شيوعيٌّ. وهذا بالنسبة للولايات المتحدة شيء كثير. فأذكر أني قرأت أن مدرسًا في مدرسة ثانوية أمريكية في العشرينيات فُصل من المدرسة لأنه كان يُدرس نظرية داروين في النشوء والارتقاء لطلبة فصلِه.

«أليس من المضحك هنا أن نذكر أن مصر كانت في العشرينيات فيها مجلات تصدر لا تُبشِّر فقط بداروين؛ ولكنها تنشر حتى مقالات عن الإلحاد؟»

بل بدأت أمريكا تستثمر غنى مؤسساتها الفاحش في شراء الذكاء من العالم كله، لن تجد أعلى طبقات العلماء والأطباء والمهندسين وحتى الفلاسفة إلا هناك. كنت في زيارة لجامعة لوس أنجيلوس واصطحبني المرحوم الدكتور فون جرونابوم المستشرق المعروف وأستاذ التاريخ الإسلامي العالمي في زيارة لبعض أقسام الجامعة. وذُهلت من عدد العلماء الحاصلين على جائزة نوبل — ومعظمهم غير أمريكيين — الذين تحفل بهم أقسام الجامعة. وعرَّفني على عالمة طبيعة إنجليزية حاصلة على جائزة نوبل. وكانت فعلًا تُشبه قديسة العلم كما يحلم الإنسان بقديسة علم. وذكر لي الدكتور جرونابوم ونحن نُغادر معملها كيف أغرتها جامعة لوس أنجيلوس على المجيء. قال: كانت عنيدة تمامًا؛ فقد رفضت كل عروض المجيء وتمسكت بعملها المتواضع في جامعتها بإنجلترا، فما كان من جامعة لوس أنجيلوس إلا أن أنشأت لها في قسم الطبيعة معملًا يحتوي على أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا والعقل البشري .. ذلك المعمل الذي لا بد يحلم به أي عالمٍ. ودعوها لتلقي محاضرتها لمدة أسبوع في قسم الطبيعة، وقبلت، وحين حضرت وألقت محاضرتها الأولى بدءوا يفرجونها على الأقسام والمعامل. ودخلت المعمل المذكور، ولم تخرج!

إن الغنى يؤدِّي إلى مزيد من الغنى، والذكاء إلى مزيد من الذكاء، والعمل إلى مزيد من العمل، وأمريكا الآن، أغنى دولة، تستعمل غناها في حشد الذكاء البشري، ليُضيف لغنى الأرض، غنى الإنسان. هذا النظام الرأسمالي المرن الذي يتأقلم ويتشكل ويُغير نفسه، ويقتبس من الاشتراكية ومن الوطنية وحتى من النظام الهتلري الألماني، يقتبس ويهيئ

أحسن ظروف عمل ليأخذ من الفرد أقصى ما عنده، غير مهم أن يكون أمريكيًّا أو غير أمريكي، فمصيره أن يصبح أمريكيًّا، وما دام إنتاجه سيبقى لأمريكا فما معنى ضيق الأفق؟

ولكن السؤال يبقى: هل المواطن الأمريكي أو حتى المتجنس سعيد؟

لا بد أن نستدرك هنا ونقول: يجب أن لا نخلط بين سعادتنا نحن وسعادتهم هناك، ولا بين تعاساتنا هنا وتعاساتهم هناك. فالمسائل مختلفة تمامًا. إن ما يُتعس مواطننا هنا وربما ما يدفعه للهجرة هي المتاعب اليومية الكثيرة الصغيرة التي تُرهق النفس والبدن، وتطلع الروح؛ أزمة مواصلات، أزمة اتصالات، أزمة مكاتب ونوع عمل، أزمة ازدحام واختناقات، أزمة أخلاق، أزمة الحصول على مسكن أو مأكل أو مشرب. هذه كلها مشاكل لا وجود لها، ليس فقط في أمريكا، ولكن في كل تلك البلاد الغنية التي تكون شمال العالم، هذه بلاد الوفرة، الوفرة في كل شيءٍ، المساكن بكثرة، الأرض بكثرة، الطعام بكثرة، المواصلات بكثرة، الاتصالات بكثرة، حتى إن أغرب إعلان شاهدته في حياتي في التليفزيون الأمريكي كان إعلانًا يدعو الناس إلى تركيب تليفونات، ويُغريهم بالتسهيلات؛ بل ويُغريهم بإجراء المحادثات التليفونية البعيدة المدى. من هذا المثل الواحد تستطيع أن تُدرك مقدار عمق الهوَّة التي تفصل بيننا في جنوب العالم وبينهم في شماله.

ولكن للمواطن الأمريكي مع نظامه مشاكله هو الآخر، ومشاكله العظمى .. مشاكله العظمى ومشاكله الصغرى أيضًا.

ذلك أن هذا النظام النشيط المحموم المتطور، الساعي إلى الغنى الفردي، المؤدِّي في النهاية إلى الغنى الجماعي قد كان لا بد له في النهاية أن يتجه إلى الخارج، ويتوسع، ويرث كل ما تخلف من بقايا الإمبراطورية البريطانية والفرنسية والهولندية. ويدفعه خوفه على نفسه من الفقر والاشتراكية إلى إعلانها حربًا مقدسة ضد المعسكر الشيوعي، وجعل من نفسه — كما يقولون — رجل البوليس العالمي لإلقاء القبض على أي دولةٍ في أي ركنٍ من أركان العالم، أو أي نظام تحدثه نفسه أو يخطر له خاطر الشيوعية أو الاشتراكية. وقد كان من المحتم لدورٍ كهذا أن تنغرز ساق رجل البوليس في فيتنام ذات مرة، وفي محاولته لاستخراجها تنغرز الساق الأخرى، ثم يبدأ الجسد نفسه يغرق.

ولقد ظل الجسد يغرق حتى أفرزت الجامعات الأمريكية «عقل النظام» كيسنجر، والكيسنجرية وسيلة لإنقاذ النظام الرأسمالي، ليس فقط في أمريكا ولكن في العالم كله، والكيسنجرية ببساطة حوَّلت «الثور» الأمريكي الذي كان ينطح أي لون أحمر يلمحه إلى

إنسان ذكي .. يُميز أولًا بين الألوان، فليس كل أحمر هدفًا، وليس كل هدف ممكن نطحُه، ثم أليس من المستحسن بدلًا من أن تنطح أن تحتوي، وبدلًا من أن تهدم الحائط أن تصنع لك فيه فجوة، وبدلًا من أن تُعادي نصف العالم — روسيا والصين معًا — تأخذ الصين في حضنك، وتسلم — باليد — على روسيا .. وبدل أن تكون أبيض تمامًا مع إسرائيل وأسود تمامًا مع المصريين والفلسطينيين والسوريين والعراقيين، تُجرِّب الرمادي، قليل من البياض على كثير من السواد، وقليل من السواد على كثير من البياض، هل تمشي المسائل؟ ذلك سؤال في الواقع متروك للتاريخ.

ولكن الذي لا شك فيه أن الكيسنجرية أكثر دهاءً — وبالتالي ديمقراطيةً — من الدالاسية. ومن الخارج إلى الداخل بدأت الديمقراطية تسعى، ولا شك أن نيكسون كان آخر رئيس أمريكي يملك سلطة الرئيس، وإزاحته، لم تكن فقط تخلصًا من رئيس أخطأ؛ ولكن كانت في الحقيقة تخلصًا من أعباء الرئاسة كلها.

أمريكا الآن تحيا في عهد السناتورز، وحتى هؤلاء موضوعون تحت رقابة رأي قويٍّ وخطيرٍ، عثر على نفسه وقوته بفضيحة ووترجيت، وبدأ يمسك بزمام الأمور، ويلوي عنق النظام بحيث لا يعود يخدم المليونيرات فقط، ولكن يخدم المواطن الفرد العادي بالدرجة الأولى. ثورة؟! سمِّها ثورة، ولكنها ثورة على الطريقة الأمريكية. فهي ثورة أفراد، يثورون بشكل تمرديٍّ فردي، يهاجمون المارة وليس لديهم مانع من مهاجمة السيدات بالذات، يسرقون بتهديد المسدسات، يُنشئون العصابات الثورية التي تسطو على البنوك والمؤسسات، يَقتلون — بفتح الياء — ويُقتلون — بضم الياء—، وجزء من المجتمع العنيف يتحول ليواجه الجزء الآخر، وعنفًا بعنفٍ، وفردية، وما دام البقاء للأقوى فلماذا العمل وأنا أستطيع أن أكون الأقوى بالمسدس والطلقة؟

ولهذا فمشكلة المواطن الأمريكي هي بالدرجة الأولى مشكلة أمن .. تزلزل الأمن في أغنى قارات العالم. ومنذ أن تُغلق عليك باب حجرة الفندق تجد التعليمات واضحة وصريحة ومشددة. لا تحمل نقودًا .. لا تمش بمفردك ليلًا .. لا تفتح الباب إلا بعد الاتصال بالاستقبال والتأكد أن أحدًا بعينه قد جاء لزيارتك.

وهكذا يتحول الإنسان في مدن أمريكا إلى كائن نهاري يختفي تمامًا في الليل لتظهر العفاريت في الشوارع، وصوت سيارة البوليس الأمريكي الجديدة صوت مزعج حقًّا، فقد استبدلوا السرينة المتصلة بصوت كنعيق البوم عاليًا ومزعجًا، كنت لا أكاد في قلب واشنطن العاصمة تغمض أجفاني لدقائق حتى يُوقظني نعيق آخر، وكان في كل خمس دقائق تحدث حادثة.

أهي ثورةٌ اجتماعية تأخذ ذلك الطابع الإجرامي؟ أم هو إجرام يأخذ شكل الثورة الاجتماعية؟

ذلك سؤالٌ هامٌّ جدًّا. والإجابة عليه ليست مهمة فقط للأمريكيين، إنها مهمة جدًّا لنا أيضًا، فالولايات المتحدة تلعب — وستظل تلعب — دورًا خطيرًا، ليس في العالم أجمع فقط، ولكن بالتحديد في منطقتنا وبلادنا، وفهم العوامل الداخلية التي تعتمل في قلب ذلك الشعب العملاق مسألة من الواجب أن نعرفها، ونعرفها الآن بالتحديد .. والحيز الآن يضيق.

ذات الأصابع الطويلة الشاحبة

ملحوظة: حين عُدت خجلان إلى زوجتي في الفندق، ذكرت لها أن بطل القصة كان رجلًا غليظ الصوت، ولعلها الآن تعرف أن البطل كان فتاة، امرأة أو آنسة، لا أعرف، ولكني أعتقد أنها كانت فتاة، وبالتحديد فوق العشرين. ثم إني ذكرت لها أنني أحسست بفوهة المسدس في ظهري، ولكن الحقيقة أني «تصورت» أنه — لا بد — مسدس، فما أحسسته كان شيئًا صلبًا حديديًّا دون شك، إما أن يكون مسدسًا أو غير مسدس. فتلك مسألة أخرى.

والآن بعد أن أرحت ضميري، لنبدأ القصة من أولها. وأولها كان في واشنطن حيث وجدنا التعليمات في الفنادق، وحيث تولَّت سيدات الجالية المصرية في أمريكا بشكل عام عملية تحذيرنا بشدةٍ أن نسهر أو نمشي في الشوارع بمفردنا، أو أن نحمل نقودًا أكثر من عشرة أو عشرين دولارًا. ويجب إذا مشى الإنسان ألا يُسرع حتى لا يلحظ أحد أنه خائفٌ، وأيضًا ألا يُبطئ حتى لا ينتهز أحد الفرصة ويهاجم .. عليك أن «تضبط» مشيتك بحيث توحي لأي مارٍّ أو أي ممن تُحدثه نفسه أنك واثقٌ وقادر، وأنك غير مهزوزٍ.

في الحقيقة كانت أحاديث، وتحذيرات كهذه، تطن في أذني وكأنها صوت بعوض لا تجده إلا في مستنقعات الأرز، يطن حولك في قلب مدينة ومدن مزودة بأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا مقاومة الحريمة، وبلاد غنية، الأجور فيها وافرةٌ، والحياة تبدو مسالمة إلى حدٍّ كبير، حياة النهار على الأقل. قلت ربما هو الخوف التقليدي من الغربة، وربما هو كثرة مشاهدة قصص العنف في التليفزيون الأمريكي، وهو أغرب تليفزيون في العالم، فعشرات المسلسلات كل يومٍ حافلةٍ بأنواع من العنف يقشعرُّ لها البدن، وكأنه لا همَّ لهؤلاء الناس إلا أن يقتلوا بعضهم بعضًا، ويضرب بعضهم بعضًا، الآباء دائمًا أعداء .. الأبناء، والبنات متمردات — إلى درجة الجريمة — على تعاليم الأسرة .. أفهم أنه مجتمعٌ عنيفٌ آه، ولكن

أن يتحول التليفزيون إلى وسيلة لزيادة النار اشتعالًا، وتعليم الجريمة، والتحريض عليها رغم النهايات التي تقول دائمًا: إن الجريمة لا تُفيد؛ مسألةٌ تدعو إلى الدهشة الشديدة، ولا بد أن سبب انعدام أي إشرافٍ شعبيٍّ، أو حكوميٍّ، على محطات التليفزيون الكثيرة، بل لا يوجد حتى أي ميثاقٍ أو اتفاقٍ على حد أدنى من مراعاة أي قيمة، المسألة — كما ذكرت — متروكة للتنافس «الحر»، وفي محاولة لجذب الانتباه وتجميع أكبر عدد من المشاهدين لتعرض عليهم الإعلانات، فلا بد أن تعرض الأعنف، وكلما كان عنفك نادرًا ومثيرًا «نجحت»!

المهم؛ لم أكن حريصًا على تتبع هذه القصص المرعوبة والمرعبة، حتى وأنا أسمع نعيق عربات البوليس والإسعاف ليلًا نهارًا، حتى وأنا أقرأ هجومًا تعرض له السفير السويسري في حي السفارات بواشنطن، وهو أكثر الأحياء أمنًا. رجل عمره ستون عامًا هاجموه، وطعنوه، وأخذوا نقوده. حتى حين علمت أن نائب وزير مصري دخلوا عليه في حجرته بفندق هيلتون وأخذوا كل ما معه من نقود بعد نصف ساعة فقط من وصوله إلى الفندق.

معظم القاتلين ينسبون الحوادث للزنوج، ولكني ألمح هنا تغيرًا كبيرًا في المجتمع، الزنوج أصبحوا موجودين — وبكثرة شديدة — في كافة مرافق الحياة، حتى إن الإعلانات عن البضائع لا بد أن تحتوي على أكبر عدد من الوجوه الزنجية، لإغراء المشتري الزنجي، وقد أصبح قوة اقتصادية، ومذيعو التليفزيون، لا بد على الأقل من مذيع أو أكثر زنجي، وعمدة واشنطن نفسها زنجي، الثورة الزنجية العنيفة، والثورة الزنجية غير العنيفة بقيادة مارتن لوثر كنج أدت إلى نتائج حاسمة فعلًا. فأنا لا أصدق الإحصاءات الرسمية التي تقول: إن الزنوج تعدادهم ٢٠ مليونًا فقط، إن الزنوج يشكلون على الأقل ربع هذا المجتمع الكبير؛ بل إنهم في المدن يبدو عددهم أكثر من البيض كثيرًا.

لم تعد إذن القضية العنصرية حادة إلى الدرجة التي تدفع إلى كل هذا العدد من الجرائم. وأنا لا أتحدث هنا عن الجرائم المنظمة التي تقوم بها عصابات كالمافيا وغيرها، تلك التي تُرتب لسرقة بنك أو قطار أو محل مجوهرات. هذه هي الجريمة التقليدية في الغرب الرأسمالي كله. إني إنما أتحدث عن الجرائم شبه التلقائية، الفردية، أو العصابات الكثيرة الصغيرة التي انتشرت بطريقةٍ محمومةٍ على مساحة أمريكا كلها، والمكونة غالبًا من فردين أو ثلاثة على الأكثر. أو ربما فرد واحد قد يُهاجم — أو حتى يقتل ضحيته — لمجرد لذة القتل، إن كان للقتل لذة. كمٌّ ضخم من المسدسات والخناجر والسكاكين، والأيدي التي يمكن أن تمسك بها كثيرة. أيدٍ مسئولةٍ وأيد غير مسئولة، لكأنما كانت الموضة في

الستينيات هي موضة البيتلز والهيبز وثبت أنها وسيلةٌ غير مجديةٍ لقهر المجتمع الرأسمالي الكبير الراسخ، فلجئوا في السبعينيات إلى الجريمة، وإجرام بإجرامٍ فليكن الطوفان وليغرق الجميع.

ولكن هذا كان آخر ما يدور في ذهني وقد وصلت إلى مدينة هيوستن الجميلة بولاية تكساس في الجنوب في انتظار موعد مع الدكتور ديبكي أشهر جراح قلب في العالم الآن .. الفندق الذي نزلت أنا وزوجتي فيه شاهقٌ وجميل ورخيص أيضًا، ففوق أن أسعار الفنادق في أمريكا أرخص من مثيلاتها في أوربا فإن الفندق ملحق بالمستشفى الذي يعمل فيه الدكتور ديبكي لينزل فيه أقرباء المرضى.

وصلنا بعد الظهر وكان اليوم يوم الكريسماس الماضي، كل شيءٍ في المدينة مغلق، ولن يغلق يومها فقط، ولكن سيظل كل شيء مغلقًا للأيام الثلاثة القادمة. وبحثت في سجائري فوجدت أنها كادت تنفد .. سألت في الفندق فقالوا لي: إن المكان الوحيد الذي تستطيع أن تحصل على سجائر فيه هو فندق هيلتون. وهو يقع على بعد لا يزيد على نصف كيلومتر من الفندق الذي كنا ننزل فيه. وفعلًا، حين خرجت من الباب الرئيسي وجدت علامة هيلتون أمامي يفصلني عنها متنزه يغطي المساحة كلها بين فندقنا وفندق هيلتون. سعدت أني سأتمشى عبر المتنزه. كانت السماء صحوًا والجو جميلًا، ورائحة الكريسماس تعبِّق وتُضفي الكثير من السلام على المدينة وعلى المتنزه. وصلت هيلتون بعد أقل من ربع ساعة من السير عبر المتنزه حين غادرته عائدًا وجدت الجو قد انقلب فجأة، وبدأ مطرٌ خفيف أول الأمر، ثم غزير جدًّا يتساقط. كانت السابعة مساء ولكن الظلام لم يكن سببه غروب الشمس. كان بسبب اختفائها خلف طبقات كثيفة من السحاب ظهرت فجأة في الأفق وكأنما دفعتها يد «ميكائيل ملاك المطر» على عجلٍ، فقدت الأمل في ثيابي وأسرعت عبر ممرات المتنزه التي بدأت تمتلئ بالمياه وتصنع من حذائي مركبًا غارقًا يجاهد ليوصلني إلى الفندق.

فجأة أيضًا، سمعت الصوت .. يداك إلى أعلى. حسبته رجع الصدى في ذاكرتي لكثير من حلقات التليفزيون التي أراها ليل نهار ... يداك إلى أعلى. كأنما الذاكرة ترددها. ولكنها حين جاءت صارمة حادة في المرة التالية ومعها جاء ذلك الإحساس بجسم معدني مسدد إلى عمود ظهري الفقري. انسحب الدم من رأسي في الحال حتى خفت أن أسقط. أنا إنسان غير عنيفٍ ولم أشترك — حتى وأنا طفل — في أي خناقةٍ أو قتال، ولا أحب العنف. مع اندفاقة الدم مرة أخرى إلى رأسي تدفق بركان مختلط من الأحاسيس والمشاعر والخواطر.

ولكن يديَّ كانتا قد ارتفعتا تمامًا إلى أعلى. إنه صوت فتاة هذا واضح. كيف ومن أين جاءت والمتنزه واسع ولم يكن به أثر لمخلوق؟ .. تعليمات البوليس أن تُسلِّم كل ما معك دون بادرة مقاومة أو نقاش. وحتى إذا لم تكن هذه تعليمات البوليس فكيف تعصي ذلك المسدد إلى ظهرك. أحس أنه ليس مسدسًا، ولكن ما أدراني أنه ليس كذلك. المغامرة هنا على أي حالٍ احتمال آخر، انتحار .. هل تقتلني؟ .. في نفس اللحظة كانت اليد الأخرى تمتد لتفحص جيوب سترتي بسرعة وخفقان واضطراب. هنا فقط لمحت اليد .. أصابع طويلة نحيلة شاحبة جدًّا. هي بيضاء إذن .. ألف خاطر وخاطر .. ماذا لو — أيتها الحلوة — تلقي هذه اللعبة من يدك وتدعوني لقضاء كريسماس سعيد، وتأخذين كل ما معي بإرادتي أنا؟ .. ارفع يدك. يبدو أن اليدين كانتا انخفضتا تعبًا؛ فقد أحسست حقًّا بتعبٍ مفاجئ وشديد، وكأني عدوت مائة ميل .. تسمَّرت يداي مرتفعتين .. فجأة بدأت أخاف. هذا أرعب صوت، ولو أنه أنثوي إلا أن فيه نبرة قتل. الجو يُغري فعلًا بالقتل، المكان خاو تمامًا ولا أرى على امتداد البصر إنسًا أو جنًّا أو عربةً أو أي شيء متحرك أو حي. لكأنما فرغ العالم تمامًا من بشره. والدنيا — هكذا أدركت وكأنما كنت قد غبت عن الوعي صاحيًا — لا تزال تمطر، وبغزارة. جو تراجيدي مظلم مضبب يُغري بالاكتئاب، والاكتئاب يدفع حتمًا للجريمة. في لهفةٍ عصبية شديدة كانت كل محتويات جيوبي تستخرج بمهارة فائقة. حتى السجائر تستخرج، ولا ريب أنها تودع حقيبة يد معلقة في الكتف، تلك التي كانت تُخفي السلاح أو المسدس. هي ترتجف سارقة وأنا أرتجف مسروقًا، وبيننا ذلك الشيء المسدد إلى ظهري. وبيننا ما هو أكثر من هذا بكثير. نظام كامل أحالها سارقة مرعوبة وأحالني مسروقًا أشد رعبًا. فجأة أيضًا ذلك الفلاح المصري الشرقاوي الكامن فيَّ، بدأ من سُباته الطويل يستيقظ ويتمرد: كيف تسرقني امرأة ولو حتى بمسدس. ارتعش جسدي بالانفعال المفاجئ، هكذا لا بد أحست، أحسست أنا في الحال أن الجسم المعدني يغور أكثر في ظهري وأن الطلقة هي الخطوة القادمة بلا أدنى شكٍّ. امتلأ رأسي بدم أحمر. فكرت في حركة سريعة أنخلع بها من مجال التسديد، وأقلد الكاوبويز وما أكثر ما رأيتهم يفعلون هذا. ولكن هكذا يفعلون في الأفلام وفي البلاتوه. أنا هنا في بلاتوه آخر. مرعب لأنه حقيقيٌّ. لا مُخرج يقول: ستوب، لا ممثلة تُصافحني بعد انتهاء المشهد. هنا الموت فعلًا، ليس فقط ممكنًا، ولكنه الاحتمال الأغلب. يا رب .. أهذه ميتة .. أأُقبِل من آخر الدنيا لأموت في متنزهٍ عام في هيوستون تكساس، وبيد نحيلةٍ رشيقة لبيضاء مجهولة؟ .. فلينخمد الفلاح الشرقاوي! فما دام العنف بالعنف فالأذكى أن تستسلم إذا كنت في الكفة الأضعف. فلْينتهِ المشهد بسرعة.

وفعلًا بسرعة انتهى المشهد ولكني أنا لم أتحرك. فالصوت جاءني واضحًا وصريحًا: قف في مكانك لا تتحرك لمدة ربع ساعة ويداك إلى أعلى. إذا تحركت ستقضي ليلة الكريسماس في جهنم .. وكأن الخطوات لجنيَّة تنسل فوق سطح الماء الذي غمر الممرات .. لم أشعر بها تذهب مثلما لم أشعر بها تقدم. واقفًا ظللت .. ماء المطر يتدفق بغزارةٍ رهيبة، يملأ عينيَّ ويلسعهما، ويتحول شعري إلى مزاريب تنسال على سترتي التي تهدلت وقلبت جيوبها. كل ما معي كان قد راح، ولكن المهم أني لا زلت حيًّا. المهم أني لا زلت حيًّا، فقد قالوا لي: إنهم يقتلون الضحايا لمجرد إغلاق الفم، أو حتى لمجرد التسلية.

وقفت مذنَّبًا وما في الموت بُد لواقف. تلميذ صغير أذنب، ويذنَّب على جريمة لم يرتكبها هو. أتلقَّى مزاريب المطر وتغسل عن عيوني كل آثار ناطحات السحاب والأوتوسترادات، والنجاح والغنى والثراء .. إنني في قلب الغابة الحديثة .. أشجارها عمارات .. وقرودها سماسرة .. وأفيالها جمهوريون (الفيل شعار الحزب الجمهوري) .. ونمورها سود وبيض، والأنثى حيَّة، تسدد نابها إلى الظهر. ما فائدة الغنى إذا كنا سنعود القهقري ونستحيل من بشرٍ إلى وحوش. أطلق التنافس على أشده .. يستحيل البشر إلى وحوش. البقاء للأصلح إذن البقاء للمسدس والدبابة والفانتوم. اصعد إلى القمر بجسدك، ولكن روحك تهبط إلى الجحيم. أي نظامٍ هذا الذي يدفع شابًّا أو فتاة إلى حمل آلة القتل والسرقة بالإكراه؟ ربما تحت تأثير عقاقير الهلوسة أو المخدرات، أو في النهاية سعيًا إلى إنفاق النقود على عقاقير الهلوسة والجنس والمخدرات. صناعة رهيبة عملاقة هذا صحيح، حريات خذ ما شئت من حريات، انتخابات مجالس محلية وسناتورات، ديمقراطية على أشدها ولكن النتيجة غابة، وإنسان رغم كل مظاهر التحضر، ينقلب إلى حيوان مفترسٍ يسرق وينهش. بودِّي لو لم أكن واقفًا وحدي هنا، ولكن معي، مسددة إلى ظهره المسدسات والخناجر كل أولئك الذين يحلمون بهذه الجنة على الأرض.

وقفت ربما لساعة، ربما لساعتين. وقفت وظللت واقفًا حتى حركني الخوف. الخوف من أن يراني أحد واقفًا هكذا فيغريه أني هدفٌ جديد ويقتلني، إذ هكذا ذهب الأمن البشري عنِّي وانتهت تمامًا أسطورة أني في قلب مدينةٍ متحضرةٍ. أنت لا يمكن أن ترى نظامًا على حقيقته إلا إذا اختلفت معه، إلا إذا عاداك أو عاديته، أو على الأقل كشف لك عن أنيابه. وأنياب أي نظامٍ خفية في العادة للعين الزائرة أو العابرة. تحركت وذهبت إلى الفندق، وأنا على بابه فقط بدأت أفكر، أو بدأت القدرة على التدبير تعود إلى حسِّي، إذن لقد ذهب عني كل ما أحمله من نقود مخصصة لعلاجي ولإنفاقي لحوالي الأسبوع الذي سأمكث فيه في

هيوستون. فماذا أفعل والبنوك مغلقة للأيام الثلاثة التالية، ومطعم الفندق مغلق، وليس معي أنا وزوجتي حتى باكو بسكويت.

أبلغ البوليس؟!

وماذا سيفعل البوليس وأنا لم أر الفاعلة، وحتى لو رأيتها فهي قطعًا هاوية، لا سجلات لها ولا صور. كل ما سيحدث أني سأقضي الكريسماس — بإذن الله — مع ضابط بوليس متبرم بالعمل في يوم الإجازة المقدس. ولن يصنع لي في النهاية شيئًا.

كارثة .. ولكن الكارثة الأفدح أني كنت حزينًا تمامًا من أجل الإنسان. ذلك الذي يخترع التجارة والصناعة والزراعة لتنقذه، فإذا به يذهب في النهاية ضحيتها. يخترع الثورة فإذا بها أحيانًا تُطبق على عنقه. أما من خلاص؟ أما من نظام يكفي حاجاتي دون أن يسرقني، وأحكم به نفسي دون أن يتحكم حزب فيَّ، وأكون حرًّا ولا أدفع ثمن حريتي عقابًا ينزل عليَّ من «أحرار» آخرين؟!

حزينًا ومبتلًّا إلى النخاع أرتجف .. دخلت الفندق .. ولكني في وسط ذلك الكابوس الخانق تذكرت شيئًا، ودسست يدي بصعوبة في جيب بنطلوني المبتل، ولو كنت قد وجدت كنوز سليمان كلها في جيبي لما سعدت قدر سعادتي ببقية العشرين دولارًا التي أخذتها بعد خصم ثمن السجائر في الهيلتون. أربعة عشر دولارًا بأكملها، صحيح لا تكفي لشراء بضع علب محفوظة؛ ولكن المشكلة: كيف نشتري هذه العلب، من يشتريها، ومن أين وقد أصبحت المدينة عليَّ محرمة؟

ولكنها قصة أخرى …

هذا أو الجهجهون

قرأتُ كثيرًا من التعليقات في الصحف العربية والغربية عن فوز كارتر «الصاروخي» في انتخابات الرئاسة الأمريكية. والحق — وإن كان كثير من هذه التعليقات قد لوَّن أجزاء من الصورة — إلا أني ظللت أحسُّ باستمرار أن ثمة أشياء ناقصة كثيرة لتكتمل اللوحة .. ثم إني أحسست — وما دُمنا نقول: إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا — بالأسى؛ لأن اتصالنا بها على أساس اجتهاد شخصيٍّ ولا يوجد لدينا على المستوى المحلي أو العربي مركز وطني أو قومي واحد لدراسة السياسة الأمريكية وتحديد الأسس التي تقوم عليها علاقتنا بها. وإذا طبَّقنا هذا بالنسبة لعالم عربيٍّ واسع مترامي الأطراف والاتجاهات تلعب أمريكا فيه الدور الرئيسي في صناعة أحداثه أو التدخل لمنع أحداثه، يكاد موقفنا نحن العرب من أمريكا يُميتنا في فيض من الضحك.

فثمة دول عربية تعتبر أن أمريكا هي «رأس الرمح» في حركة الاستعمار الجديد المعادي لأمة العرب، وكأنها بهذا قد أدَّت واجبها الوطني خير أداء، وأطلقت هذا الحكم شهادة للتاريخ يذكرها لها حين يعنُّ لأحد أن يُراجع التاريخ والمواقف. وهذا ليس اتجاهًا غريبًا على منطقتنا ولا على إنساننا العربي، اتجاه إصدار الأحكام. اتجاه أن هذا رجعي وهذا تقدُّمي وهذا رافضٌ وهذا قابلٌ وهذا بين بين .. وكأننا لا نحيا في فترة تتحرك بنا وبها الأحداث في سرعةٍ رهيبةٍ، والسبق فيها هو لمن «يحرك» الأحداث ولا يكتفي بإصدار حكم بيزنطيٍّ عليها، وإنما كأنما نحن في محكمة قد توقف الزمن بنا وبها، وسكتت الأحداث تمامًا داخلنا ومن حولنا، ولم يبق على كل منَّا إلا الإدلاء بشهادة الإدانة أو بشهادة البراءة. ومن هو قاضي هذه المحكمة أيها السادة؟ وأين الادعاء، وأين الدفاع؟ وحتى لو أصدر هذا القاضي المزعوم «حكمًا» ما، من يُنفذه؟ يخيل إليَّ أن كل مسئول أو قائد يملك هذه العقلية المضحكة، قبل أن يُدلي بأي تصريحٍ، أو يحدد موقفه من أي اتجاه، يصيح في سرِّه: حضرات

القضاة .. حضرات المستشارين .. أنا بريء يا حضرات، وهذا هو الجاني اللعين .. في حين أنه لو تصور الموقف على حقيقته وأدرك أنه يُخاطب أشباح قضاة ومستشارين وعدالة لا وجود لها إلا في خيال سعادته، وأن أحدًا لا يهمه بالمرة أن يكون سعادته بريئًا أو مذنبًا إلا بقدر «قوته» هو على فرض براءته أو حتى فرض جريمته، نحيا في عالم لا تسيره أحكام مَحكمة عدل دولية أو مجلس أمن؛ وإنما يُسيره منطق القوة القاهرة الغاشمة، والحق دائمًا هو منطق الأقوى. والكلام الذي يذوب في الهواء — ولو كان مصنوعًا من البراءة المذابة — هو دائمًا منطق العاجز .. لو تصوَّر أنه إنما يتحدث بلغة أشباح وإلى أشباح، ويستذكر دروسه من دفاتر «القيم»، إذ ما زلنا في الحياة الدنيا، وحساب كهذا لا يتم إلا يوم القيامة، ولا يقيم حده إلا إله قادرٌ يفرض العدل والعدالة .. نحن للأسف ما زلنا في الحياة «الدنيا» مكانًا ومعنى، فأي معنى بعد هذا، إصدار «أحكام» غير قابلة التنفيذ، أو رفض شيء إلا وأنت قادرٌ على فرض شيء آخر، وعجيب أن لا فرق حرفي بين كلمتي «فرض» و«رفض»، نفس الحروف، ولكن حركة الراء إلى أمام الفاء لا تُغَيِّر تمامًا؛ ولكنها أيضًا رمز عميق لكون الفَرض «حركة» أو «فعلًا»، وفي النهاية إجبار .. برضه ما علينا من هذا كله، هناك — كما قلنا — أجزاء من العالم العربي تعلن عداءها لأمريكا وللسياسة الأمريكية وتعتبرها أبشع درجات الاستعمار العالمي، وأنا لا أناقشها في هذا. وقد يكون لي نفس الرأي، ولكن هؤلاء الذين يقولون هذا ويفعلونه دول ومؤسسات وتنظيمات، وليست أفرادًا مثلي عاجزة. وبما أنها كذلك، وبما أن أمريكا ليست كلمة وإنما هي مؤسسات «جهنمية»، و«أخطبوط»، وعقول خبيثة واسعة الحيلة، ومعامل تفريخ أسلحة وأشكال عدوان، فالسؤال هو ماذا فعله أو يفعله هؤلاء اللاعنون الساخطون لمعرفة ذلك «العدو» ما داموا يعتبرونه عدوًّا. وما دام المثل الحكيم يقول: اعرف عدوك؟ الواقع أن معلومات الرافضين لأمريكا وللسياسة الأمريكية في شرقنا العربي لا تقل عمومية أو سطحية عن معلومات من يعتبرونها الصديق الأول، أو على الأقل الراعية المثالية لاستتباب «النظام» واللاشيوعية واللاشتراكية في المنطقة .. فتصور أنت تربط نفسك وبلدك وشعبك، وتضع كل بيضك — كما قلنا — في سلتها وأنت لا تعرف عن هذا البلد الخطير في حياتك وفي مصيرك إلا معلومات أي سائحٍ أو ضيف طالت قليلًا ضيافته.

يقيني أن من يُعادون أمريكا هم أولى الناس بالتهام المعلومات وتحليلها وإدراكها، ومن يصادقونها تعتبر مسألة كهذه مسألة حياة أو موت .. ومع هذا فعلى اتساع عالمنا العربي كله لا يوجد في أي بلدٍ عربيٍّ أو أي جمع أو تجمع عربي «مركز» لدراسة أمريكا؛

النظام، والسياسة، والعوامل الظاهرة والخفية، واتجاهات الرأسمالية الأمريكية، والشارع الأمريكي، والمؤسسات، سياسة الدولة الاتحادية وسياسة الولايات، سياسة البنتاجون، ووزارة الخارجية، ومجلس الأمن القومي الأمريكي، وسياسة الـ «سي آي إيه»، والـ «إف بي آي»، والمراكز الجامعية المتعددة «للتفكير» الأمريكي تجاه الشرق الأوسط.

لهذا السبب لا نستطيع أن نجد ببساطة «سياسة» يتخذها بلد عربي، أي بلد عربي، تجاه أمريكا .. نجد علاقات وصداقات وصلات شخصية ومصالح، أو معارك وعداء، أو رضاء، ولكنَّا لا نجد سياسةً مرسومة .. سياسة بمعناها العلمي الدقيق .. سياسة نُحدد فيها بالضبط ماذا تمثل أمريكا بالنسبة لنا، ثم ما هي هذه الدولة العظمى التي أصبحت — كما يقول حتى بعض كُتَّابنا التقدميين — أعظم دولة في عالم اليوم .. من هي؟ .. وما هي؟ دراسة واعية دقيقة مُفصَّلة بحيث حين نأتي للخطوة التالية وهي خطوة: ما هو موقف هذا البلد أو ذاك تجاه أمريكا؟ لا نأخذه على ظلام، أو «جهجهون» كما يقولون؛ وإنما هو نور وبينة. وبحيث يتحدد لنا على ضوئه أيضًا، ليس أن نكتفي «بوصم» أمريكا بأنها استعمارية مؤيدة للصهيونية، أو نصدر حكم الصداقة لصالحها. بحيث يتحدد لنا كيف يمكن أن نُغيِّر من اتجاه أمريكا ناحيتنا إذا كان اتجاهها ضارًّا بنا، أو نحارب هذا الاتجاه إذا كان لا مفر من محاربته، أو — في الناحية الأخرى — بحيث نُدرك كيف يمكن أن ينتمي هؤلاء الذين يعتبرون أمريكا صديقة وحامية لمصالحهم ضد «الزحف الشيوعي»، ينمُّون هذه العلاقة ويطورونها لمصلحتهم الشخصية هم، وأيضًا إذا كانت بلادهم وشعوبهم تهمهم فلمصلحة هذه البلاد والشعوب أيضًا.

والدليل واضح أمامنا وصريح والمثل واقع أمامنا في الحال وصارخ، حكاية فوز كارتر وهزيمة فورد. لكأنما تعليقاتنا العربية — ومن أُناس محترمين في نظري تمامًا — تتحدث عن ظاهرةٍ كونيةٍ حدثت هكذا والمطلوب هو بحث أسباب حدوثها واستقصاء جذور الموضوع كله.

إن نجاح كارتر بالتأكيد لم يكن ضربة حظٍّ أُصيب بها السيد جيمي، أو سوء حظٍّ لازم السيد فورد. لو كان عندنا «مركز» واحد أو هيئة واحدة فقط في عالم عربيٍّ شاسع وغني وخطير، بل يكاد يكون صانع الأحداث الأول في عالم اليوم، لو كان لدينا في عالمٍ كهذا مركز كذاك، لعرفنا — ومنذ زمن — أن فورد لن ينجح، وأن التغييرات التي سبقت

وصاحبت عملية انتخاب الرئيس الأمريكي ... بل ومنذ حكاية ووترجيت وعزل نيكسون، لعرفنا وأدركنا أن دفَّة الأمور تتغير، وأن اليد تتدخل دائمًا لتغيير دفة الأمور في اللحظة المناسبة — كما حدث عند اغتيال كيندي — قد بدأت تعمل في اتجاه يُحتِّم نجاح كارتر والحزب الديمقراطي.

وأنا لا أزعم أني دارسٌ أو متبحرٌ، أو حتى أملك واحدًا على مائة من قدرة أي مركز دراسات أو أي كاتب متخصصٍ في السياسة وتبحَّر فيها، في الواقع أنا أُسمِّي معلوماتي السياسية، وبالذات عن المسائل الخارجية، أسميها — بيني وبين نفسي على الأقل — معلومات وتحليلات — أحيانًا — لا سند لها من الواقع، ولا أستشهد فيها بأقوال أو وقائع، وإنما هي في حقيقة أمرها خواطر فلاح مصري يُفكر في السياسة العالمية في وقت أصبح التفكير في السياسة مسألةً علمية، لا يقوم بها أبدًا شخص أو مكتب؛ وإنما أجهزة رهيبة كاملة متكاملة وحسابات إلى أبعد من أبعد مدى.

الواقع أنِّي حين كنت في الولايات المتحدة في الخريف الماضي سعيًا لفرض نفسي على مراكزها الطبية، ورغم أن مستشفى البحرية الأمريكية — أرقى مركز للعلاج في العالم — اعتذر عن قبولي كمريضٍ باعتبار أنهم لا يعالجون إلا من يخدم علاجُه السياسية الأمريكية في المنطقة التي جاء منها، في الحقيقة لم يُغضبني أبدًا هذا الموقف، فمراكز العلاج في الدول الشيوعية أيضًا لا تقبل أن تُعالج — في مستشفى الكرملين مثلًا — إلا من يخدم علاجُه الجبهة الاشتراكية أو الشيوعية في العالم .. أو في تلك البقعة من العالم. لم آخذ المسألة بطريقةٍ عاطفيةٍ؛ لسبب أني أُدرك بعمق أننا لا نحيا في عالم رومانسي حالم شهم يُقدم العلاج للمحتاج بصرف النظر عن رأيه أو دينه أو مبدئه. عوالم صادقة تمامًا — وحتى صريحة جدًّا — مع نفسها ومصالحها. من معي أو ينفعني أُعالجه أو أعطيه. ومن ليس معي أو لا يُفيدني فمن الحمق أن أُضيع معه وقتي أو جهدي أو مالي.

المهم. في ذلك الخريف تصادف أيضًا أن كانت تلك الزيارة ذات الدلالة العظمى التي قام بها الرئيس السادات للولايات المتحدة. زيارة لم تأت من فراغٍ، ولم يكن مفروضًا أن تؤدِّي إلى فراغ، ففي كل حديث للرئيس الأمريكي فورد أو للدكتور كيسنجر مسألة النجاح الأمريكي في حل مشكلة الشرق الأوسط تُقدَّم كالمؤهل رقم واحد للفوردية الكيسنجرية ومن قبلهما النيكسونية. كانت تقدم وكأنها أهم من مشكلات التضخم وازدياد البطالة، أو

سياسة الوفاق، ذلك أنها لم تكن تُقدَّم إلى «جماهير» الشعب الأمريكي، وإنما كانت تُقدَّم إلى من هم أهم من مجرد كونهم جماهير .. إلى «صُنَّاع» الرأي العام الأمريكي.

ولنتوقف قليلًا عند نقطة الرأي العام هذه، أو رأي رجل الشارع .. فالكثيرون منا ومن غيرنا يأخذونها دائمًا وكأنها قضيةٌ مسلَّم بها، وما دام رأي رجل الشارع كذا أو رأي الجمهور كذا فلا بد أن هذا هو الحق. لا أحد جرؤ في حياته أن يتهم الرأي العام بالخطأ أو الخطل، إنما الكل إذا وصلت المسألة إلى الرأي العام، يسجد منطقيًّا ويؤمِّن على صوابية الرأي العام — إن جاز هذا التعبير — ذلك لأنه دائمًا رأي الأغلبية العظمى من أفراد الشعب، وما دامت الديمقراطية هي حكم ورأي وسياسة الأغلبية «مع الاحترام الواجب طبعًا لرأي الأقلية» فدائمًا هذا الرأي العام السائد هو الصواب.

وإذا كان لنا أن نعرف عدونا حقًّا فمن الواجب أن لا نعرفه فقط لنفسد خططه وإنما في أحيان لنتعلم منه، ولا بد لنا هنا إذن أن نُسلِّم أن اليهود كشعب وكسلالة كانوا — باعتبارهم في أي مجتمعٍ يكونون هم الأقلية — أدركوا أن قوتهم عمادها سلاحان رئيسيان: المال .. والرأي .. أو الدولار والفكرة. إذا كنت أغنى من في مجتمعك فقط فلن تكون أقوى من فيه، وإذا كنت أذكى الناس أفكارًا في مجتمعك فقط فستظل قوتك نظرية. أما إذا كنت تملك الفكرة والمال فأنت مالكٌ حينئذٍ العقلَ والجسدَ معًا، أنت في الحقيقة مالك الجهاز العصبي والجهاز الدوري، والباقي كله عضلات وعظام.

وقديمًا كان ينحصر الفكر في بعض الكُتَّاب وذوي الرأي، ثم بظهور الكتاب والمطبعة اتسعت دائرة أصحاب الفكر في المجتمع، ثم بظهور الإذاعة والتليفزيون وأجهزة مخاطبة عشرات ومئات الملايين معًا وفي وقت واحد وصلت «ديمقراطية» الفكر من الدائرة الضيقة التي كانت محصورةً فيها — وكانت تصل إلى الرأي العام منقولة «عن» المتحدثين أو عن الكتب والكُتاب — إلى أوسع دائرة وصلت إليها «الديمقراطية الفكرية»؛ حتى أصبح رجال ونساء الشارع يفكرون مع المفكرين ويبدون الرأي مع أصحاب الرأي. ومنذ أخذت هذه الوسائل تتسع وتشمل أعدادًا أكبر وأكبر من الناس، بدأ أولاد أعمامنا اليهود ذوو الذكاء الرهيب الذي تعمل به أي أقلية متضامنة في أي مجتمعٍ، بدءوا يدرسون ثم يتقنون ثم يستأثرون تمامًا «بصناعة» الفكر، وقد وصل «أرسطو» الواحد القديم، أو «فيثاغورس» المتواضع إلى عصر صناعة الـ mass production of thoughts.

وهكذا صاحب عملية تطور المجتمع الصناعي واتساع ديمقراطية الحكم أي الاتجاه أكثر فأكثر إلى أن «تختار» الأغلبية حكامها لتحكم نفسها بواسطتهم؛ صاحب هذا باستمرار اتساع قاعدة التفكير العريضة.

وأي حكم في الدنيا، ماذا هو على وجه التحديد؟ أليس هو عملية أن يختار المواطنون جميعًا أناسًا أو أفرادًا يودعونهم ثقتهم ليحققوا لهذه الأغلبية العظيمة «الأفكار» التي تراودها.

إذن الذي يحكم في النهاية ليس هو الشعب بجسده أو بوجوده العضوي؛ ولكنها «الأفكار» التي تسود هذا الشعب، وتتملكه، وتُسيِّره.

بمعنى آخر إذا كنت أنا كأقلية لا أستطيع أن أفرض على المجتمع العريض تمثيلي الجسدي له، فإني أستطيع أن أُنفذ سياستي أنا إذا استطعت أن أجعل الرأي العام الشعبي يتبنى أفكاري أنا ويسير بها.

من أجل هذا نلاحظ أن تركيز «أبناء عمومتنا» كان في القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وحتى العشرين يلجئون إلى الحكام والملوك ليكونوا مستشاريهم وصناع أفكارهم.

وما قصة يوسف الصديق وعمله وزيرًا لمالية فرعون تمهيدًا لجلب قومه إلى مصر بغريبة «أو حتى بعيدة»، نلاحظ أنه بانتقال السلطة تدريجيًّا من أيدي الملوك الأفراد والزعماء الأفراد إلى أيدي المجموعات الحاكمة التي بدأت تتكون؛ مثل مجالس اللوردات، ثم مجالس الشيوخ، ومجالس النواب ... إلخ.

ولا نجد في التاريخ الحديث مثلًا أوضح مما حدث في الولايات المتحدة لهذا «التسيد» على خزائن المجتمع ودولاراته من ناحية، ومن ناحية أخرى على عقول هذا المجتمع، أو بالضبط على أفكاره.

ولهذا أنا أرى أن «فضيحة» ووترجيت لها وجه آخر مختلف تمامًا عن كل ما سبق في تحليلها. وإليكم — في رأيي المتواضع، الساذج، كما سبق وحذرت — ما حدث:

عقب الحرب مباشرة والمآسي التي حدثت ليهود أوروبا، ولألف اعتبار آخر، ساد الحزب الديمقراطي الحياة السياسية الأمريكية، ذلك لأنه الحزب الذي لا يمثل الرأسمالية الأمريكية القُحة، وإنما هو في حقيقة أمره يمثل الأقليات الرأسمالية — وأكبرها طبعًا الرأسمالية اليهودية — المتحالفة معه والمرتبطة بأقسام كبيرة من الرأسمال الأمريكي — حزب في ظاهره يبدو أكثر تحررًا وأكثر شعبية؛ ولكنه الحزب الذي تحظى الدوائر اليهودية التي

أخذت تتبلور بعد قيام إسرائيل — على هيئة دوائر صهيونية علنية أو شبه علنية؛ تحظى داخل هذا الحزب بأكبر اعتبار.

ولقد ظل هذا يحدث إلى أن تورط الحزب في حرب فيتنام (التي بدأت في عصر كيندي)، وكاد يتورَّط في حرب عالمية (حادثة خليج الخنازير مع خروشوف وكوبا)، ثم التأييد المطلق الأعمى لإسرائيل ضد العرب في الشرق الأوسط.

وحين طال المدى وفتشت الرأسمالية الأمريكية ومن ورائها الطبقةُ المتوسطة والعاملة في أمريكا في دفاترها فوجدت أنها تخسر بهذه السياسات الخارجية عمياء التعصب على طول الخط؛ بينما — وهذا هو المضحك — سياسة داخلية أكثر تحررًا ساعدت هذه الفئات نفسها على اكتشاف الحقيقة؛ حينما فتَّشت ووجدت أنها تخسر، خاصة ورأس المال اليهودي ورأسمال الأقليات بعيد عن استثمارات البترول التي بدأت تمخر عباب الخط البياني صعودًا إلى القمة. حينها بدأت تنتعش هذه الرأسمالية الأمريكية القحة وتحاول أن ترى الأمور من وجهة نظر مصالحها هي الخاصة نجح نيكسون الجمهوري ضد منافسه الديمقراطي رغم حصول منافسة على تأييد الدوائر اليهودية قاطبة. وجاء نيكسون إلى الحكم، وفي نفس الوقت الذي لمع فيه نجم كيسنجر كمفكرٍ يهوديٍّ، هذا صحيح، ولكنه ليس متعصبًا ذلك التعصب الذي يجعله لا يفكر إلا لما تحت قدميه، فأمريكا تحمي يهودها ويهود إسرائيل إذا كانت قوية وقادرة على هذا الحمل، أما أن تظل تحمل ما فوق طاقتها — حتى لو كانت الدوائر الصهيونية هي الراكبة — فسوف تنهار أمريكا وينهار معها ما تحمله فوق كتفيها. كان المطلوب إذن ليس إنقاذ أمريكا ورأسمالها القح فقط، ولكن إنقاذ الرأسمالية العالمية نفسها، تلك التي كانت تدفعها سياسة الديمقراطيين بقيادة الصهيونية لسياسة عنيفة تجاه روسيا والمعسكر الشرقي، وتجاه العالم الثالث وبالذات تجاه العرب.

وفعلًا، انتهت المواجهة تمامًا في فيتنام، وُقعت اتفاقية سيناء في الشرق العربي، استفاد الرأسمالي الأمريكي من المقاطعة البترولية ورفع الأسعار إلى درجة ركعت الرأسمالية اليابانية والألمانية والأوربية، وبالتالي الرأسمالية في العالم كله بما فيه خلفاء ديجول، وأمسك الرئيس الأمريكي لأول مرة منذ أمدٍ طويل بمقود السفينة الرأسمالية كاملة.

وسمَّى الناس ما تمَّ إسفينًا حدث بين اليهود الأمريكيين وإسرائيل وبين أمريكا السلطة والدولة والرأسمال، وسمَّوه: سياسة التوافق، وسموه أشياء كثيرة، إلا أن اسمه الحقيقي كان بداية عهد أن تقود الرأسمالية الأمريكية القحة الولايات المتحدة والعالم الرأسمالي كله، لمصلحتها، وبصرف النظر إن تضامن هذا أو تناقض مع الأقليات الرأسمالية الأخرى، وعلى رأسها الرأسمالية اليهودية.

وهنا دقَّ ناقوس الخطر.

فمعنى هذا أن تستقل السياسة الأمريكية، أو بالأصح رجال السياسة، عن التوجيه السياسي والفكري للدوائر الصهيونية العالمية، والأمريكية بالذات.

ولهذا فكان مطلوبًا وبسرعة حل «بحجم» — على رأي إخواننا الشوام — أولًا: الرئيس الأمريكي.

للتمهيد ثانيًا «لتحجيم» الجمهوريين الرأسماليين الأمريكيين القح. ثالثًا وبسرعة: إنهاء حالة وحلاوة وثمار استقلال الرأسمالية الأمريكية عن أي نفوذ يهوديٍّ، وهذا لا يكون إلا — ليس فقط بالتحجيم دائمًا — بإزاحة الحزب الجمهوري كله من الحكم، لعودة حكم «الجبهة»، تلك التي تستطيع الدوائر المذكورة أن تلعب — وبسهولة وخفة يد عظمى — في مياهها، حتى لو كانت رائقة كمياه البيسين.

و«فضيحة» ووترجيت لن يذكرها التاريخ — إذا كان جادًّا حقًّا كتاريخ — إلا كنُكتة .. نكتة هائلة الضخامة، ضحك بها ليس فقط على شعب كبير عظيم ذكي مثل الشعب الأمريكي، ولكن على عالم كبيرٍ وذكيٍّ مثل عالمنا المعاصر.

صحيفة الواشنطن بوست هي أهم مصنعٍ صحفيٍّ تُصنع فيه الأفكار.

وآه من عملية أن «تصنع فكرة».

الأمر ليس فهلوة كما تعودنا أن نفعل هنا، وليس لعب عيال كما تفسر بعض الحكومات حقائق دامغة في بعض الأحيان. الأمر هنا أمر ذكاء مفرطٍ ودقة متناهية، وعلمية شديدة داخل فيها علماء اجتماع ورجال دين، وممثلات سينما ودهاة مخابرات، وخبراء في كل فرع ولون وملَّة.

ولهذا لم يكن صدفةً أبدًا أن الذي بدأ «فضيحة» ووترجيت صحفيان شابان من صحفيي الواشنطن بوست، أصبحا الآن أشهر صحفيين أمريكيين بطبيعة الحال.

بقى يعني أمريكا التي يُغتال فيها رئيسها كيندي وتؤلف لها ألف لجنة وتحقيق لا تستطيع العثور على القاتل الحقيقي أو القتلة الحقيقيين وراء الحادث، والتي يُغتال فيها مارتن لوثر كنج وأيضًا لا يُعثر لقاتله على أثر!

أمريكا التي صعَّدت الجريمة إلى عصر الفضاء والمعجزات، وأصبحت المافيا فيها في مستوى علم وأسرار الطبيعة النووية، وفيها من يستحقون — بجدارةٍ — جائزة نوبل في الإجرام. واسمحوا لي هنا أن أستطرد بمناسبة جائزة نوبل التي مُنحت للكاتب اليهودي

الأمريكي «سول بيلو»، والذي حين دعتني جامعة شيكاغو عام ١٩٦٦م لأكون «كاتبًا زائرًا» في قسم الشرق الأوسط كان هو في نفس الوقت يعمل كاتبًا أمريكيًّا زائرًا في كلية الآداب بنفس الجامعة، وحدث أن التقينا عند الأساتذة ودعوته على العشاء (أنا الذي دعوته والله، مع أننا كنا في أمريكا)، وخلال الساعات الست والثلاثين التي كانت لا تزال أمامي ليحين ميعاد الدعوة حاولت أن أعرف عنه شيئًا من خلال إنتاجه، فذهبت إلى مكتبة الجامعة واستعرت الروايات الخمس — وقد كانت كل ما كتبه حتى ذلك الوقت — وبدأت قراءتها وفي ذهني الإطار الذي أدخله في روعي الأستاذ الذي عرَّفني به حين قدَّمه لي باعتبار أنه «أحسن كاتب روائي أمريكي»، أقرأ وأذهل ثم أغلق الكتاب وأعود أقرأه، أتناول قصة أخرى. أُكرر المحاولة لا لمحة عبقرية واحدة ألمسها، قصة قصيرة واحدة لهيمنجواي، بل رواية لفرانسواز ساجان أعظم بكثير من هذا الكاتب ذي الروح الميتة التي يُحاول أن يصور بها بطلًا واحدًا خلال القصص الخمس، يهودي وحيد ضائع وأحاسيسه التي لا تُريحك أو حتى تستثير شفقتك، عالم شاحب لا تخترقه شهابة انفجارة أو مفاجأة إحساس، وأقسم أنِّي جاهدًا ومخلصًا حاولت أن أُركز كل طاقتي وأقرأ له رواية كاملة وكأنها واجب مدرسي، ولم أستطع أبدًا أن أُتمها. ولكني أيضًا لم أَعجَب أبدًا أو أندهش حين نال جائزة نوبل — لنفس هذه الأعمال — لهذا العام، فهو كاتبٌ ويهودي وأمريكي. وجائزة نوبل. جائزة داعرة يمنحها داعرون سياسيون باسم الأدب، وكل ما فيها إما مُسخَّر لإذكاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وإما لجعل أكبر عدد ممكن من «علماء» اليهود — أمريكيين أو غير أمريكيين — ينالونها، ولنراجع معًا من فاز بها ولماذا خلال الأعوام العشرين الأخيرة؟ إن ما أزعجني حقًّا أن الصناعة الغربية كانت دائمًا متقنة، حتى الصناعة المغشوشة منها كانت متقنة .. أما أن يأخذ سول بيلو الجائزة وفي العالم مارلو، وجارثيا، وألان روب جرييه، وليوبولد سينجور، وجنتر جراس، وألبي، ومولك راج أناند ... وعشرات غيرهم في أمريكا اللاتينية وتركيا واليونان، وحتى في عالمنا العربي أستطيع على الأقل أن أعد عشرة من الأحياء يتوارى أمامهم كل ما كتبه مستر بيلو خجلًا. ولكنها جائزة لم تعد تُخفي وجهها، فهي بصفاقة غريبة تُطلُّ من باب «الأدب» وتقول: صهيونية أنا، والأفضل عندي دائمًا هو اليهودي السامي. وكأنها تُحرِّض العالم ليصبح كما يودون وكما يصورون: ضد السامية. ولكن لحسن الحظ فالعالم أرقى من هذه العقول التي تؤجج الأحقاد والنعرات العنصرية. وتحت شعار — يا للوقاحة — القيم الإنسانية ومحاربة العنصرية!

وأيضًا، ما علينا.

السؤال هو: هل لو كان أصحاب الواشنطن بوست أو المشرفون على تحريرها، ثم الموجهون لجرائد وتليفزيونات ومحطات الإذاعة الأمريكية والنوادي وقاعات المؤتمرات والمحاضرات، باختصار؛ صنَّاعَ الرأي العام، هل لو كان هؤلاء لا يريدون لووترجيت أن تكون، أيمكن أن تكون قد حدثت؟ هؤلاء الذين تغاضوا عن اغتيال رئيس بأكمله، وأكبر زعيم زنجي بأكمله، أكان سيؤرق ضمائرهم كثيرًا أن يتغاضوا عن أن رئيسًا «أمر» بأن يستمع بعض مساعديه إلى مكالمةٍ تليفونية يُجريها أفراد الحزب المنافس؟ يا سلام على الضمائر الحساسة، وبالضبط عند اللزوم! والنتيجة: بره يا أستاذ نيكسون وبفضيحة مدوية. بره لأي رئيسٍ أمريكي يحاول أو يفكر أو يجرؤ مرة أخرى أن ينفرد، حتى لو كان يمثل فعلًا مصلحة أمريكا الرأسمالية الحقيقية، باللعبة.

وليس هذا فقط، فعلى الكونجرس الذي آلت إليه أجزاء كبيرة من مسئوليات رئيس الجمهورية بعد طرد نيكسون، أن يحذر هو الآخر. ففضائح الجنس ومعداتها جاهزة، وممكن حتى أن يُحاسب — على رأي الكاتب الساخر بو كوالد — على «الزنا بالنظر» فالرأي العام قد تنبَّه، وتنبه إلى أن الذين يحكمونه لا بد أن يكونوا «أطهارًا». هذه «الفكرة» هي عينةٌ واحدة من عينات «صنع» أفكار الرأي العام وخلق محظوراته و«تابلوهاته».

وكان النفخ فيها والتضخيم أمرًا لا مفر منه؛ لأن الهدف لم يكن التخلص من رئيس جمهوري كنيكسون بدأ يصنع علاقات مباشرة مع ألد «الأعداء» السابقين: الصين وروسيا والعرب، فإن سريان الماء مباشرة بين البيت الأبيض أو حتى بين الكونجرس وبين بكين وموسكو والقاهرة والرياض والجزائر وبغداد والكويت مسألةٌ مخيفة، قد تجعل المؤسسة الأمريكية تستغني تمامًا عن هذا السمسار النيويوركي الذي لا يزدهر إلا بالمضاربة والمواجهة وازدياد التوتر، وخلق عداوةٍ صليبية «تُخيف» الأمريكيين دائمًا وتجعلهم باستمرار أسرى الأفكار التي يصنعها لهم صُنَّاع أفكار الرأي العام الأمريكي، وبالذات الدوائر الصهيونية المسيطرة سيطرة شبه كاملة على أجهزة توجيه الرأي العام.

سابقًا كانوا يحكمون عن طريق الملك المطلق، إذا كان هناك ملك مطلق.

إذا جاءت الرأسمالية والديمقراطية يسيطرون على الأحزاب بدعوى الاشتراكية العالمية «الشيوعية» مرة، والاشتراكية الديمقراطية العالمية «الاشتراكية» مرة وحتى الاشتراكية الوطنية (التي يُسمونها الأفكار الفاشية والنازية).

ولكن أعلى تلك المراحل على وجه الإطلاق، هو ما حدث في أمريكا، فما دام الذي يُقرر من يكون السناتور ومن يكون الرئيس هو الرأي العام المكون من الناخب العام والمواطن

العام، فليكن الهدف على وجه التحديد هو «صياغة» الرأي العام كما نريد وندعو، هو بعد هذا يختار الأشخاص الذين يُنفذون هذه السياسة وتلك الأفكار فهي أفكارنا وسياستنا.

ومن المؤسف أن عصر ازدهار أجهزة الاتصال الجماهيرية الواسعة يُحتم بالضرورة — لأنه أيضًا عصر الإنهاك العصبي المستمر والاستنزاف الفكري — ازدهار الأفكار الوقتية والسهلة والمتداولة وغير الشخصية وغير العميقة وغير المدروسة، بحيث أن «صناعة» الأفكار لم تعد تقتضي التمعن والعمق وإنما أصبحت تتطلب أن تكون «كبيرة ولذيذة»، و«سهلة على العقل، وسهلة على المعدة»، أسهل أن تُروج أن أمريكا في خطر وأن الشيوعية تزحف، وأن لا بد من تقوية الكنائس والأديان لمواجهة خطر الإلحاد الماحق، والوفاق مصر وإسرائيل هي معقل الديمقراطية بين عرب أثرياء سفهاء ينفقون بتهور ويُكنون لنا العداء.

وهكذا كان لا بد أن يذهب نيكسون والجمهوريون، ويأتي كارتر والديمقراطيون. كان عظيمًا جدًّا لو جاء كارتر والديمقراطية، ولكن المؤسف أن الديمقراطيين في أمريكا الخارجية رجعيون تمامًا ولا علاقة لهم بديمقراطية الداخل.

ولهذا فإشفاقًا على العالم مما قد تورطه فيه سياسة خارجية أمريكية، إشفاقًا على العالم من حرب المذاهب الوهمية التي يروح ضحيتها بشر حقيقيون أثمن — في رأيي — من أي مذهب، إشفاقًا على منطقتنا العربية بالذات أن تعود إليها أمريكا الهراوة والانحياز الأعمى، إشفاقًا على العالم من سياسة لا يُراد لها في النهاية إلا مصلحة خبثاء يستغلون فكرة وفلسفة شعب الله المختار وأرضه المختارة نفسها؛ أتمنى لو تصل أفكارنا نحن، وضروري هناك طريقة لكي يعرفوا هناك ما يدور في رءوسنا نحن، فمجيء كارتر هذه المرة قد يكون صعودًا بالرئاسة الأمريكية إلى عهود روزفلت المجيدة، أو هبوطًا بها إلى عهود جونسون — غفر الله له.

إن مفترق الطرق هذا في حاجةٍ إلى وقفةٍ طويلة، خاصة من أولئك الناخبين حَسَني النية الذين جاءوا بكارتر في سبيل حكم أفضل ومنطق أسمى من منطق القوة الغاشمة، وذمم أنظف بكثير من تلك التي تُحاسب رئيسًا لأنه تسمَّع على خصمه، ولا تحاسبه لأنه قتل عشرات الآلاف من الأبرياء في فيتنام وذبح عشرات من أخلص الخلصاء في شيلي وغيرها.

مفترق طرق نعم، لأمريكا، وللعالم، وبالذات لهذا الجزء العربي من عالمنا.

وهذا .. أو الجهجهون.

ومعذرة لقد نسيت ... إلى الأسبوع القادم يا مستر ميللر .. ويا مارلين مونرو.

محور نيكسون-يونس

مثل ماري أنطوانيت وهي تُساق إلى المقصلة وقف «بطل» الساعة أحمد يونس في مجلس الشعب يصرخ: لماذا أنا، وهناك احتلال إسرائيلي لسيناء؟ لماذا أنا، وهناك مذابح في لبنان؟ لماذا أنا، وهناك أزمات المواصلات والمجاري والتليفونات .. وهناك أعاصير رهيبة في الصين وزلازل في الفلبين؟ لماذا أنا بالذات؟

والحقُّ أني حين أمعنت النظر في صورة الرجل وهو يهتف بهذا الحق وجدت أن ملامحه تنطق بكلام آخر تمامًا، إذ كان وكأنما يريد أن يقول: لماذا أحمد يونس وفي البلد آلاف من أحمد يونس وأكبر بكثير من أحمد يونس؟ .. لماذا على رأسي أنا وحده أن يطير؛ بينما الرءوس يانعةٌ وكثيرة وتعجُّ بها البلد وفي حاجةٍ ماسة إلى ألف حجاج ثقفي — وقد حان قطافها — أن يقطفها.

ولكنه لم يقل هذا بالطبع، فهو لم يصل بعد إلى مرحلة اليأس الكامل، ولم يقرر هدم المعبد ويقول: عليَّ وعلى أصدقائي. إذن فالأمل لا يزال يُداعبه أن ينجو بالذات تنجية هذه الرءوس نفسها، أو إذا عاقبته فليكن بنقله من الاتحاد الزراعي التعاوني إلى الاتحاد الصناعي التعاوني، مع لفت نظره إلى «ضرورة مراعاة ذلك مستقبلًا»!

والحق أن هذه ليست أول مرة أرى فيها صورة لبطل يُناشد الأرض والسماء «العدالة» .. منذ عامين ربما رأيت صورة للرئيس نيكسون في اللحظة التي قرر فيها أن يستقيل ويغادر البيت الأبيض إلى الأبد يُعانق زوجته، وينحني ليضع رأسه — المتعب تمامًا — فوق كتفها، ولا يبدو واضحًا أنه كان يبكي، ولكن المؤكد أنه كان يفعل شيئًا أتعس من البكاء، ولا بد أنه هو الآخر كان يقول: ولماذا أنا، وكل الرؤساء فعلوا هذا؟ كل رئيس حزب في التاريخ تجسَّس على خصومه، كل غني حاول التهرب من الضرائب، كل متنافسٍ استحل لنفسه أن يتبع أي طرق، وأحط طرق، للفوز على منافسه.

فلماذا أنا؟ لماذا وهناك مشاكل الشرق الأوسط والأدنى؟ لماذا وهناك سياسة الانفتاح مع روسيا؟ لماذا ومصير أمريكا كله مُعلقٌ في يدي أنا؟ لماذا بالذات، ولماذا ووترجيت بالذات وكل مكان في أمريكا قد شهد ووترجيت بطريقة أو بأخرى؟

والحق أن محور «يونس-نيكسون» دفعني للتفكير طويلًا في هذا الأمر، خاصة بعد أن انضم إليهما السيد المحترم «تاناكا» رئيس وزراء اليابان الأسبق «وعضو الحزب الحاكم الحالي»، وقد ضبط «هابرًا» — أرجو أن تكون هابرًا صحيحة لغويًّا — مليون ونصف مليون دولار من شركة لوكهيد، ثم انضم إلى النادي ذلك الأمير زوج ملكة هولندا ... وأسماء كثيرة أخرى عالمية الشهرة بدأت تتسرب إلى الصفحات الأولى في الجرائد العالمية والمحلية باعتبارها من نجوم «فضيحة» شركة لوكهيد؛ وقادتني أفكاري إلى حكاية «الفضيحة» هذه كيف «تسربت» أخبارها إلى الصحافة الأمريكية والعالمية، وأي قوةٍ في العالم ممكن أن تضبط حالة رشوة بهذه الطريقة ثابتة المستندات، وكأنها جاهزةٌ للتقديم عند الحاجة إليها؟ أهي سذاجة منقطعة النظير من شركة هي بالتأكيد أضخم وأدق شركة لصناعة الطائرات ومحركاتها في العالم، أم أن للمسألة وجهًا آخر مختلفًا تمامًا — في رأيي — عن كل هذه المسرحية التي تدور فصولها على مسمع ومرأى من العالم؟

ولكي نتبع خيط أحمد يونس وقصة الاتحاد الزراعي التعاوني لا بد أن نبدأ من ووترجيت .. والحق أن هناك وجهات نظر كثيرة ومختلفة في حكاية نيكسون ووترجيت هذه، ولكنني أميل إلى الرأي القائل: إن الدوائر الصهيونية التي تُسيطر على دور الصحف والنشر والتليفزيون والإعلام في أمريكا لما شعرت بتحلل الرأسمالية الأمريكية الضخمة متمثلة في الحزب الجمهوري والرئيس السابق نيكسون ورغبتها في التخلص من المائة في المائة تأييد لإسرائيل ومعاداة للعرب، هذا غير الإجراءات الداخلية المتمثلة في المحاصرة الاقتصادية لوكر الرأسمالية اليهودية في نيويورك؛ أرادت أن تضرب عصفورين بحجر واحد، أن تُلقي درسًا رهيبًا على كل الرؤساء الذين يفكرون في «الاستقلال» عن المؤسسة الصهيونية الأمريكية من ناحية، ومن ناحية أخرى تنقل مركز اتخاذ القرارات من الرئيس ومجلس الأمن القومي إلى مجلس الشيوخ والسناتورات، باعتبار أنهم أكثر قابلية للتأثير عليهم بواسطة الناخبين الذين تُوجههم وسائل الإعلام المختلفة، التي تخضع بالتالي للنفوذ الصهيوني؛ بل إن هذه الدوائر الصهيونية لم يكْفها إرهاب الرؤساء على هيئة رأس الذئب الطائر «نيكسون»؛ وإنما تلفتت إلى أعضاء الكونجرس أنفسهم تُرهبهم بالفضائح الشخصية، وبالاتهام بالعلاقة بالسكرتيرات، بل ودسِّ سكرتيرات جميلات «يوقعن» السناتورات الذين معظمهم فوق

الخمسين، ويصبحن وسائل ضغط وإرهاب مُسلَّطة على هذا السناتور أو ذاك؛ بحيث من الممكن استخدامها وقت الحاجة .. ووقت الحاجة دائمًا ما يجيء، ولا زلنا كلنا نذكر كيف أن الكونجرس الأمريكي هو — وليس فورد — الذي أصرَّ على رفع الإعانة إلى إسرائيل، وأجبر الحكومة على رفعها.

ولكن هذا كله ليس المهم في فضيحة ووترجيت، فأخطر من هذا كله أن الفضيحة تُحاكم الرئيس، ومن بعده السناتور أو غيرهما. محاكمة أخلاقية فقط.

بمعنى أن الصحافة والرأي العام الأمريكي بدلًا من أن يُحاسب نيكسون أو غيره على دوره في فيتنام مثلًا، أو دوره في حرب أكتوبر، أو دوره في مذبحة شيلي — أي دوره السياسي الأخطر بكثير جدًّا من أخطائه الأخلاقية أو الشخصية — يُحاكمه على تلك الأخطاء الشخصية فقط، وذلك بهدفين خطيرين جدًّا؛ الهدف الأول: أن يُبرئ «النظام» السياسي نفسه من أية تُهم سياسية أو أخلاقية. بمعنى أن النظام مضبوط تمامًا ولا عيب فيه مطلقًا؛ إنما العيب هو في «بعض» الأشخاص، وحتى ليس في بعض الأشخاص — كسياسة أو سياسيين — ولكن في بعضهم كنقط ضعف أخلاقيةٍ فقط، الهدف الثاني: أن يخلق لهذا النظام الفاسد غطاءً رائعًا برَّاقًا، غطاءً ديمقراطيًّا جميلًا حرًّا، أو تريد أكثر من أن يستطيع أي نظام أن يقبل رئيسه؟ أليس هذا مهرجانًا للحرية والديمقراطية وقوة تأثير الرأي العام ووسائل الإعلام؟

وليس إذن «تبرئة» للنظام كله فقط من كل الجرائم والأخطاء السياسية والاقتصادية والإنسانية، حتى وإن كان الثمن التضحية بكبش فداء ولو كان رئيسًا للدولة أو رئيسًا للوزراء، ولكنها تبرئة مصحوبة «بزفة» هائلة من باب المحكمة إلى باب البيت، حافلة بالرقص الديمقراطي العظيم وإطلاق بالونات الحرية وضرب النار في الهواء، أو في بطون الأمهات في بيروت، آخر مولد للحرية، واستنبات هائل لإيمان جديد يترعرع لنظام هو أعلى ما وصلت إليه البشرية من مستوى في العدالة والحرية.

ومن مميزات النظام الرأسمالي في العالم كله، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص أنه نظامٌ ذكيٌّ جدًّا، بارع تمامًا في الاستفادة من أخطائه ومن اكتشافاته .. وهكذا فلم تكن ووترجيت وسيلة فقط لخلع رئيس بدأت شكيمته الأمريكية القحة تقوى، وتأديب سناتورات كانوا في طريقهم للتمرد، وإنما أيضًا — وهذا هو المهم — كان اكتشافًا أمريكيًّا رائعًا جدًّا ليس فقط لتبرئة النظام في أمريكا، ولكن لتبرئة الرأسمالية في العالم كله والدفاع عنها.

كانت قضية حدثت دون وعيٍ كاملٍ بأبعادها؛ ولكن بعد حدوثها، اكتشف أنها ممكن استعمالها كدواء سريعٍ عاجل، وكأحدث صيحة لإطالة عمر الأنظمة الحاكمة المتهرئة، الدائرة في الفلك الرأسمالي المهيمن على عالم اليوم. إن «الووترجيتية» هي أحدث الطرق لإخفاء عيوب النظام بإظهار عيوب بعض أفراده.

وهكذا بدأت «فضائح» لوكهيد «تتسرب» و«تتهم» رئيس وزراء هنا، وأميرة أو أمير هناك، وفي سبيل إنقاذ حزب الديمقراطيين الأحرار ونظام الحكم في اليابان ما المانع من الإطاحة بسمعة ورأس السيد تاناكا؟

كنت أفهم أن يقوم مجلس الشعب ولا يقعد؛ لأنه يُناقش ليس فقط سياسة الاتحاد الزراعي التعاوني، ولكن يُناقش لماذا قام؟ وماذا يفعل؟ وماذا فعل للفلاحين أو للمزارعين أو لحركة التعاون في مصر؟ أما أن يقوم مجلس الشعب ليناقش إهداء عربة شيفروليه لرئيس مجلس الشعب الأسبق أو غير هذا من التصرفات، فصحيح أنه عملٌ خطير كان المفروض أن تقوم به النيابة العامة ومن زمن بعيد، وهذه هي الشطارة أو الحق أو العدل، إن كان هناك وجود للشطارة أو الحق أو العدل، ولكن دور مجلس الشعب أن يُناقش «ماهية» الأشياء وسياستها ودورها وفاعليتها، أن يناقش نفسه حتى والنظام الذي يسمح لأعضائه أن يتقاضوا مكافآت من زملائهم الذين يتحملون مسئوليات في الدولة ويزاملونهم .. كنت أفهم أن نقوم جميعًا لنناقش الأسباب التي تؤدي في المجتمعات إلى أن يفرخ أمثال أحمد يونس والمغربي والمئات، وسيظل يفرخ أمثالهم وربما من هم أكثر جشعًا وخراب ذمة.

لبنان هو البداية

وبعد ..

هذا هو لبنان قد قُسِّم أو هو في الطريق، ومع هذا لا تزال الدماء وبوعورة تسيل .. ها هم المسيحيون سيستقلون «بإسرائيل» المارونية الجديدة، وها هم المسلمون سيستقلون «بإسرائيل» السُّنية الشيعية الدرزية الجديدة .. فهل هذه هي النهاية؟ وهل ستكف الحرب مستقبلًا بين المارون والأرثوذكس، وبين اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين، وبين السنة والشيعة والدروز؟ وهل إذا كفَّت الحرب في لبنان ستكف في مسقط أو عمان أو الصحراء أو السودان؟

أما آن الأوان أن نفيق قليلًا أو نرفع رءوسنا الممتلئة خدرًا وحربًا وطموحات وأحقادًا وأدرانًا ونتساءل: أليس هناك طريق آخر؟ إن لبنان قد يبدو النهاية، ولكن الحقيقة المُرَّة أنه ليس سوى البداية، والطريق أكثر وعورة مما قد يتصوره بعض حَسَني النية؛ بل لا أبالغ إذا قلت: إن المشكلة الفلسطينية برمتها، مشكلة اغتصاب قطعة من قلب الأمة العربية، والاستعداد للزحف على بقية الأجزاء أيضًا ليست سوى مقدمة متواضعة لما ستتمخض عنه الأيام.

أعتقد أنه قد آن الأوان لنرفع رءوسنا المخبأة ونُجابِه بعض الحقائق:

أولها: حقيقة ما تكشف لنا وللعالم كله الآن، أننا شعبٌ عربيٌّ كبير هذا صحيح، ولكننا فكريًّا أفقر الشعوب، ومع هذا فنحن نعيش فوق أغنى كنز اكتشفته البشرية في كل تاريخها القريب والبعيد .. نحن أفقر الناس نحيا فوق أغنى أرض، وليس القياس فقط بالقيمة النقدية لهذا الكنز؛ إنما القياس بأهمية هذا الكنز ليس للبشرية قاطبة؛ وإنما بالذات للنظام الغربي في العالم كله، وللصراع القائم بينه وبين النظام الشرقي، إذ هو كنز الطاقة التي تُحرك حضارة العصر الحديث بأكملها. وأنا لو كنت من أمريكا لما

حفلت باستعمار العالم عسكريًّا أو بشنِّ حروب، يكفي أن أحتكر ثلاثة أشياء تجعل العالم كله يركع تحت أقدامي: القمح، أي الخبز، أملك سوقه وحق منعه أو إعطائه، والطاقة، أملك حق تخزينها أو توزيعها وتحديد سعرها واستهلاكها، والتكنولوجيا، وبالذات أسرارها العليا. إن من يملك هذه الأشياء الثلاثة يحكم العالم كله، وتأتيه أغنى دولة شيوعيةٍ أو معادية خاضعة أو متقربة، ومن بين هذه الثلاث تلعب الطاقة الدور الأول. فهي التي تزرع القمح وتُسيِّر التكنولوجيا وترسل فايكنج إلى المريخ. والطاقة يحيا فوقها العرب، ولكي يمكن الاستيلاء على الكنز والتحكم فيه لا بد أولًا من الاستيلاء على هؤلاء العرب.

ثانيًا: ثبت أن الاستيلاء على هؤلاء العرب مسألةٌ أسهل بكثير من اغتصاب فلسطين، أو تحويل إسرائيل إلى ثكنةٍ عسكرية أمريكية تعتبر حاملة طائرات ودبابات أرضية، هي ومعها الأسطول السادس البحري، كفيلان «بإخضاع» هذا الشعب الراقد فوق أثمن كنز .. جربت السياسة الأمريكية منطق القوة الغاشمة هذا خلال الخمسينيات والستينيات فكانت النتيجة نوعًا من التماسك العربي الذي كاد يؤدي إلى وحدةٍ عربيةٍ وعسكرية على الأقل — كانت في سبيلها لأن تُصبح وحدة سياسية — وصحيح انتهت هذه السياسة بانتصار ٦٧ وهزيمة عبد الناصر رمز هذه القوة العربية الصاعدة، ولكن الهزيمة لم تُفرق العرب، بل جمعهم مؤتمر الخرطوم، وكاد التضامن العربي بعد الهزيمة يؤدي إلى كارثةٍ.

من أجل هذا كان لا بد أن يُغير الغرب سياسته ويأتي بالكيسنجرية لتفتح ملفات المنطقة — قديمها وحديثها — وبالذات الملفات الإنجليزية وتتفحصها بعنايةٍ فائقة، وما أروع ما وجدت الكيسنجرية!

ثالثها: وجدت السياسة الأمريكو غربية الجديدة أنْ لا وجود لشيء كبير اسمه أمة العرب طالما صدرت باسمه الصيحات من صوت العرب، إنما وجدت منطقة موبوءة بالقطرية والعشائرية والقبلية والتناحر الديني والطائفي والعرقي، وجدت عشرات ومئات وآلاف من الحزازات الكبيرة والصغيرة أَجَّجَتها كلها حتى بلغت درجة الجحيم، صرخة الثورة السوداء المتفجرة من باطن الأرض، وبعكس ما فعله الإسلام حين هبط من السماء يوجه العرب ويبني حضارة عربية عظمى، ها هو البترول يفعل ما يفعله الشيطان، ويتفجر من باطن الأرض ليشتت ويفرق ويخلق دُوَلًا في أشدِّ الثراء وثراؤها في أيدي قِلة، ودولًا في أشد الفقر وفقرها ملك للكثرة، وليضيف إلى الصراع الطائفي والعشائري والقطري

والفئوي صراعًا طبقيًّا ليس فقط بين الطبقات في البلد الواحد، ولكن بين الطبقات من دول المنطقة، صراع طبقي بين الدول والشعوب وبين الشعب الواحد، بل حتى بين أفراد القبيلة أو القرية الواحدة.

رابعها: ما ضرورة الترسانات المسلحة إذن والأساطيل الأرضية والعائمة إذا كانت النار موقدةً وتحت الرماد، وإذا كان عود الكبريت الواحد كفيلًا بإشعال حرب يُقتل فيها من العرب أضعاف ما يمكن أن تقتله إسرائيل أو غير إسرائيل؟ «العرب» بأنفسهم عندهم الحل، وخلافاتهم وحزازاتهم كفيلةٌ بنضح الكنز تمامًا قبل أن يفرغوا هم من خلافاتهم التي امتدت من أيام الجاهلية إلى عصرنا الحاضر.

خامسها: وحتى لا تحدث الكارثة ويبقى مال العرب في أيدي العرب وفي بلاد العرب فلنصوِّر لهم أن بإمكانهم أن «يشتروا» الغرب، أي يصبحوا من أغنياء الدول الرأسمالية الثابتة غير المهددة بخلافات وحروب ومصادرات وتأميمات بلادٍ عربية غير مستقرةٍ .. صحيح أنه مجرد شراء «نظري» مقابل أوراق نقد مودعة في بنوكنا نتحكم نحن في قيمتها، بل حتى في قيمة رصيدها من الذهب (خسِر العرب حوالي خمسمائة مليون دولار نتيجة التخفيض الأخير في سعر الذهب)؛ ولكن المال لا يزال مالنا، والمؤسسات — رغم شرائها — مؤسساتنا، والمهم أن تبقى النقود بعيدة تمامًا عن «الأرض» العربية، وعن «المؤسسات» العربية، وعن كل ما يُساهم في جعل بلاد العرب للعرب، حتى لو أصبحت وقفًا على الأغنياء العرب.

سادسها: إن تجربة لبنان أثبتت أن عداء العربي للعربي لا يزال أقوى من عدائه لأعداء العرب، فلنستثمر هذه التجربة، ولأبعد مدًى، ولتنتشر عدواها من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، وإنما حذارِ من حريق كبيرٍ يجتاح المنطقة كلها، فلتكن الجرعات منتقاة بعناية وبدقة، وليكن كل حريقٍ موقوتًا بحيث لا يحترق الكنز، وإنما ينشغل «أهل» الكنز، بكل حريقٍ ينشأ ويختلفون، ويتبادلون التهم، وينعقدون وينفَضُّون، ويدبُّ فيهم اليأس من عروبتهم نفسها، ويلتفتون إلى الخلاص الفردي، كل غنيٍّ يفكر بالهجرة بأمواله إلى الخارج، كل تكنوقراطي يفكر في العمل في بلد «متحضر» فليُستنزف المال والذكاء والبترول، ولنُبقِ لهم الصحراء والحزازات والفقر يتناحرون حولها.

وبعد؟!

يا مفكري العالم العربي.

يا شبابه.
يا عقلاءه — إن كان قد تبقى عاقل.
ولا أقول أبدًا يا حكوماته.
أرجوكم!
اعقدوا مؤتمرًا — وفورًا — لنتدارك الجهنم التي نحياها والجهنم الأكبر التي تُجهَّز لنا.

وما أدراك ما القلق!

أستطيع أن أقول: إني كنت — زمان — أُعاني من مرض الاكتئاب .. ذلك لأن الخاصية المضحكة المأساوية للاكتئاب أن الشخص الذي يبدأ يُعاني منه، لا يحس ذلك، وإنما يغوص في حالته دون أن يدري.

والاكتئاب ليس هو «الزعل» كما هو شائعٌ ومعروفٌ عنه، ليس هو الميل للحزن والوحدة ... إلخ. وإن كانت هذه بعض «أعراضه». الاكتئاب علميًّا هو نوع من أمراض «القلق» النفسي، ويحدث كرد فعلٍ لا واعٍ لمشاكل عقلية ونفسية، عقلانية وغير عقلانية .. وأنا حين كنت مصابًا بالاكتئاب كان الأطباء حين يذكرون هذا لي لا أجد لكلامهم معنًى أو صدًى في نفسي، فقد كنت «داخل» الحالة، ومن يكون داخلها لا يستطيع أن يعرف لحالته سببًا، بل هو لا يدرك أصلًا أنه غير طبيعيٍّ، كل ما في الأمر أنه بعد أن يُشفى يحس أنه فعلًا كان دائمًا متوتر الأعصاب، يزدرد — وكأنما رغمًا عنه — الطعام والشراب، ويتجرع الحياة اليومية بمرارةٍ، يقوم ولا رغبة لديه أن يقوم من نومه، فاتر الهمة تجاه كل شيء. الهدف، هدفه اليومي، وهدف حياته أصلًا غير واضح مطلقًا أمام عينيه، يتخبط، تارة تعتريه حالة من المرح الكئيب المبالغ فيه، وأحيانًا يبكي وكأنه حالًا فقد أبويه وأصبح طفلًا يتيمًا محاطًا بالظلام الكامل. أحيانًا أخرى تعتريه نوبة تمردٍ هائلة، وفعلًا، كالسجين المحاصر حين يُحاول الفرار، يتمرد، ويرتكب حماقات، ويشبع نفسه بكمية حقدٍ مفاجئة على شخص ما أو وضع ما، وكأنه هو السبب في كل متاعبه. حالات تمرد ومحاولات لإخراج الطاقة العدوانية الكامنة في كل البشر، والتي تتحول عند الأصحاء الأسوياء إلى طاقة إبداع مثلًا، أو قهرٍ عاقل للظروف المعوقة أو الأشخاص المعوقين، أو طموح زائد للوصول إلى مراتب أعلى، تخرج عنده على هيئة طاقةٍ طفوليةٍ محطمة، تخربش وتجرح وتبقر بطون الكراسي، وأحيانًا بطون الناس.

أعراض كثيرة كثيرة لا حصر لها، وتأخذ عند كل إنسان طابعًا خاصًّا به نتيجة ظروفه وتكوينه وشخصيته. ولكن دائمًا هناك علامات مشتركة لدى المصابين بالاكتئاب. خاصة ذلك الإحساس الباطني المِضُّ الذي وصفه علماء النفس بقولهم: إن الشخص المكتئب يصبح هدفه اللاواعي وكأنه يريد أن ينكمش على نفسه ويتحول إلى جنين يعود من حيث أتى إلى رحم أمه. أو باختصار أدق، يريد العودة إلى العدم الذي خرج منه، الموت.

جرَّبت كل الأطباء، هنا وفي الخارج، وكل عقاقير الدنيا أخذتها، ولم أُشفَ .. ذلك لأن الحالة كانت أكبر منِّي، وكان الجزء الأكبر منها راجعًا إلى القلق العام على مصيرنا، فكأنه، القلق بلا حلٍّ سريع، يحدث في حياتي وأراه القلق بلا مخرج.

ولم أكن أعرف أن عقلي العميق جدًّا يعمل في اتجاه آخر، يريد الموت ويطلبه، حتى إني كثيرًا ما حلمت به، يأتي رقيقًا جميلًا كالحلم الهفهاف، أحس بروحي تنسحب من الجسد وكأنها قوس كمان تعزف بانسحابها ذيل لحن موسيقيٍّ وديع جدًّا، محبب تمامًا، يرغب لك أن تنتظر النهاية، نهايته ونهايتك ونهاية الحالة كلها والحصار، بشغفٍ غير متعجل، ولكنه أيضًا يستعجل.

وهكذا كان لا بد أن تؤدي بي هذه الرغبة الدفينة إلى أن أواجه الموت الحقيقي ذات مرة، ليس مرة واحدة فقط، إنما عدة مرات، قد أكتبها وتكون قصة، وقد لا أفعل أبدًا، ففارق كبير بين أن تراه حلمًا يُهيئه لك عقل عميق أحمق، وبين أن تواجهه واقعًا مخيفًا، أبشع ما فيه أنه صامت، لا صخب فيه ولا ضجة، كالمؤامرات، الحياة تخمد، تحس بها تنطفئ، ذبالة عقلك تدرك هذا، ومرعوب أنت إلى النخاع ولا تملك شيئًا، من شدة رعبك تنسى حتى من أنت، وما النهاية، وتصبح النهاية والموت والرغبات الدفينة أشياء تكرهها إلى درجة تخاف معها أن تموت من شدة ما يضج به جسدك من كره.

وكأنما كانت تلك المواجهة محكمة لا يعلمها إلا هو، فقد قربه منِّي تمامًا ليرعبني إلى درجة أن أرتدَّ مُحبًّا إلى الحياة بأقوى وأعظم ما أستطيع. كانت حرارة اللقاء كفيلةً بإذابة أي صلبٍ وأي ماس وأي اكتئاب، كفيلة بإشفاء أي قلقٍ واختلاعه من جذوره.

وهكذا ولدت من جديد، بلا قلق أو اكتئاب.

ولكنه علاجٌ رهيب، لا أراه الله لأحد، فأي مرضٍ في العالم أفضل منه، بالطبع أفضل من الموت، ولكم الحق أن تهزُّوا أكتافكم فأنتم لم تروه، واحذروا، فأبشع ما فيه هو الغدر، غدر يأتي، وغدر يروح، وحتى لا يعطينا الوقت لتبين ملامحه.

ولكن ..

ما هذا الحديث الكئيب عن الموت والقلق والاكتئاب؟

سببه في الواقع أني بدأت أفزع من ظاهرة الاكتئاب الجماعي المصابة بها قطاعات كبيرة من طبقاتنا المتوسطة والعاملة.

وأيضًا لا يزال السؤال الذي طرحته ذات مرةٍ عن إمكانية وجود هذا النوع من المرض الجماعي مُعلقًا في انتظار إجابات الدكاترة علماء النفس وعلماء الاجتماع. ولكن ما أعرفه بدقة أن تسعة من عشرة من العلماء الذين ألقاهم في قاهرتنا الحبيبة، السائرين على أقدامهم أو فوق دراجات أو شاحنات أو عربات، البائعين والبائعات الشارين والشاريات، معظمهم يعانون من حالة قلقٍ داخليٍّ، إذا كان البعض يدركونه بوعي فالأغلبية العظمى لا تعيه، تُعاني من أعراض فقط دون أن تدرك لها سببًا، تُعاني سواء أرادت أو لم ترد، بل حتى تُعاني رغم محاولاتها المستميتة ألَّا تعاني.

وللقلق في حياتنا قصة.

كنا نحيا في ظل أوضاع قد بدأت إلى حد ما تستقر منذ أوائل الستينيات إلى هزيمة ٦٧. على المستوى الشخصي كانت معظم الفئات قد اطمأنت إلى أنها غير مهددةٍ — في القريب العاجل على الأقل — بكوارث من أمثال الفصل أو فقدان الدخل الاقتصادي. صحيح أن الدخول قليلة، ولكن هناك الارتكان الدائم إلى الدولة، وقد تحدد النشاط الخاص إلى حدٍّ كبير، وأصبحنا كلنا عمالًا وفلاحين ومثقفين وموظفين بطريقة أو بأخرى، نقبض آخر الشهر أو آخر الموسم أو أواخر العام، بينما الدولة تمر بكل مراحل تطور تجربة الملكية العامة، من بيروقراطية إلى حكومية إلى تواكلية، إلى آخر هذه الأمراض.

وفجأة هُزمنا هزيمةً منكرة مدبرة عام ١٩٦٧م.

وفي يوم وليلة تبدَّى لنا ما كنا نرتكن إليه ليس دولة كبيرة سترعانا وتحمينا، ولكن، وكأنما كنا نرتكن إلى حائط مائل سقط جيشه تمامًا في ساعات، وحياته كلها أصبحت مهددة بالسقوط.

من هنا فجزء كبير من فجيعتنا فالهزيمة وأصابتنا وكأننا جميعًا بحالة الإحباط والاكتئاب بعدها، ليس سببه فقط الخدش الكبير الذي حدث لنا كأمة، وإنما سببه الأعمق في الحقيقة راجع إلى أننا كلنا بدأت عقولنا الواعية والباطنة والأبطن «تقلق»، أي تنظر إلى المستقبل بعين متوجسةٍ غير مطمئنةٍ، بحيث لم يعد أحد منا متأكدًا، ليس فقط من وضعه في المستقبل، وإنما حتى إلى وضعه آنذاك، وهكذا بدأت لدينا — كمجتمع — حالة الاكتئاب الجماعي بحيث في داخلنا مضى يتراكم العلقم، سنة وحقبة إثر حقبة.

وقد حاول جمال عبد الناصر نفسه الخروج من هذه الحالة ليبدأ مرحلة مقاومة انتهت إلى ما سُمِّي آنذاك بحرب الاستنزاف، ورغم البطولات الفردية العظيمة التي بُذلت في تلك الحرب، إلا أن نتيجتها كانت عكسية تمامًا؛ فالتخريب المتعمد لمدن القناة، وتهجير مئات الآلاف، وضرب المصانع والمدارس والكباري والمنشآت كان وكأنما يُفعل على الدولة ليؤكد لنا أن قلقنا الرهيب في محله، بل لا بد بمرور الأيام أن يزداد.

وفعلًا كان قلقنا بمرور الأيام يزداد.

خاصة بعد ما حدث للمقاومة، رمز الأمل، في الأردن.

ومات عبد الناصر الخالد من شدة اكتئابه.

وكان حزننا التاريخي عليه الذي لم يحدث له مثيل، ليس حزنَ شعب فقد زعيمًا، ولكنه حزن مكتئبين يودِّعون آخر أملهم في الخروج والحياة، والانتصار على الهزيمة، والقضاء على القلق، وأن نعود أصحاء.

وهكذا حين جاء اليوم الموعود، أفرغنا علقمنا الممعن المتراكم سُمًّا زعافًا في جسد العدو وتحصيناته وقواته.

ذلك أن أحد طرق الخروج من القلق ومن الاكتئاب أن تحدد عدوك وسبب قلقك وتسحقه.

وقد فعلنا لأيام.

شفينا فيها جميعًا وعُدنا أطفالَ الحياة، نضحك، ونتكاتف، ونتخادم، عادت الشهامة، والبطولة والتضحية، عُدنا أصحاء.

ولكن كان من المحتم ألا يدوم هذا.

وكان من المحتم أن تُكَتِّفنا القوتان الأعظم من جديد، تكتف حركتنا تجاه العدو.

ولكنا لم نيأس، قلنا نعالج أساسًا سبب نكسة عام ٦٧، نعالج الدولة، والعلاقة بين الثورة والمواطن، باعتبار أن سبب النكسة أن هذه العلاقة كانت علاقةً قهرية أكثر منها علاقة ثورية، وكانت علاقة كبتٍ أكثر منها علاقة انطلاق وتحرر.

ثم إن الأزمة الاقتصادية، خاصة بعد الحرب، ازدادت تفاقمًا.

وعاد القلق على المستقبل من جديد.

ولكن هذه المرة لم يأخذ شكل القلق الجماعي السوي الذي كان السبب في نصر أكتوبر، إنما أخذ شكل الخلاص الفردي.

والحقيقة أن الطبقات المتوسطة والكادحة هي التي تُعاني أكثر من عبء أي أزمة اقتصادية. ذلك أن السباق الطبقي الرهيب يتحول إلى عملية دفاعٍ رهيبة هي الأخرى

عن النفس، فالكادحون يفكرون دائمًا ويحلمون أنهم يومًا ما سيصلون إلى مستوى الدخل المتوسط المكفول، أو من يدري، ربما الأغنى، والمتوسطون يلهبهم دائمًا سوطان: سوط الطموح إلى أن يكونوا أغنى ويطمئنوا على مستقبلهم تمامًا، وسوط الخوف المرعب أن ينحدروا مرة أخرى إلى طبقات الكادحين، ويصبح الموظف عاملًا، والعامل متعطلًا، والبقال صبيًّا في محل بقالة.

هنا يعود القلق زاحفًا ورهيبًا، فهو لم يعد قلقًا فقط على المستقبل، أصبح معظمه قلقًا على الحاضر. وكيف لا وأنا لا أركب تاكسيًّا إلا ونادرًا ما أجد سائقًا، سائقًا فعلًا، وإنما أجده مدرِّسًا، أو معيدًا في جامعة، أو أحيانًا حتى ضابط شرطة. كيف لا وها هو ذا لكي يظل محتفظًا بالمستوى المتوسط الذي هو فيه يعمل، وفعلًا عاملًا، والأزمة تزداد، وينشق الناس، وكأنه يوم القيامة، والخلاص بأي ثمنٍ؛ بشقة مفروشة، بما هو أفدح، ولتسقط أي قيمة، فماذا بعد أن أسقط أنا من الطابق الثاني حيث أقطن إلى بدروم الحياة وقاعها. ولينجُ بجلده من سرق أو اختلس أو حلب أو نهب أو باع أو سمسر، لينجُ بمستواه الاقتصادي فقط إذ يكون قد فقد كل قيمة وكل ما يجعله محترمًا، حتى في نظر نفسه، أثناء عملية «الخلاص» تلك.

إنِّي أبتسم وأنا أقرأ كثيرًا من أسماء المرشحين في الانتخابات وشعاراتهم، وكأن كثيرًا منهم لا يخوضها انتخابات سياسية يريد أن يمثل بها مواطنين أو اتجاهات؛ وإنما وكأنه يخوضها انتخابات اقتصادية يريد أن يجمع بها أصوات الناخبين؛ ليتاجر بها بعد هذا تحسينًا لمركزه الاقتصادي هو أولًا، أو مركزه السياسي تمهيدًا لتحسين مركزه الاقتصادي وهلم جرًّا.

نعم هناك أزمة اقتصادية.

ولكن هذه المواجهة الفردية المطلقة، هذا السباق الرهيب أن تصعد فوق أكتاف الغير، أن تركل، أن تسبَّ حتى وتتشاجر وتدوس، هذا الرعب الجنوني أن يُرفع الكرسي الخيزران من تحتك وتسقط كادحًا من جديد وراء كل ما نلمحه في شارعنا من مظاهر التمرد والفوضى والقذارة، وراء كل ما هو سائد على أفواهنا من كلمات متداولة، ومسرحيات وأفلام منحطة تهدم كل قيمةٍ وتخدر المواجع الشرفية والكرامية، ففي سباق كهذا أنت محتاجٌ أن تتبلد تمامًا ولا يذكرك أحد بمبدأ أو بقيمة، بالتعاطف أو الحنان أو إنكار الذات، بالتضحية أو العيب، في حاجة أن تنسى تمامًا أنك إنسان، فأنت تريد أن تكون مجرد متسابق لاهث لا يعطله عن الصعود طيفٌ أو مبدأ من كرامة.

أعتقد أن ذلك الحل الفردي لن يصلح أبدًا.

في بلد نامٍ كبلدنا وفي ظروف كظروفنا، وفي نظام للتعليم يُحيل كل عام مئات الآلاف إلى أصحاب مؤهلات متوسطين، أي يأخذ من الكادحين ويصب في طبقة متوسطة مختنقة بالازدحام والتباغض، في ظل موارد محدودة، وقدرة على الاستدانة ستظل دائمًا محدودة، في ظل أحلام لن يتحقق ٩٩٪ منها، إذ من سيغتني سيكون واحدًا من الألف ربما، والباقون إما كما هم وإما إلى «انحدار». في ظل كل هذا وما هو أكثر، القلق الفردي أو الحل الفردي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى حياة كالهلاك.

نعم هناك أزمة ...

ليست فقط أزمة اقتصادية، ولكن ما هو أهم .. إنها أزمة قلق اقتصاديٍّ رهيب يجتاح معظم أفراد مجتمعنا.

حتى الأطفال، بدأت العدوى تتسرب إليهم وتسأل الولد أو البنت من هؤلاء .. ماذا تُريد أن تفعل — وهو يدوبك خمس سنوات — يقول: أريد أن أكون مهندسًا أو طبيبًا.

مع أن الأطفال دائمًا يفكرون أن يروا بلاد العجائب أو يعزفوا الموسيقى أو يرقصوا أو يغنوا.

ولكن حتى غناء أطفالنا، أتى عليه القلق الاقتصادي.

أناس حولنا في بلادنا العربية يُعانون من قلق ازدياد الثروة المفاجئ فيلجئون كالضائعين إلى الغرائز.

ونحن نلجأ إلى الغرائز أيضًا، ليست غرائز الجنس أو الملذات، ولكنها الغرائز الأقل، غرائز الدفاع عن الوجود ذاته، إن ذلك الوجود يهدده القلق الاقتصادي الرهيب.

ألا تريدون أن نفتش معًا عن مخرج أو حلٍّ؟ ذلك أن الاستسلام إلى حالة ذلك النوع من القلق أولًا لن يحل أزمتنا الاقتصادية ولا النفسية، بالعكس، سيؤدي إلى المزيد منها والمزيد، وإذا كان السباق ضروريًّا فالنتيجة سقوطٌ جماعي.

فأهم رأس مال عندنا هو الإنسان.

ولا بد أولًا من إنقاذه.

دكتاتورية العدالة

لكي يرفع الإنسان رأسه عن أكوام ما تحفل به الرسائل والأقوال والجلسات الخاصة والحياة اليومية والسنوية! التي تبدو سرمدية، لكي يقول الإنسان لنفسه في النهاية: وبعد؟ ما الحل؟

كثيرًا ما أُشبه حياتنا بعربةٍ كانت مندفعة بسرعة غير مضبوطةٍ على الطريق وكان لا بد، شئنا أم أبينا، أن يحدث للعربة حادثٌ وأن تصطدم بلُوري أو فنطاس، أو حتى بعربة كارو، وكان مفروضًا بعد ما وقع الحادث، وذهب ضحيته من ذهب، أن يهبط الركاب الباقون، بما فيهم السائق، وأن يدفعوا. العربة المصابة إلى أقرب ورشة، وأن يتولوا إصلاحها جميعًا لكي تعود وتمضي على الطريق.

ولكن ما حدث أنهم وقفوا حولها، منتظرين معجزة أن تنصلح العربة من تلقاء نفسها، ولما طال بها الانتظار، وفرغ الصبر، بدأ كل منهم يسعى إلى خلاصه المفرد، ويأخذ له قطعة غيار أو صامولة، أو حتى يخلع عجلة القيادة، ويمضي بها إلى أقرب تاجر مسروقات ليبيعها، وبثمنها يمتطي أي شيءٍ، وينجو .. ويبقى من لم يستطع أن يسرق، ومن لم يستطع أن يخلع، ومن عجز بشرفه أو بصدقه أو بغبائه عن أن يترك قومه الركاب، ويمضي ناجيًا بنفسه، وتبقى معه ومعهم العربية وقد أصبحت كومة من الحديد الخردة.

ونعود نرفع رأسنا من فوق المنظر المفجع ونقول: ما الحل؟

أعتقد أني لا أقولها الآن وحدي، فكل منا، بما فينا من أطفال حتى، وفي كل وقت، ولدى كل مشكلة تُثار، ودائمًا المشاكل — وفي كل آن — تُثار، يسأل نفسه، وبعد؟ ما الحل؟

ليت المشكلة يمين أو وسط أو يسار .. ليتها سياسية فقط أو أخلاقية فقط أو اقتصادية أو تربوية أو توزيعية أو ذِممية أو قلة ذمة فقط، ليتها الإسلام «المُفترى عليه»، أو الماركسية (بسم الله الرحمن الرحيم)، أو الحرية والليبرالية، أو هذه القذائف الجوفاء

الطنانة التي تشبه صواريخ الأطفال تنطلق في كل اتجاهٍ ومن كل اتجاه .. وتجعل من سماء حياتنا «كرنفالًا» لا مثيل له من الألوان والأقوال والفنون والحكم والشعارات والشعارات ضد الشعارات.

ليت هذه كلها كانت المشكلة، إذن — رغم صعوبتها — لهان الأمر .. فلو عرفنا المشكلة — أو حتى مئات وآلاف المشاكل — لقطعنا الطريق إلى ثلاثة أرباع الحل.

فلنتلفت حولنا أيها الناس نبحث، لنغوص في أعماق التاريخ البعيد والقريب، تاريخنا وتاريخ غيرنا نتلمس ونستدل؛ لنعمل كل ما تبقى لنا من عقل، وكل ما لدينا من علمٍ وفراسة، وفتاكة، حتى يمكن أن نتحرك، ومستحيل أن نظل واقفين بجوار العربة الخردة.

لقد حدث مرة أن هبَبنا في يوم وليلة ودفعنا العربة دفعةً قوية جبارة، قطعت من جرائها شوطًا مهولًا، ولكنها لم تلبث أن توقفت. لماذا اندفعت؟ .. ولماذا عادت تتوقف؟ .. وما السبيل إلى أن ندفعها مرة أخرى لتظل تمضي وتمضي دون توقف؟

لقد قرأنا كلامًا جميلًا كتبه الزملاء الذين زاروا الصين (الشيوعية جدًّا من فضلك) .. وهي بلاد تمُتُّ مثلنا إلى العالم الثالث، بل ووقعت قبلنا في خصامٍ رهيبٍ مع السوفييت ولا تزال واقعة .. ولكنها لا تكتفي بلعن السوفييت وإلقاء اللوم في كل شيء عليهم ويتوقف واجبها عند هذا كما نفعل نحن، مثلما فعلنا ذات يومٍ ظللنا نلعن أمريكا والاستعمار .. ونتوقف أيضًا عند هذا، إنما كانت تجربة قطع العلاقات الاقتصادية والعسكرية — وتقريبًا السياسية — مع السوفييت «حافزًا» قويًّا جدًّا لهم كي يقفوا على أرجلهم هم. ثم يمضوا في السباق الرهيب مع الزمن، بل ومع السوفييت أنفسهم.

المقالات الجميلة المروعة بتجربة الصين .. كان ينقصها — في رأيي — أن يكشف لنا أحد الزملاء عن سرِّ هذه المعجزة التي حدثت هناك، فقد بدأ الحديث كما لو أن المعجزة حدثت من تلقاء نفسها، أو كأن الشعب هناك صحا ذات يومٍ فوجد المجتمع كله يتحرك إلى الأمام.

في الهند أيضًا ياما قرأنا عن أنديرا غاندي وتجربة الهند (الديمقراطية جدًّا من فضلك) .. والأن هذا هو علمها يصل إلى القنبلة الرادعة الرهيبة، وهذا هو فدان قمحها يصل إلى أربعة أضعاف ما ينتجه فدان قمحنا، وهذه هي محاكمها تعمل ضد رئيسة الوزراء نفسها أحيانًا. ولكن دائمًا، مع الحق، وتخذل أعداء المسيرة الهندية العظيمة.

هذه نماذج من العالم الثالث حولنا، النماذج التي تتحرك. وأيضًا في تاريخنا الإسلامي القديم .. كنا ننهض ونتحرك أولئك السادة الغيورين تمامًا على إسلامنا .. المطالبين بعودتنا

إلى أمجاده، أو عودة أمجاده إلينا، لا يقولون لنا، مثل هؤلاء الذين ذهبوا وذهبنا معهم نطلب العلم ولو في الصين، لماذا .. لماذا جاءت فترة على الحكم الإسلامي، كان فيها عظيمًا ومجيدًا ودافعًا إلى أقصى أمام، محدثًا في الفكر وفي الحياة تلك الثورة التي للأسف أوقفناها نحن بأيدينا وأخذها منال العالم الأوروبي المسيحي ومضى يطورها إلى أن سبقنا بها وسبق الزمن؟ .. فما نشاهده الآن من حضارةٍ أوروبيةٍ شاملة ليس في الحقيقة إلا امتدادًا لإسلامنا العظيم الأول .. الامتداد الحقيقي لإسلامنا، فإسلامنا اليوم ليس إلا امتدادًا لإسلام توقف وتجمد منذ عصر المأمون.

في الحق مهما نظرنا حولنا .. واستبطنَّا تاريخنا .. وغُصنا بأبصارنا إلى داخل نفوسنا .. سنجد أن السر الوحيد لما حولنا ولما كناه من حركة، والسر الوحيد لهمومنا الآن وتخلفنا، السر الأوحد، يكمن في كلمة واحدة هي «العدالة» .. إن العدالة هي حلم الإنسان القديم، منذ الفلاح الفصيح وإلى الآن، الحلم الذي حاولت ديمقراطية الإغريق تحقيقه، وكلما تحقق بعضه كان المجتمع يقفز إلى الأمام، الحلم الذي حاولت اليهودية والمسيحية تحقيقه، وكلما قاربته كان الإنسان القديم يقفز التخلف الواعد ويتقدم إلى الأمام، الحلم الذي جاء الإسلام في عهوده الأولى يُطبقه بمثالية شكلت القوة الدافعة الرهيبة لبناء كل ما تلا هذا من حضارة إسلامية .. الحلم الذي ثار من أجله لوثر على الكنيسة وأنشأ البروتاستنتية، الحلم الذي راود الفلاسفة من أيام أفلاطون إلى كارل ماركس وأنجلز وحتى فانون وماركوز .. العدالة .. ليست كما هجنَّاها نحن واقتصرنا على تسميتها بالعدالة الاجتماعية .. وإنما العدالة — في كل أشكالها وصورها — عدالة النقود وعدالة السلطة والنفوذ، عدالة الريف والمدينة، عدالة الحي والشارع والحارة، عدالة الكيان البشري المحترم مهما كان عمله أو لونه أو جنسه أو دينه، عدالة الذنب إذا أذنبت، والعقاب إذا عوقبت، والقانون إذا ساد القانون .. باختصار دكتاتورية العدالة في كافة صور الحياة وأنواعها وأشكالها، إن حلم إمامنا الكبير محمد عبده بالمستبد العادل، كان حلمًا خياليًّا تمامًا، فما دام المستبد إنسانًا أو الإنسان مستبدًّا فلن يكون أبدًا عادلًا، إنما العدل يأتي من «استبداد القانون» أو المسئول أو حتى الحزب، استبداد القاعدة وتطبيقها بلا أي استثناء، بل كلما كبر المطبقة عليه يكون التطبيق أقسى وأمر .. دكتاتورية العدل واستبداده بأي مجتمع هي وحدها الحرية ولا حرية سواها.

ومشكلتنا في الحقيقة هي أننا لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد .. الذي يُطبق على الناس جميعًا من أول مسئول إلى آخر الرعية، بل بالذات أول مسئول، لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد وإنما نملك ألفًا .. بل مليون قانون .. وطوال النهار نفصل ونتحايل

ونعدل في كافة القوانين والدساتير والنظم والأصول .. بعدد ما نحن فيه من طبقات وفئات وتفاوت سلطات واستبداد سلطات بسلطات.

وفي الصين عدالة الزي الواحد والطعام الواحد ووسيلة المواصلات الواحدة، وقاعدة السكن الواحدة، قد لا يكون فيها، تساو في السلطة .. ولكن من قال: إن الصين وصلت إلى المجتمع الأمثل؟ .. في الهند عدالة، صحيح ليست كعدالة الصين، ولكن هناك على الأقل ذلك الحد الأدنى من العدالة، ليست المكتوبة في الكتب والدساتير وبرامج الأحزاب، ولكن العدالة المرئية والمسموعة والمشاهدة يوميًّا، والمطبَّقة أولًا على رئيسة الوزراء.

فالقاعدة في دكتاتورية العدالة هي ضرب المثل فهي ليست عدالة يُصدرها الحاكم لتطبق على المحكوم فقط .. ولكنها العدالة تُطبق أولًا على الحاكم وأمام عين وأذن المحكوم؛ ليؤمن أنه في الإمكان بعد هذا أن تُطبق عليه.

وهذا السبب الذي نشكو منه أو كففنا ويئسنا حتى من الشكوى منه، هذه اللامبالاة، هذا الإحساس المِضُّ الرهيب أن البلد ليست بلدك، وأنك آخر المسئولين عنها، سببه أن بعضهم يركب السيارة .. يسابق بها الريح، ويعيش ويتسلط كأوناسيس ونابليون، بينما أنت مركون في انتظار أوتوبيسك الخردة موضوع بين نارين، إما أن تبقى نظيفًا جائعًا شريدًا خائفًا أن يدوسك الانجراف وكأنه السيل العارم القادم، وإما أن تسرق لك قطعة غيار أنت الآخر، أو تغمض عينيك عن آخرين يسرقون قطع الغيار، وباختصار وفي النهاية تنحرف.

إن الطبيعة البشرية ضد الانحراف في كافة صوره وأشكاله. والإنسان أصلًا وأساسًا خُلق ليحيا شريفًا ونظيفًا، والشاذ هو أن يجرم أو يتعمد الخطأ أو الخطيئة، هو لا يفعل هذا — في معظم الأحيان — إلا مرغمًا، وإلا، بالذات إذا وضعته بين خيارين قاسيين، بشعي القسوة، إما أن تجف روحه ويتبلغ بشرفه وقناعته، وإما أن يقلد السائد ويفسد.

إن المشكلة ليست مشكلة فقر الإمكانيات، فكم من شعوب ودول مرت بأزماتٍ أعنف بكثير من أزمتنا الحاضرة، بل ونحن، وهذا هو الغريب في مستوى اقتصاد قومي أعلى بكثير من كل سنواتنا السابقة، ولكن المشكلة الأساسية أن العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والسلطوية غير مستبدةٍ، عدالة بها من الثقوب أكثر مما بها من خيوط الغربال، عدالة تُطبق على الخائب فقط .. أما الشاطر فهو من يركب فوق العربة .. حتى لو كانت حطامًا .. ويطلب من الآخرين أن يزقُّوها ويزقوه معها .. نحن جميعًا مستعدون أن نزق

هذا صحيح، ولكن «كلنا» نزق، كلنا ندفع، وبكل ما في قدرة كل منَّا على القوة، شرط أن لا يركب البعض ويكون عملهم إعطاء الأوامر «للعبيد» بالزق. كلنا على استعدادٍ أن نضحي، كم أحلم بأن نبيع جميعًا عرباتنا الخاصة وبثمنها نبني المصانع ونصنع ملايين الدراجات، شرط أن نبيع — جميعًا — عرباتنا الخاصة، وأن نركب — جميعًا — الدراجات، ذلك أن دكتاتورية العدالة تقتضي أن تتوزع الحقوق والواجبات بالتساوي؛ بحيث لا يكون لعربيٍّ على أعجمي فضل إلا بمقدار ما يبذل في سبيل بلده ومجتمعه، وليس بمقدار المنصب الذي يتولَّاه .. أو المال الذي لديه .. أو ما يستطيع اقتناءه.

إن التقديرات الاقتصادية تقول: أننا في حاجة — خلال السنوات الخمس القادمة — إلى اثني عشر مليار جنيه لنعبر أزمتنا الاقتصادية فقط، هذا إذا اعتبرنا أن أزمتنا أزمةٌ اقتصادية فقط، فما قولك عن الأزمة التربوية والعلمية، والحكومية والتكنولوجية والنظامية العامة والخاصة والمعنوية والروحية والأخلاقية .. إلى آخر القائمة التي لا أعتقد أن لها آخِرًا .. ودول الخليج لن تمنحنا مجتمعين أكثر من عدد «٢» مليار فقط خلال السنوات الخمس، فكيف سنحصل على العشرة آلاف مليار جنيه تلك؟ وحتى ولو بمعجزة أن يتفق العالم الغني بأجمعه كله، بأمريكته وروسياه على إعطائنا إيَّاها، فلمن ستذهب، والطريق وعرٌ وشاق ومليء بقطَّاع الطرق.

نحن — إذن — شعبٌ فقير، يمر بأزمة طاحنة، ولا معجزات هناك تنقذه. هناك فقط هو: ذلك الشعب، هو الشعب وهو المعجزة .. وهو العشرة .. وهو الألف مليار .. هو الذي عاش هنا، والذي سيعيش، وهو وحده الذي بيده الحل. ولا حل إلا بأن يعمل .. فليست هناك شعوب بالسليقة فقيرة وشعوب بالسليقة غنية، هناك شعوب تعمل وتنتج .. وشعوب لا تعمل ولا تنتج .. وإنما تقعد هرتها ويقتصر نشاطها على استهلاك كل ما تصل إليه يدها .. ووراء كل شعب لا يعمل ولا ينتج يوجد دائمًا وضع يُسبب له هذا .. أو نظام، نظام لا تستبد فيه العدالة، عدالة الحق، وعدالة الواجب، نظام اختلت عدالة توزيع الأعباء فيه، عدالة السلطة أو الاقتصاد أو القانون أو المركز أو الدخل، أو حتى عدالة الركوب والمرور .. أو كل هذه مجتمعة.

وحلُّنا ومنقذنا ومخرجنا من هذا المأزق وكل مأزقٍ، حلمنا البشري القديم الذي نادرًا ما تحقق، هو عدالةٌ حادة قاطعة كحد السيف.

أو على الأقل — يا هوه — حد أدنى من دكتاتورية العدالة، فهي وحدها دكتاتورية الشرف، والعمل، والقيم، والحرية، والعدل، والإنسان ...

تعالوا ننظف مصر

استمعوا أيتها السيدات وأيها السادة .. المسألة تجاوزت فعلًا حدود المنطق والمعقول، حدود أي صفةٍ بشريةٍ أو حيوانية .. حتى وأنا قد أبدو مزعجًا ومقلقًا للراحة، ولكن إذا كان الأمر أمر إزعاج جثث تمر بحالة موت روحيٍّ ونفسي وجسدي كامل .. فأنا مستعدٌّ أن أكون أكثر إزعاجًا إلى درجة الوخز بالإبر والمسامير والخناجر حتى .. لم يعد معقولًا ولا إنسانيًّا أبدًا أن نستمر نحيا بهذه الطريقة .. الموت، والله أفضل، والوباء، أفضل، والحرب أفضل، وأي شيء أفضل!

منذ شهرين كان عندي مشوار في «دوران روض الفرج»، وليس مهمًّا الآن كيف وصلت إلى هناك، أما المهم حقيقة فهو ما وجدت عليه شارع روض الفرج الرئيسي .. كانت المجاري «ضاربة» في الشارع .. والماء بشع الرائحة .. والمنظر والتكوين يغمر الشارع لمسافة لا تقل عن نصف كيلومتر .. والناس تضع أحجارًا، أو أحيانًا تخوض في هذا البحر البشع القبيح لتعبر الشارع، والعربات تصنع بعجلاتها وبالأقل أقذر الأمطار الصناعية .. هززت رأسي للحال التي وصلت إليها مرافقنا العامة، وقلت في سرِّي: معذور والله هذا الشعب الذي عليه أن يتحمل انقطاع مياه النظافة وغزارة المياه القذرة .. الماء المقطر ممنوع مقطوع، والماء البشع موجود وطافح بغزارةٍ .. معذور والله هذا الشعب.

ومضى شهران، وبالأمس فقط كان عليَّ أن أذهب مرة أخرى إلى روض الفرج .. وليس مهمًّا كيف ولا بأي طريقةٍ وصلت هناك، فلنترك جانبًا حديث المواصلات والتاكسيَّات، ولكن المهم، بل الشيء الذي لا يصدقه عقل .. أو منطق أو عينٌ ترى وأنفٌ يشم، أن أصل إلى هناك، لأجد نفس المستنقع الرهيب، يغمر نفس المساحة من الشارع ويعبق الجو برائحة لا يمكن أن يقبل الحياة في ظلها إنسان أو حيوان أو نبات أو حتى جماد.

شهران وأنتم أيها السادة الأفاضل سكان روض الفرج، تغوصون في وحل المخلفات البشرية هذا، شهران وأنتم تتلوثون وتشمُّون وتقاسون وتعانون، شهران وأنتم تصبرون .. لعن الله صبركم .. لعنت حياتكم .. لو كنتم مجموعة من الكلاب الضَّالة لهجَّت من الحي كله وحتى من العاصمة كلها .. لو كنتم مجموعة من الحشرات للدغت نفسها بنفسها وأنهت هذه الحياة ذات الرائحة العفنة الكريهة .. ولكنكم — الكارثة الكبرى — بشر، بشر ترتدون البدل والجلاليب «النظيفة»، نساء مُسرحات الشعور أنيقات البلوزات والجيبات، دكاكين، ومطاعم وأناس تركب العربات والتراموايات، أرقى كائنات على سطح الأرض .. كيف تحملتم بالله هذه الحياة لشهرين، ومن يدري .. ربما تتحملونها لعام أو حتى لبضعة أعوامٍ .. أليس فيكم رجلٌ واحد أو بضعة رجال «يثورون» على هذا الوضع ويذهبون إلى مهندس المجاري أو التنظيم وينتزعونه من مكانه قسرًا ويمرِّغون أنفه في المياه الطافحة، أليس فيكم آدميون أكثر يذهبون إلى محافظ القاهرة ويَحملونه حملًا إلى شارعهم ولا يتركونه إلا وقد عاد الشارع يصلح لمسير وعبور وإقامة الآدميين، وأنتن يا نساء الحي .. كيف تحملتن أن «يعيش» أطفالكن ويتمرغن في شارع كهذا؟ .. يا من تضعن أحيانًا البرفانات .. كيف احتملتن الرائحة، وإذا كان الرجال قد تقاعسوا، فكيف تقاعستن أنتن؟

والحق أني لا أتحدث عن روض الفرج وحده، إن طريق «ملَك حِفني ناصف» بالإسكندرية، وغيره، إن أي شارع أو حارة في القاهرة أو الإسكندرية أو أسيوط أو البداري .. إن كل مكان في مدننا يضجُّ بكم من القذارة أو الإهمال والبشاعة لا يمكن أن يصلح معه إطلاقًا حياة البشر .. ومع هذا فالبشر يحيون فيه .. متبلدين بلادة لا يمكن أن تكون لجنس البشر، وكأنهم يتلذذون بمشهد المجاري والقذارة، وكأن كائنات أنيس منصور التي هبطت أو تهبط من السماء ستقوم هي — وليس هم — بعملية النظافة .. وكأن الحكومة لها عين ترى القذارة وتزيحها .. وكأنه لا يزال هناك أمل في جهاز التنظيم ومصالح التنظيم .. والمجالس المحلية يدُكُم منها والأرض .. فجهاز النظافة العام في مصر — مثله مثل كثير غيره — قد تفسَّخ تمامًا وانشلَّ، نفس الشلل والتنبلة التي أصابت الإنسان، وكلٌّ يعتمد على الآخر في عملية التنظيف .. السيدة تعتمد على الخادم أو الخادمة — إن وجدت — والخادمة على البواب، المحلية على جامع القمامة الذي أصابه الوخم هو الآخر .. وبدلًا من أن يعبِّيها في عربات ويحملها إلى خارج المدينة، بدأ يختار أي وأقرب مكان إلى منطقته ويفرغ فيها قمامته، وتتعالى الأكوام، أمام عين العسكري، وأمام عين الكنَّاس، وأمام عين معاون البلدية، ولتتعايش العين والناس والقذارة، وليتعايش

التنظيم مع الفوضى، وليتعايش الكمد المخمود الذي أصابنا مع القذارة التي تتراكم أمامنا وداخلنا، ولنتحول في النهاية إلى مجموعة من الحيوانات القذرة تحيا في جحور قذارة اسمها «المدن» .. بل حتى الحيوانات أبدًا ليست بهذه القذارة، القطة تظل تلحس ابنتها بلسانها و«تنظفها» لأن الطبيعة الحيوية — حتى لو كانت طبيعةً حيوانية — هي ضد القذارة .. ولأن القذارة هي الفوضى في التركيب وفي المعنى وفي الرائحة وفي المذاق، والحياة هي الدقة في النظام والرقي في التركيب.

اسمعوا — أيتها السيدات وأيها السادة — لقد يئست تمامًا منكم ومنكن ولم يعد لي أملٌ إلا في أجيال الشباب الجديد .. ولهذا فأنا شديد الاندهاش أن يكون تصرف الشباب هو الآخر على هذا النحو .. إن هذا ليس أول جيل من شباب مصر، فللشباب في مصر تاريخ وأجيال .. وقد كان الشباب على الدوام هو القوة القاهرة الدافعة للثورة وللتغيير. كان مشهد التدخل الأجنبي في مسائل مصر الاقتصادية والسياسية هو الذي أزعجه حتى قام بثورة عرابي، كان مشهد العساكر الإنجليز والأستراليين في شوارع القاهرة هو الذي أزعجه إلى درجة القيام — قلبًا وقالبًا — بثورة ١٩، كان مجرد مشاهدته للوجوه الحمر المطلَّة من ثكنات قصر النيل وعمارات شويكار في شارع قصر العيني يُزعجه إلى الدرجة التي يقوم فيها بثورة ٤٦، و٤٧، و٥١ .. ويسقط منه الشهداء ويسيل منهم الدم الأحمر الطاهر يخضِّب أرضًا أبوا عليها أن تُدنسها أقدام ووجوه المحتلين. كان مشهد العَلَم الإسرائيلي على ضفة القناة الشرقية يدفع دمه للغليان حتى قام بالانتقام العظيم في ٦ أكتوبر. أيكون مشهد حي بأكمله يستنقع في مياه المجاري .. أيكون مشهد أكوام القذارة والقمامة والزبالة، أيكون هذا القبح الكسول المستشري أقل بشاعة من وجوه الإنجليز الحمر؛ النظيفة على أي الأحوال؟

ورُبَّ قائل يقول: إن هذا كان «استعمارًا» وكان إهانة «للكرامة الوطنية»، ولكن القذارة والمجاري المتفجرة والرائحة التي لا تُطاق أشد إهانة «للكرامة الإنسانية» .. فكيف إذا طاقها العاديون، يطيقها الشباب، تطيقها قلوب بِكر لم تلوثها القذارة، أعمار القدرة على التضحية وبذل النفس، كيف سكت الشباب في حي روض الفرج وفي طريق ملك حفني ناصف، وكيف يسكت في كل مكان وحارة من مدننا على حياته اليومية وهي تُلوث وكأنما بفعل عدوٍّ مبين خبيث. إن المسألة ليست مسألة عِياقة أو شياكة أو «استنظاف»، المسألة مسألة آدمية، والصين قبل أن يأكل شعبها أو يرتدي ما يليق «نظفت» حياتها أولًا من

الذباب ومن الحشرات، ومن أكوام القمامة ذلك أن الإنسان الذي يطيق القذارة والتعايش معها لا يمكن إلا أن يكون قد فَقد أبسط دافع يحركه للحياة أو للعمل أو لعمل شيءٍ من أجل الوطن .. إننا كلنا نعتمد على الحكومة وعلى التنظيم وعلى — ودائمًا — «الآخرين» لتنظيف بيوتنا أو شوارعنا أو حوارينا، فلنعتبر أن الحكومة قد ماتت أو غير موجودةٍ، لنعتبر أننا «نحن» المسئولون، ليس عن نظافة كل منا فقط، ولكن عن نظافتنا كلنا، نظافة حياتنا ونظافة أحيائنا .. إننا لا يمكن أن نفلح في السياسة أو الثورة أو مجرد الجدل حول يمين أو عقيدة أو دين ونحن نحيا في قذارة، لنحيا أولًا كآدميين، وبعد هذا نتناقش أو نختلف أو حتى نتقاتل .. لنكن أولًا جديرين بحياة الآدميين الجسدية لنكون جديرين بأية حقوق سياسية أو اجتماعية أو أي شيء آخر.

يا شباب مصر .. تعالوا نُنظِّف مصر .. لتتألف منكم لجنة في كل حيٍّ .. تضم الشباب من الطلبة والعمال، وحتى من تلامذة إعدادي وابتدائي وتلميذاتها، تنظف الحي، وتُرغم عمال النظافة على العمل، وعمال التنظيم ومهندسيه ومفتشيه وأجهزته، وتنتزع لهم حقهم في نظافة شوارعهم ومجاريهم، ولنبدأ أولًا ننظف شوارعنا، وغدًا نُنظف حياتنا كلها، من ألفها إلى يائها، ومن اقتصادها إلى سياستها .. ولكن فلنبدأ، حتى قبل أن نقرأ أو نكتب أو نأكل، لنبدأ عملًا نحس به أننا بشر نستحق حياة البشر، وأننا — شباب وشابات — نستحق أمجد وأعظم فترات الحياة .. اعملوا شيئًا يا شباب غير ضياع الوقت هائمين في الشوارع وكأنما فقدتم الرشد، ضائعين في النواصي والحواري ومطلقين الأذى من ألسنتكم على «اللي تسوَى واللي ما تسواش» .. اصنعوا شيئًا .. الآن.

دين الحكمة.

في رسالة لبقةٍ مؤدبة — وهذا أحيانًا نادرٌ في أمثال تلك الرسائل — لفت نظري مواطن — يبدو أنه ضالع في أمور الدين — إلى أني قد ارتكبت إثمًا — دعا الله أن يغفره لي، حين استعملت تعبير «عقلية: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» متهمًا إيَّاي أني بترت مطلع هذا الحديث الشريف، ثم يستطرد موردًا نص الحديث كله عن صحيح البخاري.

والحق أن هذا الخطاب، وغيره، أثار في نفسي تأملات لا حصر لها.

فأولًا: أنا لم أقل: هذا حديث شريف، وإنما أنا قلت: «عقلية» انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، مثلما يقول الإنسان أحيانًا: «عقلية» لا تقربوا الصلاة .. ويسكت عن إتمام باقي الآية، إن قولًا كهذا لا يعتبر «استشهادًا» بالآية ولا بالنص، وإنما يتحدث عن «عقلية» أخذ نصف القول وترك النصف الحقيقي الآخر الذي من أجله نزلت الآية أو قيل الحديث.

وثانيًا: هذا يدل على أني كنت محقًّا في النص على هذه العقلية عند البعض، فقد وضح لي الآن أن بعض الناس يقرءون ما يُكتب قراءة «شكلية» محضة، يقرءون بنفس عقلية: لا تقربوا الصلاة، ومستعدون أن يحكموا بالتجديف، أو أحيانًا بالكفر، لمجرد الشكل وليس أبدًا معنى الأشياء وأعماقها. وهذا أيضًا ليس غريبًا، فقد تحولت ديانتنا المحمدية على أيدي البعض إلى «شكل» الوضوء، و«شكل» أداء الصلاة، و«شكل» ما ترتديه المرأة أو لا ترتديه، ولا يهم بعد هذا أن يكون للرسالة المحمدية العظيمة مضمون أعمق وأشمل، ذلك المضمون السماوي الشامل الذي من أجله هبطت الرسالة لتشكل إيمان الناس في كل زمان ومكان، وتُشكل ضمائرهم .. أبُعث مُحمد عليه السلام نبيًّا ليقول لنا ماذا نرتدي وماذا نأكل؟ لقد بُعث هذا البعث العظيم أولًا وأساسًا ليهدينا إلى من نعبد .. ولماذا؟ ليهدينا إلى الخالق عز وجل ويحيطنا بأعظم رسالة.

وثالثًا: ألاحظ في الفترة الأخيرة حساسية مفرطة ضد أن يتحدث أحد عن أي شيء يتعلق بالدين إلا رجال الدين، في حين أن الإسلام — كما يقول فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري — ليس فيه أصلًا رجال دين، فكل مسلم هو رجل دينه، هناك فقهاء وعلماء هذا صحيح، ولكن الحديث عن الإسلام، والمسلمين هو من حقِّ كل مسلم، بل إن «خليفة» المسلمين نفسه يطلب من أي عربيٍّ أن يقوِّمه إذا انحرف، بمعنى أنه — أي الخليفة صاحب النبي وحبيبه وأعظم داع لرسالته — يطلب من أي عربي عادي أن «يقومه» إذا أخطأ، معنى هذا أنه ممكن أن يُخطئ هو أيضًا، وأن من «حق» أي عربي أن يدرك هذا الخطأ، وأن يقول له رأيه — مهما كان جاهلًا أو متواضعًا — أي أن يقول له مفهومه الإسلامي لما ارتكبه الخليفة.

فكيف تريد إذن أن نحوِّل هذا الدين الواسع العريض، هذا البحر الذي من حق أي منا أن يغترف منه ما شاء إلى «حنفية» ضئيلةٍ عليها قوم «مدججون» باحتكار «الفهم» للإسلام، وكأنما محظورٌ على عقل أي منا — مهما بلغ نبوغه — أن يفهم إلا من خلال فهمهم هم وتقديرهم هم واحتكارهم هم.

إني مُصرٌّ على أنْ لا كهنوت في الدين، وأن من حقِّي أن أفهم إسلامي كما أريد وكما أستطيع، والله وحده سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسبني على فهمي، بل إني مُصرٌّ على حقي حتى في أن أخطئ الفهم وأن أعترف بالخطأ إذا ما أدركته، فديننا الحنيف جاءنا، ليس لأننا ملائكة مُنزَّهون من الخطأ؛ وإنما لأننا بشر نخطئ وقد نصيب، وحسابنا من الخطأ والصواب لله وحده مالك كل شيء وخالق كل شيء وصاحب الأمر والنهي، أما أولئك

الذين يُنصبون أنفسهم أوصياء على دين الله وعلى أمة الله فهم يرفعون أنفسهم إلى رتبة رُسُل، ولكنهم رسل بغير تفويض، وليُظهر لي أيٌّ منهم من فَوَّضه، ولماذا هو وحده المفوض وأنا مسلمٌ مثله، وربما أكون أكثر منه تقوًى وأشد منه إسلامًا بسلوكي وقِيَمي وعقيدتي؟

من فوضه ليُرهبني ويخيفني ويجعلني أعبد الله من خوف ليس منه سبحانه، وإنما من جماعات الإرهاب الديني الذين يريدون إعادة محاكم التفتيش وطغيان الكنيسة وحرق الناس أحياء لمجرد قولهم إن الأرض تدور حول الشمس؟

إني إنما أعبد الله عن حبٍّ، ومن يحب لا يخاف، لا يخاف بالذات أولئك الذين يريدون إحالة أعظم رسالة حب عرفها الإنسان إلى سلاح اتهام وبطش وتعذيب، وكأنهم هم وحدهم المسلمون وبقية الخلق إما كفرة أو منحرفون أو بلا قدرة على التمييز.

إن الإسلام للناس جميعًا، حتى للأُميِّ الذي لا يقرأ أو لا يكتب، ولم يهبط ليكون دين خاصة ودين قلة ودين أوصياء على خلق الله، دعوا الناس تعبد الله بلا إرهاب، وإذا دعوتموهم إلى الدين فإنما كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. لم يقل أبدًا: بالسوط، ولا بالسيف، ولا بالقهر .. بالحكمة والموعظة، وليست حتى أي موعظةٍ .. وإنما بالموعظة الحسنة .. أتعرفون الموعظة الحسنة؟

الثقة الفعل

لنتعاهد سويًّا عهد الله والوطن على أن نمضي في طريق التحرير إلى منتهاه حتى نسترد كل شبر من الأرض العربية، وحتى نرى شعب فلسطين الصامد وقد استعاد حقه وكيانه، ولنستمر في معركة البناء الداخلي لا يلهينا عنها شيء إلا أن تصبح الديمقراطية بنيانًا لا يمكن أن تهزه أعتى العواصف والأنواء .. وليكن رائدنا في هذا هو التمليك والتآخي والموضوعية والاحتكام إلى العقل وتجنب فرض الرأي.

هذه ليست آراء «كاتب»، ولكنها كلمات الرئيس أنور السادات عشية الإجماع على اختياره رئيسًا للجمهورية وقائدًا لمسيرتها لست سنوات حافلة قادمة .. والفرق بين كلمات الكاتب وكلمات الرئيس أن كلمات الكاتب تكون من قبيل التمني أو التبشير برأي أو إيضاح الرؤيا، ولكن كلمات الرئيس ليست أمانيَّ، إنها كلمات رجل يملك في يده سلطة أن يحيل الأماني إلى «فعل»، والأحلام إلى «قرارات»، والرأي إلى «عمل»، والأصل في حياة أي شعبٍ أو أمة أو ثورة هو العمل، هو الفعل، وما الحرية وما الممارسة الديمقراطية الحقيقية وما العقائد بكل تناقضاتها أو تشابهها إلا «وسائل إنتاج» بشري حقيقي وفعَّال ومؤثر، يغير في حياة الناس ويقضي على متاعب البشر، بل ما طلب العدالة في الحق والواجب، والعدالة في التوزيع، والعدالة، في الثواب والعقاب، ما هذا كله إلا وسائل لجعل الإنسان «إنسانًا» بحق، وما دام سيصبح إنسانًا فهو من تلقاء نفسه سيعمل وينتج ويبدع، ويحتل عالمه وعالم الآخرين إلى شيء جدير حقًّا ببني الإنسان.

إن أقصى ما يحلم به الكاتب وما يريده أي مواطنٍ مصري هو هذا بالضبط الذي قاله الرئيس السادات، الفرق أننا كلنا نستطيع «القول»؛ ولكنه هو هذه المرة الذي أوكلنا إليه «الفعل». إننا لم ننتخبه تكريمًا له فقط لما حققه من منجزات ضخام خلال فترة رئاسته الأولى، ولكننا هذه المرة ننتخبه لأننا في أمسِّ الحاجة إلى رئيس «يعمل» و«يفعل»

و«يحقق»، فالمشاكل التي تراكمت، والقضايا المعلقة لا تزال. لم تعد تحتمل التأجيل ليوم واحد أو ربما لساعة واحدة، وليثق الرئيس أننا لن نركن إلى النعاس، كما لم نركن أبدًا إلى النعاس، لنتركه وحده يعمل ويفعل ويحقق، فنحن — وأي شعب في الدنيا — لا يختار الحاكم ليتباهى به، أو ليكون رمزًا، إنما يختاره ويُشدد في اختياره كوسيلة عظمى يُغيِّر بها الشعب من أحواله ويحقق بها ما يريد، وسيلة حاسمة باترة ليتحرك بها الشعب و«يفعل» و«ليعمل»، كل ما في الأمر أن بعض الحكام لا يتلقون الرسالة أو الثقة بمفهومها الصحيح، ولا يتحركون في اتجاه الشعب، فلا يتحرك الشعب لهم أو بهم، بل في أحيان يتحرك مباشرة ضدهم. فالحركة بدايتها ومنتهاها الشعب، هو خالقها ومالكها ومانحها لمن يختاره ولمن يستحق.

إني إذ أُهنئ رئيسنا السادات بهذه الثقة الغالية، لَأشفق على شعبنا مما يريده الرئيس منه، فالحق أن شعبنا قد أعطى ويعطي بكل ما يملك وما يستطيع. ولكني لا أشفق على الرئيس مما يريده شعبنا منه، فهذه الثقة وهذا الإجماع معناها أن بإمكانه أن يعطي أكثر بكثير مما أُعطى.

رسالة عاجلة لك يا سيدتي.

إن قضية إجراء حوار مع المرأة المصرية والعربية بشكل عام — أقصد حوارًا بينها وبين الرجل — مسألة أصبحت ملحَّة وضرورية وحتمية لوجودهما معًا. إن المرأة تتحدث والرجل أيضًا يتحدث؛ ولكن كليهما لا يقول سوى «مونولوج» .. أي يتحدث إلى نفسه، فالمطلوب أن يتحول إلى «ديالوج» أو حوار.

ولكني الآن لا أريد أن أبدأه .. فالجدار العظيم الكائن بين الرجل والمرأة جدارٌ لا بد كي يهدم، أو على الأقل نستحدث فيه بعض الثقوب والمنافذ وحتى الشقوق .. فإن الأمر يستلزم استعدادًا أكبر بكثير.

هذه مجرد رسالة عاجلة.

وهي موجَّهة بالذات إلى سيدات نادي سبورتنج بمصر الجديدة، ونادي الشمس بمصر الجديدة أيضًا، وحبذا لو تلقتها أيضًا سيدات نادي الجزيرة والصيد والقاهرة ... إلى آخر قائمة النوادي.

وبالذات إلى السيدات اللاتي يملكن «وقتًا» يضيع الكثير منه في ثرثرة مكررة حول الموائد وأشغال التريكو والكانَفَاه، وذلك الحديث الظريف الذي يسمونه «النميمة» .. أولئك

اللائي يملكن ترف الشَّغَّالات يقمن بأعمال البيت، والطباخين يطبخون، أولئك اللائي مللن الملل نفسه، ويشتكين من الأرق والأعصاب، ويلجأنَ إلى الحبوب المنومة، هؤلاء اللائي أقول: لا يعملن، ولكن يختلقن لأنفسهن أعمالًا هامشية تمامًا لا يمكن أن تكون ذات أثرٍ في حياة الناس أو حتى حياتهن هن أنفسهن.

أنا هنا لا ألوم ولا أُعاتب، وإنما أحاول أن أُخاطب الضمائر التي أعتقد أنها من الداخل غير راضية أبدًا، ومكتئبة.

سيداتي .. يا من يملكن هذا الوقت وتلك القدرة .. هناك عملٌ عظيم ونبيل وجدير حقًّا بأي إنسانةٍ أو إنسان يحيا في عصرنا هذا.

ذلك أننا في عصر يمجُّ أن يكون الإنسان فيه عالة على مجتمعه أو حتى عائلته، يمج البطالة حتى لو كانت صاحبتها جميلة ورشيقة ومن عائلة، يمج أن يعيش الإنسان بلا «دور» هام يؤديه في ذلك المجتمع.

أقول: إني لدي عمل، لكن .. ذلك هو مستشفياتنا .. في كل حيٍّ من أحيائكن هناك مستشفى أو أكثر. وإذا كانت شوارعنا وبيوتنا قد أصبحت تعجُّ بالقذارة .. فمستشفياتنا العامة أصبحت مسألة النظافة فيها شيئًا نسِيه الخلق تمامًا ولم يعودوا يذكرونه. إن المريض الذي يلجأ إلى المستشفى العام هو بالدرجة الأولى مريضٌ فقير، ولأن النظافة مسألة اقتصادية أساسًا فهو يحيل المستشفى الذي قد يكون غنيًّا بأجهزته وأطبائه واستعداداته إلى مكان، كمنزله، كشارعه، قذر.

وإذا كانت القذارة في الشوارع مسألةً ضررها لا يظهر في الحال، فالقذارة في مستشفياتنا شيء خطير للغاية؛ لأنها تعني الموت بالعدوى والميكروب .. وصحيح هناك أجهزة وموظفون وعمال وعاملات متروك لهم أمر النظافة في تلك الأمكنة الحساسة، ولكنهم جميعًا «موظفون» لدى الدولة، والنظافة الحقة «رسالة» في حاجةٍ إلى من يتبنَّاها تبني المبشرين، فهي — مثلها مثل رعاية المرضى والتمريض — عمل «مقدس»، ومن هنا جاءت فكرة «الترهين» في خدمة المرضى وإدخال الراهبات مجال التمريض، ذلك أن رعاية أي مريضٍ أو مساعدته ربما أهم بكثير من علاجه على أيدي الأطباء المحترفين؛ لا بد أن تنبع من قلب مؤمن حقًّا بما يفعله، ومستعد أن يُضحي من أجل أن يحس بوجوده الحقيقي، وأن يكون له في الحياة رسالة .. وأن يأوي إلى فراشه في نهاية اليوم وهو — أو بالأصح وهي — قد أحسَّت بدفء الحياة يتسرب إلى روحها لأنها ساعدت إنسانًا آخر أن يُشفَى أو يعيش .. ليت ذلك النداء الإنساني العميق المركب في كل منا يدعونا أن نمدَّ يد المساعدة لكل من يستغيث بنا أن نساعده.

وأنا أكتب هذه الكلمات أحس بعشرات الأفواه من المرضى تستغيث استغاثات مكتومة، تتوجع إلى الله طالبة العون والمساعدة، ولا من مغيث .. لقد قرأت مرة أن إحدى الجمعيات قررت أن تتولى عضواتها الإشراف على نظافة مطار القاهرة الجوي حتى نستقبل السياح والقادمين بوجه لامعٍ نظيف. وهذا عملٌ جميلٌ لا شك ونية طيبة، ولكن العمل الأعظم والأجمل، والنية الأصدق والأنبل، لا أن نُري العالم وجهنا الخارجي الأول لامعًا نظيفًا، ولكن أن ننظف مستشفى حيِّنا وأن نساعد مريضًا، وأن نعمل ذلك العمل الذي قد لا يكون له بريق تنظيف المطار، ولكن له عند الله وعند الخلق أثمن وأعمق الوقع.

تذكرت هذا كله حين زرت في الأسبوع الماضي قسم الرعاية المركزة لمرضى القلب الجديد بمستشفى الدمرداش، ذلك الذي أنشأه ويرعاه طبيبنا الكبير الدكتور حمدي السيد، بالتبرعات وانتزاع الأظافر جمع ثَمن بنائه وشراء أجهزته، وبحسمٍ شديد هو وفريق الأطباء الذين يعملون معه: الأستاذ الدكتور محمد الفقي، والأستاذ الدكتور عبد الخالق ثروت، والدكتور مغازي طنطاوي، وأطباء القلب الكبار: الأستاذ الدكتور محمد عطية، وحمدي الدمرداش، وجلال مختار زيادي ... والكثيرون الذين يضيق المجال عن نشر أسمائهم جميعًا، وبالذات حكيمات القسم وممرضاته. هؤلاء الجنود المجهولون للرأي العام بنوا في قلب المستشفى «الحكومي» واحة رائعة نظيفة يلقى فيها أفقر المرضي ربما نفس العناية التي كنت ألقاها في مستشفى هارلي ستريت، أعظم مستشفيات لندن.

ولكن الصدمة البشعة تجيء حين نغادر هذه الواحة الخاصة وننتقل إلى العيادة الخارجية بنفس المستشفى وبكل مستشفى، حين ننتقل إلى الأقسام الداخلية، إلى حيث تحل الوظيفة محل الرسالة وتغيب عين «الراهبة» المرأة الواهبة نفسها تمامًا لتلتقط الخطأ أنَّى وُجد الخطأ، والقَذر أنَّى وُجدت القذارة .. هذه مهمةٌ لا يمكن أن يقوم بها إلا متطوع أو متطوعة .. ومن أجل هذا العمل وحده.

سيدتي في النوادي المذكورة وفي كل حيٍّ من أحياء القاهرة وكل مدينة من مدننا .. يا من تملكين بعض الوقت، لماذا لا تلتقين مع جاراتك وصديقاتك وتُكوِنَّ — وفي الحال — نواة لجمعيات: صديقات المستشفيات. تأخذن الأمر مأخذ الجد، وتعملن شيئًا من أجل مريض قد تتوقف حياته على يد حانيةٍ عن إيمان تساعده، ومتطوعات جادات بقروش قليلة ممكن أن يُحِلن مستشفياتنا إلى أماكن، لا أقول: يصبح العلاج فيها مثاليًّا، ولكن على الأقل تصبح أماكن رعاية نظيفة لا يموت الناس فيها قذارة أو إهمالًا.

سيداتي: أكتب هذه الكلمات في الليلة العظيمة — ليلة القدر — وعشمي أن تكون أبواب السماء مفتَّحة لكلماتي، ورجائي وأن تهبط من السماء على قلب كل منكن شعاعةُ نور تفتح لها الطريق أمام عمل إنساني هائل ينتظرها.

«غنِّي» يا عبد الحليم

قد مات شهيدًا يا ولدي من مات فداء للمحبوب .. اصدح يا عبد الحليم وغن، فالمتعة قد بدأت تتسرب إلى نفوسنا الجافة، نفوس تيبَّست فلا أحد يرويها والحر اللافح يشويها .. والدنيا ركامٌ من الأهوال والمشاكل .. غنِّ يا عبد الحليم، فلعل وعسى، لعلها ساعة نستريح فيها، يبدأ الأخضر يُغطي على الأصفر، ربما نبت برعم .. غن يا عبد الحليم، فموسيقاك جميلة، والموجي رقيق وشاعر الموسيقى الشعبية، وأورج مجدي الحُسيني وكأنه النشوة .. غن أيها الناحل الأسمر في بدلتك البيضاء الجميلة، زنبقة من قلب طيننا البُني، أعرف كم تُعاني وتقاسي وكم قاسيت لتشرخ التربة، وفي عناد تشق الطريق وتصعد وتتبوأ مكان النغمة جميلة العذاب في قلوب الملايين والملايين .. غن يا بلدياتي .. يا ابن القنايات الذي استولى على القاهرة بلا جيش أو انقلاب. وحكم العواصم العربية بلا حسب أو نسب أو مخابرات، بأغنية الحب، يقولها لقلوب وألسنة رغم كثرة «كلامها» عن الحب و«استعمالها» للحب لا تحب، ويتسرب صوتك إليها هامسًا، ودودًا، لا تجفل منه ولا تنكمش، إذ هو صوت يحرض على الحب، وحتى لو حرض على اللوعة والأسى، فهو ذلك الأسى الجميل الذي يُمهد لتقبل الحب وزرع الحب، وحب الحب.

غنِّ يا عبد الحليم، رغم كل شيء غن، واقرأ لنا يا نزار العظيم فنجاننا المقلوب ليس بيد قارئةٍ، وإنما بيد زمن غادر، ومؤامرات وانقلابات، ودماء من كثرة سيلها وشدتها، قلبته، وقلبتنا معه، فهو مقلوبٌ ونحن مقلوبون معه نقرؤه. فنقرؤه أيضًا بالمقلوب.

غن يا عبد الحليم، فهي دقائق متعة، فعلًا، أحس ويحس معي الآخرون بالمتعة ليتها كانت متعة التخدير، ولكنها للأسف أو لحسن الحظ، متعة مفتوحة الأعين، مفتوحة الذاكرة، مفتوحة الوعي .. أعرف أن دماءً غزيرة تسيل في بيروت .. أعرف أن الإسرائيليين نجحوا في اختطاف الطائرة المخطوفة وقتلوا الأوغنديين والمختطفين .. أعرف أن سِتمائة قُتلوا في يوم

واحد في السودان، أعرف أن الدماء تسيل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في وطننا العربي، ولكن، غن يا عبد الحليم، غن فلِرُبع قرن من الزمان أيها الناس ونحن بلا يوم راحة، نحيا في جهنم الحرب وجهنم الثورة وجهنم الانقلاب، وجهنم الحكم العرفي، وجهنم البيان رقم واحد ورقم مليون، نجوع ونموت، نمرض ونموت، نثور ونموت، ننتكس ونموت، ننتصر ونموت، نموت ونموت .. غن يا عبد الحليم واقرأ لنا الفنجان يا نزار .. قد مات شهيدًا يا ولدي من مات فداء للمحبوب .. ليتنا هذه الأنواع من الشهداء. إنما نحن في معظم الأحيان شهداء الرعونة، وشهداء أيدينا وسيوفنا، شهداء حكمنا الوطني وحكوماتنا المختلفة أو المتفقة، شهداء آلاف وملايين النوازع الصغيرة التي يحفل بها إنساننا وعالمنا العربي، شهداء الأعداء الأذكياء الذين يلعبون بنا على الدوام ولم نلعب بهم إلا مرة .. شهداء عقول من فرط رجعيتها تحجَّرت، وأقوال من فرط تخفيفها من معانيها نصبت أقفاصًا من حديد، وقيودًا، شهداء عصر «الاستقلال» نحن، في كل كفاحنا ضد الاستعمار الأجنبي بقديمه وحديثه لم نخسر جزءًا من خسارات كفاحنا ضد أنفسنا، وكله — ويا للغرابة — باسم الشعب، وكله باسم الثورة، وكله تحت أروع وأضخم وأمجد الشعارات!

غن يا عبد الحليم، فلم يبق لنا إلا أن نسمعك .. مقدورك يا ولدي أن تبقى مسجونًا بين الماء وبين النار. مقدورنا أن نبقى مسجونين مخنوقين بين الدم القريب الذي تحول إلى ماء وبين نار العدو التي تحولت إلى جحيم .. وبرغم جميع حرائقه، برغم جميع سوابقه، وبرغم الريح، وبرغم الحب سيبقى يا ولدي لحين، سيبقى يا عزيزي نزار، في أي مكان من أرضنا يبقى، في أي كوخ، وكل كوخ ساكن فيه الحزن والحقد والدم ليل نهار .. صدقت فقط حين قلت: مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر «الحب» بغير قلوع، وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع .. أو تكون الراء قد سقطت سهوًا منك وتكون تقصد بحر (الحرب) .. وأي حرب .. حرب لا معنى لها بالمرة.

أنا أفهم أن نُحارب الاستعمار .. أما ما يحدث الآن فأنا لا أفهمه أبدًا .. إلا إذا كان الشعار الأمريكي المعروف: دع الآسيويين يُحاربون الآسيويين، قد طُبِّق، وبنجاح هذه المرة، في عالمنا العربي بنجاح ساحقٍ ماحق .. اذبح واقتل، بالهوية وعلى الهوية، لِنعُد القهقرى إلى الحروب الصليبية، كل ما في الأمر أن الغزاة هذه المرة قادمون من الداخل، وليس فيهم «قلب أسد» واحد، إنما هي قلوب نَعام وذئاب وكلاب .. غن يا عبد الحليم .. الحب سيبقى يا ولدى أحلى الأقدار، كده يا نزار؟ ما لقدرنا إذن انعَوَج وانحرف وأصبح القتل عندنا أحلى الأقدار .. وحبيبة قلبنا يا ولدي ليس لها عنوان، فهي في كل مكان، وشاعرنا الكبير هو

الآخر بلا عنوان، فأنا أريد الكتابة لنزار، فأين نزار، وتحت أي شعار يقف؟ .. ربما ليموت شهيدَ شِعار .. من مات فداء للمحبوب استراح وربما أيضًا أراح، أراح المحبوب بالذات، فالناس لا تحب لتستشهد أو لتموت، الناس تحب لتفرح وتستمتع وتسعد، الناس تحب لتنطلق وتمرح، الناس تحب فعلًا لا قولًا، الناس لا تحب لتبقى مسجونة بين الماء وبين النار، الناس — كل الناس — ما عدانا، فالحب حَدَانا حزنٌ ساكن فينا ليل نهار، ودموع غزار ومرار، ونعيق سمج مدرار.

غن يا عبد الحليم، أمتعنا قليلًا وسط دوي الرصاص الأعمى، حمَّام الدم يتخلط على أعيننا وأيدينا ويحنِّينا ويُخضِّبنا بالسواد، ولا نملك سوى المداد، وأضغاث مداد .. ويأخذ وزراء الخارجية العرب قرارًا بإيقاف القتال «فورًا» يا سلام .. وتشتبك قوة «السلام» الليبية، مع قوة «السلام» السودانية انتقامًا لمذبحة السودان، فعلًا يا جامعتنا العربية «فورًا» هي الكلمة. «فورًا» يتم الانعقاد، ولا انعقاد .. فورًا يتم القرار بلا نفاذ لأي قرارٍ .. فورًا إذا أرادت مصر توقف الهجوم على السودان الحبيب، ولكن «فورك» أيتها الجامعة الكبيرة ليس له من قرار حتى لو كان بقرار.

غن يا عبد الحليم، وقل يا نزار .. ماذا تقول الآن يا نزار؟ .. وإذا كان صديقك المشعور فيه قد استشهد حبًّا وأثار قريحتك، فماذا تفعل القريحة حين يُستأصل شعب ويستشهد الناس حربًا، حربًا مغلوطة، حربًا منتحرة، حربًا مجرمة؛ لأنها حرب من الاتجاه الخاطئ، حرب الصديق للصديق، حرب الإخوة المصابين بلوثة وكأنهم يعانون من مرضٍ خبيث وراثي.

غنِّ يا عبد الحليم، فعندنا نحن الآخرين حرب، قنابلها مقالات واتهامات، وضحاياها شعب مُضيع قتلوه بالشعارات والتلويح بأقدس المقدسات، ولم يبق إلا أن يقيموا له المأتم ويهيلوا فوقه التراب.

غنِّ يا أخي، أمتعنا لحظة، لحظة زمن واحدة. الشعب ما أقل ما عاش، وما أقل ما يستمتع بالعيش إذا عاش، حتى لقد أصبح الموت هو فرحة المتعة الباقية .. غن يا عبد الحليم، فربما النسمات المتصاعدة من قلبك الفواح تُغطي على الطفح، طفح النفوس .. وطفح الجلود، غن، وكمان غن، فقد أفلت الزمام، ولم يعد أحد يستطيع وحده أن يصنع شيئًا، مهما قال أو كتب أو فعل، الحريق الأعظم بدأ، وجهنم قبل ميعادها انتصبت «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه» ودولته التي تأويه.

غن يا عبد الحليم، فقد استمتعت بك ساعة، وربما ملايين معي اختلسوا هذه الساعة الممتعة.

غن، فقارئتك لم ولن تقرأ أبدًا فنجانًا يشبه فنجانك. رأت ونجَّمت كثيرًا ولكنها لم ولن تعرف أحزانًا تشبه أحزانك .. والحزن أبدًا ليس علينا بغريب، إنه دمنا ولحمنا وطعامنا وشرابنا، نحفظه ونرعاه ونعتنقه ونحتفظ به كما نحفظ ونقدِّس التراث. كل ما في الأمر يا عبد الحليم ويا نزار ويا قارئة الفنجان .. أني أنا هذه المرة ألمح الحزن وقد أخذ سواده الفحمي يتحول إلى جمرة نار، والفنجان من كثرة ما حمل فيه من بن أسود قد أخذ قاعه يثقل ليستعد للاعتدال.

رأس الملك الأبيض

كِش ملك .. مات. يا لعبقرية اللاعب الذي أنهى وجود كل قواتك تقريبًا .. ملك ووزير وأحصنه وطابيات وأفيال وعساكر، بحركة صغيرة، بحركتين، بثلاث على الأكثر، تجد ملك «الأبيض» قد اختنق في خانته تمامًا وانتهت اللعبة. أنت مثلي لا تتقن الشطرنج وأنا مثلك لا أُتقن السياسة، ولا أعرف التفاصيل، وليس عندي جهاز معلومات أو اطلاعات، ولهذا فنحن سنلتقي حتمًا عند هذا الجهل وبالجهد المشترك .. فنحن في سبيلنا إلى إعادة النظر في مشكلةٍ مثيرةٍ، مهمة وحيوية .. وأخطر قضايا العصر على الإطلاق بالنسبة لنا، ليس بالنسبة للعالم العربي فقط؛ وإنما حتى بالنسبة لأخص مشاكلنا الداخلية في كل بلد.

نحن في سبيلنا إلى رؤية القصة «اللبنانية الدامية» من وجهة نظر عربية وجديدة علينا تمامًا، وجهة نظر متفرجين بعيدين تمامًا عن الاندماج .. ليس لأن هذه النظرة هي الطريقة «العلمية» الوحيدة «لإدراك» حقيقة ما حدث، ولماذا حدث ما حدث، ولماذا يظل حادثًا ما يحدث؟ .. وسيظل، ولكن، لأننا أيضًا — وبصراحة — هكذا أصبحنا فعلًا، وبحكم الواقع، متفرجين .. وإلا، فقل لي بذمتك: ما هو دورك أو دوري أو دور أي مواطن، هنا أو هناك، في هذا الذي يحدث في لبنان؟ .. أنت لا تتحرك وأنا لا أتحرك .. هي تقرأ وتمصمص الشفاه .. وهو تولت أرقام القتلى المتوالية كل يوم تنويم إحساسه مغناطيسيًّا، بحيث يتلقاها كما يتلقاها النائم، أضغاث أحلام. هجوم جديد. مائتان وخمسون قتيلًا وكذا مائة جريحٍ. وكأنها أرواح ودماء مئات الدجاج وليس البشر .. المشكلة إذن خرجت من يدنا، بل هي أخيرًا لم تكن في يدنا .. وكان الزعيم اللبناني كمال جنبلاط لاذعًا تمامًا ومندوبُ إحدى مجلاتنا يسأله: ما رأيك كيف ستكون نهاية الحرب في لبنان؟ وماذا يترتب عليها من نتائج؟ كان خفيف الدم تمامًا وهو يقول: اسألوا الفلكيين في مصر .. ويقصد

العبقري الفلكي أو التونسي الفلكي، لا أعرف .. إذن هذا هو أحد أطراف المعركة الرئيسية، هو الآخر مثلنا، خرج الأمر من يده.

بل حتى ولو توقفت الحرب في هذه اللحظة. الآن مثلًا — وهذا احتمالٌ مستبعد طبعًا — أنكون قد خرجنا من المستنقع اللبناني سالمين؟ أم نكون قد خرجنا بأكبر عدد من الضحايا شهدته ساحتنا منذ حروب التتار والحروب الصليبية. ومنَّا فينا، وبأيدينا خرجنا مثخنين بأبشع ما تزدحم به الصدور من جروح وضغائن، خرجنا بخسارات ضخام لا يمكن أن نتبين مدى ضخامتها وبشاعتها الآن وربما في المدى القريب.

الجرح اللبناني إذن مغور «الآن» في صدورنا، حتى لو توقفت الحرب .. ولأن الكارثة حدثت، والخديعة تمَّت، فلا يبقى الآن لمتفرج مثلي ومثلك ومثل الزعماء: كمال جنبلاط وياسر عرفات، مثل حافظ الأسد وبيار الجميل وسركيس، مثل مواقف مصر والسعودية والكويت وليبيا والعراق والجزائر، مثل مواقف المائة والعشرين مليون عربي، إلا أن نعرف كيف خُدعنا وكيف أمكنهم أن يفعلوا ذلك بنا وأن نفعل ذلك بأنفسنا، لا لنتذكرها عبرة طوال التاريخ المقبل، وإنما لنتدبر الحادث لكل منا الآن، في كل بلدٍ عربيٍّ وليس على مستوى السلطة والقيادة في كل منها، وإنما حتى على المستوى الفردي الشخصي الذاتي، لي ولك ولها وله.

فما حدث خطير .. خطير .. خطير!

وما يحدث وما يمكن أن يحدث أخطر .. وأخطر .. وأخطر!

ولنتدبر ما حدث.

ولكي نتدبر نتعلم معًا لعبة الشطرنج.

في لعبة الشطرنج يكون أهم أهدافك أن تُخفي «هدفك» عن عدوك، وقد لعبتها قواتنا المسلحة المصرية ببراعة في عبور ٦ أكتوبر، فلم تتصور إسرائيل للحظة أن هذه التمرينات الروتينية على عبور القنوات «الصناعية» والطبيعية يمكن أن تنقلب في ساعة صفر إلى عبور «حقيقي».

إخفاء الهدف — إذن — أمر مهم تمامًا. ليس فقط في لعبة الشطرنج، وإنما في لعبة السياسة والحرب والاغتيال. فنحن نحيا في عصر الغدر. انتهى تمامًا عصر «إعلان» الحرب واللقاءات الشهمة فوق أرض المعركة .. فالغدر أقوى الأسلحة، وبالغدر حاربتنا إسرائيل كل حروبها .. بل وعقدت أحيانًا هدناتها واتفاقاتها، ومنهم تعلمنا وسنتعلم أكثر. ذلك أن الغدر طريق لا نهاية له، فإخفاء النية ممكن أن يتخذ أشكالًا لا عدَّ لها ولا حصر.

والحق أني مثل غيري من ملايين المواطنين، لم أتصور أن هذه الاحتكاكات الأولى في لبنان ممكن أن تصل إلى قمة المأساة التي نقف فوقها أو تحتها اليوم .. ذلك أنها كانت تُشبه حركة العسكري أو البيدق الأولى. حركة بريئة لا يُقصد بها سوى التقدم خطوة. لا يمكن أن نتصور أن هذه الحركة ما هي إلا مقدمة لإفساح مجال «الوزير» الأسود كي ينقض. وحتى لو تابعت حركة الوزير فلن تفطن أبدًا إلى أن الهدف النهائي هو رقبة الملك «الأبيض» وكلمة: كش .. مات.

لن أقول الآن من هو الملك «الأبيض». ومن هو الوزير «الأسود» فنحن نحاول حل معضلة، أو ربما استخلاص قانون. وفي مجال العلوم يحدث هذا بتجريد الأشياء والموجودات من محتواها المادي والمعنوي وإحالتها إلى رموزٍ رياضية وحلها كمعادلات رياضية بحتة.

ونحن الآن قد جرَّدنا الرقعة من الجثث، ونظفناها من الدماء لنرى الأبيض من الأسود فيها، وأحلنا القوات إلى رموز شطرنجيةٍ، وإذا كنت سأذكر اسم هذا اللاعب أو ذاك، أو اسم تلك القوات أو تلك فأرجو أن نُجرد الأمر أيضًا من فكرة الاتهام ذي الوثائق والحيثيات، ذلك أننا الآن لا نحاكم، بل حتى لا نتقاتل، نحن كما أودُّ أن أذكر مرة أخرى، نراقب «اللعبة» .. وكيف «لعب» بنا (بضم اللام أو فتحها، أنت حر).

بدأت النقلة الأولى .. تحركت القوات اليمينية حركة، رد اليسار اللبناني .. عسكري بعسكري .. أكل العسكري عسكريًّا .. انطلقت الأفلام المجيدة في الصحافة العربية تتحدث عن الصراع بين «اليمين» و«اليسار» في لبنان، باعتبار المشكلة مشكلة «طبقية».

(من المحتم عليَّ أن أُذكِّرك معي بأن الهدف الخفي كان — وربما لا يزال — خفيًّا، وهو: كش ملك .. مات .. للملك الأبيض.)

بدأنا إذن نتناول نحن، أقصد عباقرة المحللين والمنظرين والعارفين ببواطن الأمور، نتحدث عن الصراع بين اليمين واليسار في لبنان. عن اليمين الغني الذي يملك كل شيء، وعن اليسار المظلوم المهضوم الذي يُسيطر على جماهير واسعة من الشعب اللبناني.

وما دام الأمر هكذا، فالمقاومة الفلسطينية كانت حكيمةً جدًّا حين أعلنت بصراحة ووضوح في هذه الأيام — القليلة جدًّا — الأولى، أن هذه مشكلة لبنانية داخلية، وأنها — المقاومة — ستبقى بعيدًا عن ساحة الصراع الطبقي اللبناني.

ولكن لأن هذه لم تكن إلا الخطوة الأولى، فقد كان لا بد أن تعقبها الخطوة الثانية البسيطة جدًّا. وهي إضافة كلمة الماروني إلى اليمين والمسلم إلى اليسار، وهكذا صعد الصراع إذن إلى مرحلة أن أصبح بين اليمين الماروني واليسار المسلم.

إذن المشكلة التي بدأت «طبقية» أو أُوحِي إلينا أول الأمر أن المشكلة طبقية، سرعان ما تحولت إلى مشكلةٍ طائفيةٍ، لماذا؟ لكي يُستدعى إلى ساحة المعركة كل التراث الطائفي الذي يلتهب من زمن تحت الرماد .. كل النعرات والصراعات والصغائر الطائفية اللعينة الكامنة منذ مئات السنين والتي — للأسف — لم تتولَّ فكرة وطنية حقيقية إذابتها وإزالتها من الوجود، تدفقت مرة واحدة إلى الساحة وبغزارةٍ متزايدة.

وبدا كأن الحرب أصبحت تمامًا بين، ليس المارونيين والسُّنة والدروز؛ وإنما بين المسيحيين أجمعين وبين المسلمين أجمعين.

وهكذا، كما توسعت رقعة الاستقطاب العالمي. فأي مسلمٍ بطبيعة الحال لا بد أن ينصر المسلم، وأي مسيحي بطبيعة الحال لا بد أن ينصر بقلبه المسيحي، وأصبحت صحف وإذاعات وتليفزيونات العالم، ونحن من بينه، نتحدث عن الحرب الصليبية الجديدة بين المسيحيين والمسلمين. كل ما في الأمر أنها حربٌ صليبية عربية هذه المرة، زيتها في دقيقها، وشهداؤها هم القاتلون والقتلى معًا.

هنا كان لا بد أن تأتي الحركة من جانب المقاومة.

(وأيضًا لا تنسَ معي أن الهدف النهائي هو اغتيال الملك الأبيض) .. فإذا أبقت المقاومة على موقفها «المحايد» من هذا الصراع بين اليسار «ولو كان مسلمًا» وبين اليمين «ولو كان مسيحيًّا». لو وقفت على الحياد بين التقدم والتأخر، وبين التحرر والتبعية، إذن لفقدت صفتها كمقاومة، وقيمتها كقوةٍ ثوريةٍ عاتية ليس في لبنان وحده؛ بل وفي المنطقة العربية كلها.

إذن لا بد أن تأخذ المقاومة موقفًا.

لا بد أن تتحرك قطعة الشطرنج. فالهدف الخفي الأول — إذ دائمًا هناك الهدف الأخفى والأعظم — هو إخراج المقاومة من جيوبها وخنادقها واستحكاماتها إلى الساحة المكشوفة .. الهدف .. جر رجلها .. مجرد الرجل، وستتوالى الحوادث والأحداث وتصعيد المواقف، وسيتولى اللاعب العبقري، مهمة التحريك. وفي الوقت المناسب، وخلق الظروف التي لا يمكن معها إلا أن تتحرك كما يريد هو حتى ولو لم ترد أنت.

(بربكم راجعوا هذه الجملة مرة أخرى، وخصوصًا أنتم يا سادتنا الساسة.)

وجود الناس في أرض الناس، حتى لو كانوا أهلًا وأشقاء، دائمًا أمر، وإن احتُمل لفترة، فهو أمر مستثقل. ووجود الفلسطينيين في لبنان ليس مسألة طارئة أو تاريخية يرجع ربما

إلى سنوات ثورة ٣٦ وقبل ٤٨ بكثير. وجاءت الحروب المتعاقبة بآلاف جدد من المهاجرين، ثم كان من المحتم أن يُصبح الوجود «مُسلحًا» ليدافع عن نفسه لقصور الجيش اللبناني الرسمي عن حماية حتى اللبنانيين في الجنوب أنفسهم. وهكذا نشأت التنظيمات المسلحة وعلى رأسها «فتح»، والجبهة الشعبية، بل و«تعرَّب» التسليح وخُلقت منظمات وتنظيمات وعشرات «الجبهات» المتحدة والوطنية والثورية والفوقية والتحتية.

أقول هذا كمقدمة لا بد منها لكي أقول: إن جرَّ ساق المقاومة الفلسطينية كان معناه دفق كمياتٍ وافرةٍ من مخزون الحزازات التي قامت بالنسبة للوجود الفلسطيني على أرض لبنان. آلاف الحزازات الصغيرة والكبيرة يضاف — وملتهبًا — إلى الحزازات الطائفية والعرقية والعشائرية والمارونية والسنية والأرثوذكسية والدرزية والشيعية والعلوية والكاثوليكية والغربية والشرقية والعربية والعراقية والسورية والبعثية والشيوعية والقومية والشعبية والفتحية والصاعقية والنضالية والأيلولية الأسودية ... إلى آخر قائمة لا تنتهي، ويبدو أنها لن تنتهي أبدًا.

وإنني — في أسًى هائل — لا أملك إلا أن أعجب بعبقرية اللاعب؛ فقد «ضحَّى» كما يقولون في الشطرنج، في هذه الحركة: جر ساق المقاومة، بثلاثة أرباع الرقعة.

استطاعت القوات الفلسطينية، اللبنانية التقدمية أن «تكتسح» في أسابيع قليلة وتستولى على ما يقرب من ٨٠ في المائة من مساحة لبنان، وبدا كما لو كان لبنان موشكًا على الوصول إلى رحلة «الديمقراطية الشعبية» بقيادة كمال جنبلاط وياسر عرفات. أقول: «بد»؛ لأن هذا هو المهم. فقد كان من المهم تمامًا أن تنجرَّ ساق أكبر إلى ساحة الرقعة .. ساق سوريا «التقدمية» وإلى جانب من؟ إلى جانب اليمين و«ضد» القوات التقدمية المتحالفة.

أليس — بذمتكم — لاعبًا عبقريًّا ذلك الذي اخترن السلاح «الشيوعي» الروسي ليضرب به القوات «التقدمية» في لبنان، وروسيا جالسة كالدب الكبير الحائر ماذا يفعل؟ بينما الآخر «يلعب» وأي لعب يلعب.

ولكن هذه كانت مجرد حركة، ولا تنسَ معي في النهاية أن الهدف هو رأس الملك الأبيض.

ألفان من الجنود والمعدات، ثم أربعة، ثم خمسة، الساق تغوص، الساحة العربية تصطخب وتجأر وتثور وتفور. الدنيا كلها قامت ولم تقعد، الحرب التي بدأت «طبقية» لبنانية محضة تصبح بعد قليل حربًا طبقية طائفية إسلامية مارونية، ثم حربًا مسيحية يمينية

ضد تحالف إسلامي تقدمي، ثم حربًا إسلامية علوية مارونية سورية كتائبية ميليشية جميلية شمعونية فرنجية ضد قوات تقدمية بعثية شيوعية درزية شيعية سنية فلسطينية لبنانية ليبية عراقية جزائرية مغربية سودانية ... إلخ.

الهدف اغتيال المقاومة الفلسطينية.

وكل ما سبق وحدث إنما هو الانقلاب. صحيح أُريقت دماء وولدت جراحات لا تندمل، ولكن، لا اليمين الليبي بكل فئاته ولا أي قوةٍ أخرى داخل لبنان أو حتى خارجه كان باستطاعتها أن تقوم بهذا العمل القذر.

كان لا يمكن أن يحدث هذا إلا على يد جيش حديث مدرب، وعربي، وهذا هو المهم تمامًا، ليس مهمًا أن يكون الخنجر من واشنطن أو موسكو، إنما المهم أن تكون اليد «عربية». لتكون الجريمة كاملةً، بحيث لا يمكن أن يترك الفاعل الحقيقي أثرًا، وبحيث من الممكن، ليس فقط أن تُباد المقاومة في لبنان، وإنما أن يختفي أثر الوجود الفلسطيني في العالم العربي، ويُباد، بأيدٍ عربية أيضًا، بحيث أن ما يحدث في لبنان يتكرر وبأشكال أخرى في بلاد عربية أخرى، بل وعلى مستوى عربي عام، الحساسيات اللازمة موجودة ومتوفرة بكثرة، المناخ موجود، الصراعات الرهيبة قائمةٌ وموجودة، التفاوت الطبقي والصراع الطائفي والعرقي والعشائري بخير كثير والحمد لله.

والآن الملك الأبيض فوق جبل لبنان، وحده، في خانة الْيَك الأخيرة. والوزير، وإن كان أبيض، إلا أن ما سمَّيناه الوزير الأسود يقول، دون أن يقول، فهو لا يقول، إنه فقط «يحرك»، بلا كلام، والشطرنج أبدًا ليس في حاجة لكلام، يقول كش .. مات.

يقولها بخنجر «روسي» وبيد «عربية» وأمام الملأ كله.

وكأنما هو ضامن أن أحدًا لم يعد يستطيع شيئًا.

أكان غلاة المتخيلين يتصورون هذا؟

أكان أحدًا في عام ١٩٧٤م أو ١٩٧٥م، أو حتى أوائل ١٩٧٦م يتصور أن المقاومة ستُغتال في لبنان؟

هذا التداعي الخطير للأحداث، هذه الـ Master Plan.

هذا الإخفاء الخطير للهدف.

كيف «لُعب» بنا، كلنا؟

وكيف لا يزال «يلعب» بنا؟

إن اللاعب على وجهه قناع، لا أستطيع أن أتبيَّن تمامًا من هو. هل، هل تستطيع أنت؟

تبدأ الألعاب كلها في لعبة الشطرنج بنقلة.

وفي «شطرنجنا» العربي كما رأينا، يبدو أن الموضة أصبحت أن النقلة الأولى هي إطلاق صرخة: الذئب الذئب! اليسار اليسار! اليمين اليمين!

أم أني جاهلٌ في السياسة مثل جهلك في لعبة الشطرنج؟

أحقًّا أحلى مذاقًا من العسل؟!

لا أعرف ما هو سر ذلك الدقيق أقول الغبار المثبط الذي يتسلل داخل وحول خلايا جسد الإنسان ومخه في بلادنا. كنت وأنا مسافر — ولم يمضِ على سفري هذا أكثر من شهر — وأنا أنظر من نافذة الطائرة أو العربة أو القطار، وأنا سائر أحث الخُطى في قلب شوارع لندن أو باريس، أو حتى قرية أوروبية نائية ومتواضعة، كنت وأنا أرى الغابة أو النهر الصغير، وأنا أرى الشاب والفتاة والرجل والطفل والمرأة سائرين هائمين مسرعين في الشارع، كأن عقلي يُشبه معمل الأفكار المزدحم، تتوالد فيه الأفكار بمعدل فكرة في كل دقيقة، وترتبط وتتناغم، ثم في أحيان كثيرة أخرج باستنتاج رائع هائل، تفد إليَّ الموحيات والأفكار وكأنها طيور النورس قادمة في أفواج تلو أفواج لبحيرة عقلي المليئة بالسمك والطعام، تُصفق بأجنحتها وتهفهف وتصطخب، تزغرد وتلهو وتتعابث وتتلاقح، تصعد في السماء وتهبط إلى الهدف في سرعة انقضاض البرق.

أكثر من عشر أفكارٍ قصصٍ قصيرة تعنُّ لي، مشاريع لتغيير مجرى الحياة تمامًا، مغامرات فكرية ونفسية تتفجر في أعماقي، إقبال على الحياة منقطع النظير، خطط لمدى بعيد وقريب، تجميع لماضيَّ وحاضري ومستقبلي يلتقي عند النقطة التي تركز وتقطر العمر، وتحصل منه على ثمرة أو تراجع موقعه من الكون أو الحياة، حركة دائبة في اتجاه التحقيق الفوري لكل ما أراه يصلح من أفكار أو مشاريع، إقدام لا حد له، اندفاع، أعقل اندفاع مجنون في اتجاه المستقبل وتحقيق الذات، وتطوير النزوة لتصبح اكتشافًا وخطة .. باختصار حياة مليئة كاملة، أضرب فيها بأذرعي لتصل إلى أقصى المعمورة، وأُحلِّق فيها بأفكاري لتشمل مجرتنا كلها، وتغوص أقدامي إلى أعمق أعماق تاريخي وتاريخ العالم، وترتفع لتحلق في القرن الخامس والعشرين، وربما الثلاثين.

هكذا أكون وأنا مسافر، وأنا بالخارج، وأنا بعيد، وأعود، وبقوة الاندفاع الذاتي، أبقى هكذا للأيام الثلاثة الأولى، أو ربما للأسبوع الأول، مسافرًا لا أزال في الأكوان الخاصة والعامة، خلَّاقًا، قادرًا على تحقيق ما يجول بالخاطر ...

ثم يبدأ الدقيق الناعم، الرمل الخفي الأصفر، التراب الذري المطفأ، يتسرب .. في العادة كنت لا أحس ولا أعي بمقدِمه، إن هو إلا هبوط تدريجيٌّ يبدأ يُصيب الهمة، تأتي الفكرة فأؤجلها إلى أن «يروق المزاج» بالليل، وبالليل يأتي ما يؤجل روقان المزاج، يعن لي المشروع فأقول: هذا ليس بعاجلٍ، وذلك ممكن تأجيله، وما فائدة أن يبدأ الإنسان شيئًا «مجنونًا» كهذا، الحياة سائرةٌ وكل شيء ممكن أن يمضي هكذا سائرًا وحده إلى الأبد، يبدأ الغبار فعله ويبدأ الإنسان «يطمئن» إلى الواقع، ثم «يركن» إليه، ثم «يتلاءم» معه، ويفقد الطموح في تغييره أو الإطاحة به. تبدأ الأفكار تقل ثم تندر ثم تتلاشى، وقوة الخلق تتضاءل، والكتابة التي كانت مبهجةً ورائعة متلألئة كالهدف الساطع الجميل تصبح عبئًا، ويُوه .. لسه ح أقعد ع المكتب لأربع أو خمس ساعات.

ويئوب الإنسان في النهاية إلى حالة «الموت-الحياة» .. التي نحياها جميعًا.

كنت أظن أن هذه حالتي الخاصة، ولكني وجدتها الظاهرة العامة المستشرية، هناك شيء ما، حقيقيٌّ ومروع وخطير؛ ولكنه غير مرئي أو مسموع قائم في حياتنا، بيننا، نتنفسه ونزفره، ونعدي به بعضُنا البعض، نرتديه ونركبه ونلبسه ونطعمه، شيء ما لست أدري كُنهه، ولكني أعرف تمامًا مفعوله، شيءٌ مثبِّط أو كاسر للهمة، ومخمد للطموح، ومضيع للهدف، وخانق لكل فكرةٍ ومشروع ومُشِلٌّ، قائم وماثل في حياتنا؛ وهو ليس — كما يتصور البعض — خاصًّا بمصر وحدها، ولكنه الجو العام في شرقنا العربي وغير العربي كله، شيء وكأنه الإنزيم ضد النشاط، وكأنه الطعم الواقي من العمل والتفكير، وكأنه قد أصبح الخاصية القومية التي تُميز مرحلتنا «المجيدة» الحالية.

ما هو ذلك الشيء؟

أهو فقدان الهمة الفكرية القيادية الموحية؟

أهو هذه الأعداد الهائلة من البشر التي معها يحب المواطن منا الإنسانية مجردةً، ولكن بالتأكيد يكره «الإنسان»، أو يكره هذه الكتل المتراصة من الإنسان، تُحيل ذلك الكائن الراقي النادر، أرقى وأعظم وأجمل ما في الوجود، إلى مجرد رقمٍ عشريٍّ كبير، حبذا لو يُختصر معظمه أو يختفي أو يندثر ليبقى للتفرد البشري قيمته وروعته ومجده؟

أهي الشمس الحامية الساطعة التي تجعل الواقع مضيئًا تمامًا بكل ما فيه من بشاعة وقبح؛ بحيث ينعدم الجمال تمامًا أمام العين، وحين لا يرى الإنسان الوجود جميلًا، أو يراه قبيحًا، يتولى القبح أو انعدام الجمال إخماد حاسة الهمة والنزوة والخَلق لدى الإنسان؟

أهو الكسل الجماعي المسيطر، يُعدي، كالإنفلونزا الآسيوية، وحين ترى الناس جميعًا كُسالى أو متكاسلين، فأي مبادرةٍ منك لا بد مصيرها الاختناق والإهمال؟

والكسل الجماعي هذا في رأيي نقطة هامة. إذا كان بعض الناس يُفسرون التاريخ بالعوامل الاقتصادية، وهناك من يُفسرون التاريخ تفسيرًا نفسيًّا، فإن لي تفسيرًا لهذه المرحلة من تاريخنا اسمه التفسير الكسلي للواقع والتاريخ. كل شيء ممكن أن نُفسره بالكسل، حتى استلقاء متفرجنا في مسرح أو سينما أو أمام تليفزيون ليتفرج على عملٍ «فني» عبيط يقهقه له قهقهات حنجرية جوفاء سببه الكسل عن أن يقرأ كتابًا أو يشهد عملًا يضطر معه أن «يُعمل» عقله فيه و«ينشط» .. حتى التحلل والانحلال لنزوله باستسلامنا كسالى للذة لا لذة فيها.

أم يكون السبب أننا مطحونون تقديريًّا، سواء التقدير المادي أو الأدبي، بحيث يتساوى من يعمل بمن لا يعمل، وبحيث أن من يعمل لا ينال إلا الفتات على ما يعمل، ومن يكسب حقًّا هو من يرشو أو يرتشي أو يختلس أو يتاجر في السوق السوداء .. أو يأخذ العمولة، وكلها أكسل الوسائل للحصول على النقود. فهي ليست رأسمالية طموحة نشطة تُقيم المصانع وتُغذيها إرادة هائلة لبناء صناعة أو تجارة أو مشروعات، وإنما هي رأسمالية كسولة هدفها الربح من أكسل طريق، أي أحرم طريق؟

أم هي المشاكل الصغيرة الصغيرة التي تستحيل كل منها إلى مشكلة كبيرة كبيرة حين لا تستطيع أن تجد لها حلًّا، وتتولى، كذرات الدقيق والرمل والغبار الصغيرة والكبيرة، الترسب في مفاصلك الفكرية والنفسية لتحيلك في النهاية إلى ذلك الكائن المقعد إراديًّا أو بلا إرادة، المتكل على الله في النهاية أن تحل المشاكل نفسيًّا، وما عليك إلا أن «تصبر» عليها.

وآه من ذلك الصبر الذي يحفل به تراثنا الفكري والشعبي! إنه ذلك العدو القاتل للإرادة وللعزيمة. الصبر. ذلك الاستسلام المرض البغيض للمشكلة حتى يموت طموحك لحلها، ذلك الاعتماد المتهافت على «الزمن» لكي يحلها أو يحلك أنت وتتحلل معه عزيمتك.

أفي تراث أيِّ شعب في الدنيا مَثَل يقول: الكسل أحلى مذاقًا من العسل. إلا ذلك التراث العظيم. تراثنا؟

أم هذا كله، مرة واحدة، ومعًا، يكون، ذلك الدقيق أو الغبار الذي يتسلل داخل وخارج وحول خلايا مخك وإرادتك وجسدك، ويُحيلنا إلى تلك الأشولة البشرية السمينة تتحرك في بطء قاتل إلى اللاهدف واللاخطة واللاعجلة، ولتصنع في النهاية اللاشيء؟

فيدرا .. وفريدة.

اللحظات قليلةٌ نادرة هي تلك التي تُدرك فيها عظمة وروعة الانتماء، ليس الانتماء فقط، وإنما ما هو أرقى بكثير .. ألف إحساس وإحساس راودني وأنا مزدحمٌ مع أكثر من مائة مصري ومصرية وعربي وعربية في الغرفة الصغيرة الملحقة بجناح الممثلين في مسرح «الأوبرا كوميك» بباريس في أعقاب ليلة الافتتاح لمسرحية «فيدرا أرابيكا» أي فيدرا العربية، التي قدمتها فرقة المسرح القومي في باريس.

وكانت الحفلة فوق حدود الروعة، مباراة خطيرة في الأداء والتجويد بين أكثر من قمة من قمم التمثيل المسرحي عندنا، سميحة أيوب عبقرية الحضور والأداء المسرحي الجديدين، أمينة رزق تاريخ المسرح المصري، ولا تزال جزءًا كبيرًا من حاضره، عبد الله غيث ذلك العملاق، فردوس عبد الحميد تلك الطاقة الهائلة مسرحًا وصوتًا جميلًا، وكان العبء شاقًّا على الشاب الجديد محمد العربي وسط هؤلاء العمالقة، ولكنه استطاع أن يتشامخ ويصمد بأدائه، صديقه ذلك الذي للأسف لا أذكر اسمه، ليلة عربية فعلًا، في قلب عاصمة المسرح في العالم، شيء لا بد يدفعك إلى أن تحس بفخر أن عندنا مواهب، لا تستطيع فقط أن تقارن بالمواهب العالمية؛ ولكنها في أحيان تبزها وأحيانًا في قلب عاصمتها. كنت حاضرًا لتوِّي من ندوة عن آداب الشرق الأوسط بدعوة من الدكتور طلعت هالمان وزير الثقافة السابق في تركيا والأستاذ بجامعة برنستون الأمريكية حاليًا، والذي أقام وبرعاية من الأستاذ مورو بيرجر رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط بنفس الجامعة ندوة عن الأدب العربي وآداب منطقة الشرق الأوسط بالتعاون مع نادي القلم الدولي بنيويورك، ندوة حافلة برياسة المسرحي الأمريكي آرثر ميللر، وحضرها عدد كبير من الكُتَّاب والشعراء والمسرحيين الأمريكيين؛ مثل جون إبدايك، وميروين، وإدوارد إلبي مؤلف: من يخاف من فرجينيا وولف، وسأتحدث في مرةٍ قادمة بتفصيل أكثر عن هذه الندوة الهامة، ولكن ما أريد الآن قوله: إن الأدب العربي كان مُمثلًا في هذه الندوة بالأستاذ يحيى حقي والدكتور إحسان عباس والشاعرين الكبيرين أدونيس وعبد الوهاب البياتي، وكاتب هذه الكلمات، ناهيك عن «سفيرة» الأدب العربي الدكتورة منى ميخائيل التي قامت بعملية الانتقاء والترجمة.

النماذج الشعرية والقصصية والنقدية العربية التي قُدمت أذهلت الحاضرين، أمريكان وغير أمريكان، حتى لقد جعلتني أحسُّ أن أدبنا العربي الحديث مظلومٌ في عالمنا المعاصر، ونحن أول ظالميه، فنحن لا نبذل جهدًا في ترجمته إلى اللغات المنتشرة، وتشجيع طبعه وتداوله في كل أنحاء العالم. إنه مفخرةٌ لأي شعبٍ متحضر تكاد تنحصر فيه كل إسهاماتنا في الاختراع والابتكار والإضافة إلى التراث الحضاري العالمي.

كنت حاضرًا من ندوة أحسست فيها — ربما لأول مرة — بالفخر أنِّي كاتبٌ، وأني كاتب عربي، وها أنا ذا الآن في مهرجان مسرحي مصري في اللغة العربية في قلب باريس. لحظة من اللحظات القليلة التي ترى رأسك وقد شمخت، وتعالت فوق أمواج المحيط المتلاطم من الضياع، التي تحيا فيها فنوننا وآدابنا وعلومنا وإنساننا بشكل عام، ترفع رأسك عن جدارة .. وعن إحساسٍ قويٍّ أننا ممكن، بل نحن فعلًا، شيء كبير وعظيم في هذا العالم .. والقاعة مزدحمةٌ، والتدخين كثير. والحضور في بهجةٍ لامعة بالعرق والتأثر والانفعال والضحكات والتحيات والقبلات والأحضان، نُهنئ بعضنا البعض وكأنما نكتشف أنفسنا لأول مرة. سعيدون تمامًا أننا نحن .. وأننا هنا .. وأننا نصل وسنصل.

كنا هكذا حين قابلني الصديق الفنان سعد الدين وهبة رئيس البعثة الفنية إلى باريس: أتعرف هذه السيدة الواقفة هناك؟

نظرت إليها بإمعان. وهززت رأسي ببطء، فلم أكن أعرفها.

قال: هذه هي «الملكة» فريدة.

– الملكة فريدة!

في الحال انشق في ذهني شريط طويل من ذكريات مُريعة عن عصر الملكية، والملكة الجميلة الأولى، وفاروق، والطفل الصغير الذي كُنتُه .. وأبي يرفعني فوق أكتافه في ميدان الأوبرا لأشهد موكب التتويج، ثم الزواج، وتلك الصورة التي كانت تُباع بقروش للعروس الملكة والتي اشتريتها وعلَّقتها في عروة جاكتتي الصغيرة .. إذن هذه هي الملكة فريدة.

قال سعد الدين وهبة: أُعرِّفك بها؟!

وقدمني إليها، وفوجئت أنها لا تعرفني فقط؛ وإنما تواظب على قراءة ما أكتبه وما يكتبه المصريون والعرب.

ومرة أخرى عاد الشريط يلفُّ في رأسي بعد أن أصبحت الملكة الرسمية وبدأت صورها تظهر في الصحف، صور «رسمية» جامدة. جميلة .. هذا صحيح .. ولكنه ذلك الجمال المتعالي، والذي يجب أن يكون ملكيًّا ومتعاليًا، باختصار .. غير إنساني .. وأستغرب أنا

وأتألم وقد فقدت في رأيي البنت الحلوة التي كنت أُعلق صورتها في عروتي، وها هي قد أصبحت «ملكة» .. لا يبدو على وجهها — رغم ابتسامتها — أي سعادة بالمرة.

والآن ها هي أمامي .. سعيدة كما لم أرَ إنسانة سعيدة هكذا، كيف والهالة الملكية قد غادرتها إلى الأبد، وهي الآن مجرد مواطنة وفنانة ترسم، وقارئة، وقادمة مثلها مثل أي فنانة أو مواطنة عادية تحتفل معنا بفريق المسرح القومي. وتهنئنا وتأخذ معه الصور؟

هالني ذلك البريق السعيد الذي كان يُشعُّ منها ورحت أحاول تفسيره.

ولم أتعب كثيرًا لأُفسره .. إن السلطة كالثراء الفاحش قاتلة لإنسانية الإنسان، فهي تبعده عن البشر، وتمنع عنه الانتماء، وتُحيله إلى كائن مكتئب وحيد، عليه أن يكون وحيدًا وبعيدًا لكي تُحفظ له هالة السلطة والثراء. وهذا أبدًا ليس من طبيعة البشر، في حاجة للانتماء، في حاجة ماسة أن يكونوا «عاديين» ليكون لهم إحساس البشر، وحس البشر، وطعم البشر، وإنسانية البشر.

ها هي المواطنة فريدة سعيدة، أسعد ألف مرة عن كونها متوَّجة أو ملكة، فهي أخيرًا قد وجدت قبيلتها البشرية والإنسانية، أخيرًا قد أصبحت امرأة وفنانة ومنتمية وسعيدة بعاديتها، سعيدة أنها «وسط» مواطنيها وليست «فوقهم»، سعيدة، يشعُّ قلبها بسعادة لم تر مثلها وهي شابة، جميلة رغم تجاعيدها ألف مرة أكثر من جمالها وهي في العشرين، مبتسمة هذه المرة، ليس «كبُوز» ملكي. وإنما ابتسامة بشرية نابعة من أعمق أعماقها.

ألا ما أحمق هؤلاء الذين يتكالبون على السلطة ويفقدون كل ما يجعلهم بشرًا ليحصلوا عليها ويحتفظوا بها! إذ فعلًا يحصلون على القوة والنفوذ ولكن مقابل أن يموت فيهم كل ما هو جميل وإنساني .. وكل ما يجعلهم فعلًا ومن أعماقهم سعداء.

من واحد إلى ٨٠٠ مليون

لم أحزن لوفاة ماوتسي تونج، ذلك أن الإنسان لا يحزن لغروب الشمس بعد أداء وظيفتها. كنت ألحظه في اللقاءات القليلة التي كان يلتقي فيها برؤساء الدول وكبار الشخصيات، وسمعت تعليقًا أو تعليقين من بعض من قابلوه؛ وكنت أقول لنفسي: لقد كبر الرجل الظاهرة وشاخ، وآن له أن يستريح.

ولقد استمعت إلى نعي جمهوريتنا وتقريبًا كل دول العالم له، وقرأت بعض ما كتبه كبار المعلقين والكتَّاب. ولكني ظللت لا أحس أن ذلك الجزء من نفسي الذي يمتُّ إلى ماوتسي تونج قد لمسه أحد. ذلك أن ماوتسي تونج كان أستاذي، أعظم أساتذتي على الإطلاق، في شيء محدد بعينه رغم أني لم أقرأ له إلا كتابًا واحدًا لم يعجبني كثيرًا، ليس لأنه غير جيدٍ، ولكن لأنه صينيٌّ تمامًا بحيث من الصعب على عقلية مثل عقليتنا أن تتفهم وبعمق كافٍ معنى الفهم الصيني للاشتراكية وللثورة الصينية .. وكيف يمكن أو يجب أن تكون. بل حتى ما قرأته عنه كان كله بأقلام غربية ومعظمها معادية .. أما المرجع الحقيقي الذي تعلمت منه فهو للغرابة: حياته ودوره.

في قارة كبيرة صفراء — أو هكذا وصفوها، فاصفرارها الأكبر كان في روحها التي توزَّعت على سبعمائة مليون مطحون في ذلك الوقت، سحقته أقدام أباطرة وحكام غلاظ، وتسلل الإنجليز واليابانيون والمبشرون يقضون على ذبالة الروح الباقية، في مجتمع تُستباح فيه المرأة وتُباع بيع السلعة، فقير إلى درجة الموت بالملايين جوعًا ومجاعات، تائه في بلاده الدائرية التي رغم اتساعها كانت تحتويه كالحُق الذي تتكدس فيه ملايين الجرذان، تائه في حياته، تائه في مصيره، تائه في ثقافته، تائه حتى بثوراته حين يثور، وبانتفاضاته حين ينتفض، وبحكمه الوطني حين يصبح له حكم وطني، في بلاد كلما قام شعبها سقط وتعثَّر

حتى لقد أصبحت قولة زعيمه الوطني الكبير صن يات صن «سعد زغلول الصين»: هذا مجرد فشلنا الثالث عشر.

في بلاد اليأس الذي طغى بعد فشل الثورة والحكم العسكري بقيادة تشانج كاي تشيك الذي قام في جزء منها، والجزء الآخر تحتله اليابان والإنجليز يمرحون فيه تجارة ومكسبًا وأفيونًا ومؤامرات .. بلاد حتى لا يجمعها شمل دين واحد، بل هي ربما لم تصل إلى مرحلة الإيمان بالأديان، كونفوشيوس وبوذا: وملة «الزن» وحِكم قديمة قدم حكماء قدماء من المصريين، لكأنها مصر في أواخر عصر البطالسة الذي انتهى بتفسخ مصر القديمة نهائيًّا وبداية عصور الاحتلال الروماني وما تلاه إلى ألفي عام منذ ذلك التاريخ، لكأنها الجزيرة العربية في أشد عصور الجاهلية جهالة وتفسُّخًا وتخلفًا.

في بلاد مثل تلك، وفي مدينة كشانغهاي، ميناؤها الرئيسي، المليء بالمراكب التي تخطف الخير وتجلب وتخلق كل ما هو شرير وفاسق وخارج على القانون، العاهرات والمهربون والقوَّادون واللصوص وتجار الإنسان والراسبون تمامًا في القاع، المتعاركون في الحانات، المخدرون بتدخين الأفيون وطقوسه، القليلون النائمون في الحرير، والملايين التي تعيش تزحف، ولكي تأكل تلحس وتموت كالدود دون أن تخلف وراءها إلا العفن.

في مدينة كتلك يظهر في إحدى صحفها المحلية — التي تصدر أساسًا لإرشاد «السياح» والبحارة الى أماكن الفساد — يظهر إعلان صغير يقول ما معناه: هل فيكم من يودُّ العمل من أجل الصين القادمة العظيمة؟ هل فيكم من يكترث؟ إذا كان ثمة أحد فليلقني في حانة كذا بشارع كذا في الساعة كذا من يوم كذا .. والإمضاء ماوتسي تونج .. مواطن.

ولا أعتقد أن «المواطن» ماوتسي تونج فوجئ كثيرًا حين لم يجد أن من لبوا نداءه لم يتعدوا الأربعة منهم تشوتيه وليوتشاويتشي، وآخرهم توفي قبل ماوتسي تونج بشهور، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد «من عمد الحزب الشيوعي الصيني»، من هؤلاء الأربعة أو الخمسة الذين التقوا في ذلك المساء في حانةٍ صغيرةٍ من حانات شانغهاي على ما أذكر، لم يبدأ فقط تكوين الحزب في الصين، ولم ينم فقط إلى أن أصبح تعداد قواته ١٣٠ ألفًا، ولم يحدث الزحف الطويل من أقصى الجنوب المعاصر المضروب في الصين إلى أقصى الشمال بحيث هلك منهم مائة ألف في الطريق، إنما بدأت الصين العظيمة الحديثة. تصور، إنسان فرد واحد بادر بنشر إعلان فقيرٍ غريب واجتمع على أثره أربعة يصبحون بعد ربع قرن فقط — وما قيمة الربع قرن في حياة أمة، بل في حياة فرد — دولةً واحدة من أعظم وأضخم وأهم دول العالم، المخيف بعمالقته، المعاصر.

الفرد له دورٌ عظيم في التاريخ .. فهناك أفراد كثيرون لهم أدوار كبرى في التاريخ. ولكن، أية أدوار؟ ذلك هو المهم .. هناك أفراد عظام، هذا صحيح .. هناك شخصيات بحكم عوامل كثيرة تمتلك في النهاية صفة القيادة والزعامة، ولكن ربما غرورهم الفردي، ربما الظرف التاريخي الذي نشئوا فيه، ربما عوامل التسوس الكامن في النفس البشرية تجعلهم «يلوون» عنق التاريخ، ليُخضعوا التاريخ — أقصد تاريخ الشعوب — لمزاجهم هم، وليفصلوه حسب أهوائهم وشخصياتهم، هناك الإسكندر الأكبر، هناك مارك أنطوني، هناك نابليون وهتلر وموسوليني، هناك دلاس وستالين وجونسون، هناك كثيرون .. أرادوا، وفعلًا، «لووا» عنق التاريخ، ولكن التاريخ كالجواد القوي الأرعن لا يذعن إلا لمن يكون معه وليس ضده، ولهذا كان سرعان ما ينفضهم، ويعود إلى مجراه.

ولكن كان هناك، دائمًا وأبدًا، هؤلاء الأفراد العظام، وأنا لا أحب استعمال كلمة عظيم، ولكني أحيانًا لا أجد غيرها وصفًا، هناك دائمًا هؤلاء الأفراد الذين بحكم إخلاصهم وحماسهم وقدراتهم وتكوينهم لا بد وأن يصبحوا زعماء، ولكنهم أبدًا لا يلوون عنق التاريخ، وإنما يسيرون به ومعه وكأنهم مُسيرون، من إرادة الناس في التغيير يستمدون قدرتهم وإرادتهم على التغيير، من حيث يتشممون بأنوفهم وحواسهم الربانية الخفية اتجاه رياح الإنسان يتوجهون إلى حيث تُريد الريح، هناك الرسل والأنبياء .. وقادة الفن والفكر، تاريخ البشرية حافلٌ بمجموعة قد تكون قليلة جدًّا بالنسبة لتعداد البشر في كافة العصور، ولكنها هامة جدًّا؛ لأن الواحد منهم أحيانًا ينهي عصرًا ويبدأ عصرًا، وعلى يديه تنتهي حقبة لتبدأ حقبة، وبإرادته يتحول شعب، أو تتحول قارة، أو حتى تتحول البشرية جمعاء، من أناس مظلومين ظالمين، مجني عليهم وجانين، متفسخين .. واللااختلاف واللاتدجيل واللاخداع واللاكذب واللانفاق .. هذا الكائن البشري العظيم — واعذروني مرة أخرى — لا يفسد إلا رغم أنفه ولا يفسد إلا لأن ما حوله وما فوقه وما تحته فاسد، لا يفسد حتى لو أراد، إلا رغم أنفه، وإلا تحت ضغط ظروف أو مغريات هي أقوى من ضعفه البشري وقدرته الفردية على الاحتمال، نفس ساقطات الصين وعاهراتها تحولن إلى أمهر العاملات والمنتجات، والمخدرون بالأفيون تحولوا إلى أوعى البشر، والظالمون تحولوا بحكم سيادة العدل إلى أعدل العادلين، واللصوص إلى شرفاء، والمقهورون إلى أسوياء .. والقاهرون إلى دعاة للحق والخير والمساواة، ولصوص الموانى إلى حماة لثروة الشعب، والقوادون إلى مدرسين يُعلِّمون البنات فضيلة أن تكون المرأة حرة، والمرأة لا تكون حرة إلا إذا امتلكت حق تقرير مصيرها، ومن الرقيق والحريم تحولت إلى إنسانة، لها إرادة، وبإرادتها تختار

الرجل وتحبه أو تتزوجه، والرجل من أب يختلس ليضمن المستقبل لأولاده إلى رجل حلت به سكينة الأمن إلى المستقبل، وإلى أن المجتمع كله، وليس هو، كفيل بأولاده ومستقبلهم، هذا الأمن البشري حين يحل، هذا العدل الأرضي حين يوجد. هذا الاحساس الغامر الجميل أنك لست عبئًا على أحد، وأن أحدًا ليس عبئًا عليك، وإنما معًا وكلنا نحمل ونتحمل وندفع، والإنجيل والتوراة. أليست هي ما تقوله الموسيقى الحقة والصوت الشجي وأذان المؤذن وقرع أجراس الكنيسة؟

نحن ضعاف هذا صحيح، فنحن لسنا آلهة، ولكنا أقوياء تمامًا حين نجتث عوامل الضعف، وأي ممن يجتث عوامل الضعف مصيره الجنة. الجنة أولًا في قلوب الناس، والجنة ثانيًا على الأرض، والجنة ثالثًا حين يُقاضيه قاضي قضاة الكون، ذلك لأن الكائن في سمائه والكائن في كل منا، نُخفيه حين نشاء ونُظهره إذا ظهر الآخرون.

حرية الصحافة ليست حرية البعض

ليست حرية الصحافة هي فقط أن يكون الكُتَّاب والصحفيون أحرارًا في التعبير عن آرائهم، ولكنها أولًا وأساسًا «جزء» من حق «الشعب كله» في التعبير عن نفسه، الكتابة هنا يصبح دورها كدور المغني .. ليس هدفه أن يُمتع الناس بحلاوة صوته .. ولكن المغني الحقيقي هو الذي يُغرينا ويحرضنا على أن نُغني نحن، إذ الأصل أيضًا في الغناء أن يُغني الناس جميعًا. لعل هذا يُفسر لي ظاهرة الخطابات الأخيرة التي وصلتني، خطابات لم تعد تحمل «شكاوى» و«توجيهات» شخصية أو في معظمها لا تنعي مظالم لحقت بها ولكنها خطابات .. فوق ما تحمله من كلمات صادقةٍ طيبة .. تُحمِّلني عبئًا روحيًّا مهولًا .. «تعبر» عن وجهات نظر وآراء وحتى حلول لمشاكلنا، لا تكتفي حتى بالنقد، وإنما ترجع المرض إلى السبب وتصل إلى الأساس وتبني البلد والحلم الجديدين .. خطابات .. من فرط صدقها؛ ليست «أي كلام» .. ولكنها تصل ببلاغتها حد الصدق الفني الرائع حتى تبدو بعض الكلمات التي نقرؤها منشورة باهتة تمامًا إلى جوارها.

ولَكَم كان بودِّي أن أنشرها كلها هنا .. أو على الأقل مقتطفات منها .. ولكن رغم فرحتي الغامرة لهذه الانطلاقة التعبيرية المذهلة فأرجو أن تقبلوا عذري أيها الأصدقاء، فثمة اعتبارات كثيرة منها الساحة وظروف العمل، والكلمات الصادقة الطيبة الموجهة إلى شخصي تُرغمني على حرمان قراء هذه الكلمات من القراءة «كتابًا».

الشمس لا تشرق فجأة

إذا الشمس غرقت
في بحر الغمام،
ومدت على الدنيا
موجات الظلام،
ومات البصر في العيون
والبصاير،
وغاب الطريق
في الخطوط والدواير،
يابو المفهومية
مفيش لك دليل
غير عيون الكلام.

الأبيات للشاعر أحمد فؤاد نجم من ديوان عن دار الثقافة الجديدة في مصر. كنت قد قطعت الطريق الصحراوي على نفسي، وأوغلت في الرمل كثيرًا، وحيدًا، أستمتع بالوحدة والسكون، وربما الإحساس الكامل بالعدم. أزيز السيارات البعيدة على الطريق يُضايقني كما يحرمك ناموس الريف من لذة الليل العظيم هناك. الوحدة أمرٌ صعب في شريط ضيق يحتله أربعون مليون نسمة، بحيث من كثرة وشدة وازدحام ما ترى تضيق أحيانًا — وتمامًا — بالإنسان. كنت في الحقيقة أفكر في السراب، تلك الظاهرة التي فسَّروها لنا «علميًّا» في الطبيعة بقولهم: إنها ظاهرة سببها الانكسار الضوئي وقوانينه تلك التي تُجسَّد لعين الإنسان العطشان التائه في الصحراء أنه، هناك، بعيدًا ثمة ماء. ماء عذب يترقرق ويلمع

ويُنادي من يشربه، ويلهث التائه في الصحراء جريًا وراء الماء، ولا ماء، إنما وراء كل سرابٍ سراب. ويظل التائه العطشان يجري ويلهث ويحشد كل خلية من خلايا جسده ليجري ويصل، ولا يصل.

ما أقصر العلم المعروف إلى الآن أن يُفسر بعض الظواهر تفسيرًا كليًّا متكاملًا .. فالسراب ليس فقط ظاهرة علمية تحدث بسبب مُعامل الانكسار الضوئي، السراب أيضًا له سبب أقوى إنساني ونفسي .. فلو لم «ير» الإنسان ذلك السراب .. لو، أدرك إدراكًا كاملًا وتامًا وعميقًا أنه حوصر بالرمال، وتاه تمامًا، وأن لا أمل البتة، لمات، أجل، لمات .. فالحياة ليست هي القلب والنبض وإفرازات المعدة والأمعاء .. الحياة أولًا وأساسًا إرادة الحياة، حتى في الكائنات الدنيا التي بلا عقل هي إرادة حياة غير واعيةٍ. عند الإنسان بالذات، إرادة الحياة مرتبطة بالرغبة في الحياة، ولا رغبة بلا «أمل» في الحياة .. بمعنى أن الحياة هي «الأمل» المستمر في الحياة والبقاء .. وفقدان الأمل تمامًا في الحياة غير اليأس. فاليأس، وإن كان عدم قدرة على الأمل تمامًا وانعدامه. إنه يعني فقط أن العقل البشري قد سدَّت في وجهه جميع سبل الخلاص، ولكن الأمل في الحياة نفسها لا يزال موجودًا. ولكن فقدان الأمل الكامل هو الموت، إذ بدون ذلك الشعور — حتى لو كان مرهقًا ودقيقًا لا يكاد يُرى — تُخمد تمامًا رغبة الحياة، الحياة ذاتها .. وإن كان سيظل الإنسان حيًّا. فهو في الحقيقة سيحيا موتًا، أو سيموت حيًّا إلى أن يُذوى تمامًا ويدركه الموت الجسدي الحقيقي الكامل.

السراب — حتى السراب — ليس كارثة بالمرة، فهو قد يكون المعين على أن نبقى أحياء، نمشي ونجري ونلهث وراءه إلى أن نعثر على الماء الحقيقي، قد لا نعبر أبدًا هذا صحيح، ولكن الطريق ليس أبدًا أن نأمر أنفسنا حتى لا تذهب وراء الحلم والوهم، ففي بقائنا — حتى بالسراب — إحياء فرصة أكبر وأطول للحياة، بل ربما الفرصة الوحيدة للنجاة.

… و«عيون الكلام» كما يقول أحمد فؤاد نجم. وكما سبق أن قال كثير منا لنفسه ولغيره، قد يكون السراب حين «يغيب الطريق في الخطوط والدواير» .. فالكلمات، حتى أصدق الكلمات، ليست في النهاية سوى كلمات لا تُغني مطلقًا عن الحقيقة، ولا يمكن أن تحل محلها، إنما هي في النهاية تُعين ذلك الإنسان المُحاصر المرهق أن يظل حيًّا حتى يجد لنفسه الطريق، وحتي يعثر، بنفسه أيضًا، على الحقيقة .. وكما لا بد للقارئ المحاصر من سراب من الكلمات كي يحيا، فلا بد للكاتب أيضًا «مصدر السراب» أن يكون له هو الآخر سرابه الخاص الذي يتراءى له حتى يظل قادرًا على إفراز «عيون الكلام»، ولو انطفأ

السراب أمامه، وحُوصر هو الآخر تمامًا لماتت الكلمات على شفتيه أو سن قلمه تمهيدًا لموته هو الشخصي بعد فترة قد تطول وقد تقصر.

كنت جالسًا على حجر والصحراء ممتدة رملية وجبلية ومتلونة أمامي، وضجة الحياة خافتة تمامًا من حولي، أفكر في هذا، وأفكر بالمرة في ذلك الخطاب الغريب الذي وصلني من قارئ يقول فيه:

«إذا كنت قد ذكرت أننا نتمتع بحرية التعبير، وأن أحدًا لم يحذف لك كلمة أو مقالة، فأتحداك أن تنشر وتقول كذا وكذا وكذا.»

كنت أفكر في خطاب ذلك القارئ، لا لأهميته الخاصة، فهو مجرد خطاب واحد من بين طوفان من الخطابات؛ وإنما لأنه يمثل قطاعًا من تفكير البعض. ذلك القطاع الذي يتصور أن الحرية الحقيقية هي أن — فجأة هكذا، وفي لحظات — تنتقل من حالة الصمت الكامل إلى الحالة القصوى التي يكون لك فيها حرية، أن تهدم المعبد كله إذا أردت، وكأننا انتقلنا إلى كون آخر تحكمه قوانين أخرى، وكأنما نحن غير موجودين في بقعة ما من عالم ثالث، يحيا في ظروف ما أهولَها، ويثقل كاهله ميراث رتيب من التسلط والكبت، وتاريخ طويل في محاربة الكلمة وقائلها وكاتبها .. بل محاربة الفكرة مهما تكن الفكرة، والتفكير مهما يكن التفكير.

إنما خطأ وخطر هذا النوع من التفكير قائمٌ على ركيزتين لا بد من إزالتهما تمامًا قبل أن نتصور أن بإمكاننا أن نتقدم خطوة. الركيزة الأولى هو هذا التصور القائم على تصور أن الآخرين — زعماء كانوا أو كتَّابًا أو مفكرين أو قادة — على أن الواحد منهم هو هرقل الذي سيقوم بحمل المسئولية كلها وحده، وأن عليه هو أن يحمل تبعة المشاكل كلها ويحلها، وأن يكون «المسئول» الأوحد حتى عن حل مشاكل الخاصة. الركيزة الثانية هي هذا اللجوء الغريب إلى الآخرين لتكافح أنت من خلالهم. فبدلًا من أن يُرسل القارئ خطابه هذا إلى المقصود بكلماته يحاول أن يُحملك أنت مسئولية خوفه من أن يخوض التجربة ويتحمل نتائجها، يريد أن يُرضي ضميره على حسابك أنت ويقول: لقد كتبت إلى فلان وحملته المسئولية. فكأنه أدى كل ما عليه من واجب، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

هذا فهمٌ خطير تمامًا .. فالكاتب — أي كاتب — لا يمكن أن «يطلَّع الإنجليز من مصر وحده». إنما هو فيما اعتقد يكتب ليس بهدف أن يزود الكون من حولنا بشمس ساطعة تُضيء الظلام وتصنع النور الأوحد الوهَّاج، إنما هو يكتب بهدف أن يُضيء شمعة

صغيرة تُري الآخرين كيف يُضيئون شموعهم الخاصة، بحيث من مجموع ملايين الشموع يتكون النور الجماعي الوهاج. والمثل الصيني البسيط القائل: بدلًا من أن تلعنوا الظلام أضيئوا شمعة. ينطبق هنا تمام الانطباق .. فبدلًا من أن تعير الآخرين بأن شموعهم هزيلة، وتطالبهم بأن يستبدلوها، وعلى الفور، بشمس كبيرة باهرة، ألا تحاول أنت، من جهتك، أن تتحمل مسئولية أن تُضيء شمعتك الخاصة. أن تحاول حتى .. أن تبحث عن ثقاب، إن ينطفئ ثقابك، أن تحاول مرة أخرى .. بدلًا من أن تواجه أنفاسك مع أنفاس الأعداء لإطفاء هذه الشمعة المتواضعة .. تفعل أبسط مبادئ المعاونة، وأن تكون بقلبك حتى مع هذه الشمعة الوليدة .. ألا تدعو معي بقولك: اللهم احمِ شمعتي من أنفاس أصدقائي؟ أمَّا أنفاس أعدائي فأنا الكفيل بإخمادها. ألم تسمع أبدًا عن المثل الشعبي الدارج: داري على شمعتك تولع؟

أم أنك في الحقيقة لا تريد الحياة لشموع الغير ولا لشموعك، وإنما تريد أن يظل الظلام تامًّا ودامسًا، لأن شعاعة الأمل تعني أن تقوم، وفورًا، بالحركة وبالعمل وأنت لا تريد أن تتحرك ولا أن تعمل ولا أن تكبِّد نفسك مشقة أن تحمل مسئولية أن تخطو خطوة، ولهذا تريد إقناع نفسك أن كل شمعة تُوقد إنما هي نورٌ زائف مخادع، وأن الأصل هو أن الظلام مطبق، وأن لا فائدة .. طيب يا سيدي .. لا فائدة .. ننتحر مثلًا؟! نحن نضل مثلك، ونشل إرادتنا وتفكيرنا ومصادر الأمل فينا ونخمد أي سراب ونستعد للموت حياةً أو للحياة موتًا. إن حلم أن تشرق الشمس فجأة، كاملة وساطعة، حلم الموتى يأسًا وكسلًا وخمودَ همة، فأبدًا لن تشرق الشمس فجأة، فهذه معجزة، ولسنا وما كنا أبدًا في زمن معجزات، إنما تشرق الشمس من صنع الإنسان، ملايين الإنسان، تشرق بشموع يُوقدها كل منا، ومن مجموع هذه الشموع، من ملايينها، يتبدى النهار، ويبدو الطريق، ونسير معًا في النور .. وأي شيء سوى هذا التصور لشروق الشمس وظهور النهار هو عبث أطفال وأحلام منتحرين يأسًا وكسلًا وخمود همة .. شمس الحياة من صنع الإنسان، ليس الإنسان الواحد، وإنما كل إنسان، والنور نورنا كلنا حين يُساهم كل منا بشمعته، ويجب أن نتعلم أن نكف عن لعن الآخرين لأنهم نجحوا في إضاءة شمعة، وبدلًا من أن نلعن الظلام .. بدلًا من أن نلعن الشمعة الواحدة الموقدة، نتعلم كيف نُوقد نحن شمعتنا وباستطاعة كل منا — لو أراد — أن يوقد شمعته، فالشمع المطفأ في جيوبنا وحولنا ومعنا، كل ما في الأمر أننا لا نريد أن نُتعب أنفسنا ونحمل مسئولية الإنارة لغيرنا، ونكفي أنفسنا شر القتال. أبدًا، حتى الشمس، لا تشرق فجأة .. نحن بالتدريج نصنعها وسنصنعها.

هنداوي